ختلاف حكام لنقاد

بقلم : علی أدهم

كثيراً ما تختلف الأحكام فی تقدير مواهب الشعراء والكتاب والفلاسفة والمفكرين ، وتتباين الآراء فی تقدير قيمة مؤلفاتهم ، ووزن آرائهم ، وتقويم مكانتهم بوجه عام ، وقد تتعارض فی ذلك أحكام الأجيال المتعاقبة ، وقد عقد الشاعر الفرنسی الكبير فيكتور هيجو فصلا فی كتابه القيم عن شيكسبير عنوانه « عبقرية شيكسبير » ونقل فی هذا الفصل آراء كثير من كبار نقاد الإنجليز والفرنسيين فی القرن الثامن عشر والقرن السابع عشر فی انتقاص عبقرية شيكسبير ، والاقلال من شأنه ، وتهوين أمره ، واتهامه بالسرقة وفقدان الأصالة ، ففوربز كان يقول عن شيكسبير : « ليس عنده موهبة المأساة ولا ملكة الملهاة » . وكان الدكتور جونسون الأديب العلامة المشهور يقر هذا الرأی ، ولورد شافتزبری كان يقول عن شيكسبير : « عقله فظ ومتوحش » . ودرايدن الناقد الحصيف كان يقول : « شيكسبير غير مفهوم » . وقد اتخذ فولتير شيكسبير هدفاً لاظهار براعته فی النقد والزراية ، وتأثر الكثيرون من الأدباء الفرنسيين فی القرن الثامن عشر برأی فولتير فی شيكسبير ولم يبدأ

التحول من الانتقاص لأدب شيكسبير إلى تقديره وإكبار عبقريته إلا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

والعبيدى مؤلف كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبى لفظاً ومعنى » يقول فى مقدمة كتابه : « لقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التى تفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة » . ويظهر تعجبه من الذين يقدرون أدب المتنبى تقديراً عالياً ، ويقول : إنه مع تقديره للمتنبى لا يرفعه إلى طبقة أبى تمام ، ولا يضعه إلى جانب البحترى ، ولا يقيسه بابن الرومى ، وهو رأى أرجح أن النقد الحديث لا يوافقه عليه .

واختلاف الأحكام بين العصور المختلفة مرده إلى أن لكل عصر جوه الفكرى الخاص والنزعات الفكرية الغالبة عليه ، ومن شأن هذه النزعات أن تؤثر فى الأحكام الأدبية .

أما اختلاف الأحكام بين المعاصرين فيرجع إلى أسباب كثيرة قد يكون من غير الميسور استقصاؤها جميعاً ، ولذلك سأكتفى بالإشارة إلى بعض الأسباب التى أعتقد أنها فى أغلب الأوقات لها الصدارة ، وربما كان فى طليعتها الحماسة والاعجاب الذى يستشعره الشبان فى مطالع حياتهم وغلبة المثالية على طباعهم ، ففى فورة حماسة الشباب يبحث الشبان عن بطل يعجبون به ، ويتلقون آراءه وأفكاره كأنها وحى يتنزل من السماء ، أو كأنه ملك الحكمة وأخذ بناصيتها فأصبحت طوع أمره ورهن إشارته ، وهذه المغالاة فى التقدير قد تنقلب إلى النقيض حينما تهدأ فورة الشباب وتنجلى غيابته ، وقد عرفت الكثيرين فى الأدب والحياة ممن استحال إعجابهم مقتاً وزراية ، وتنكروا كل التنكر لما كانوا يقدرونه ويكبرونه .

وهناك حكم عرفان الجميل وتقدير الفضل والإشادة بما أفاده الإنسان من الكاتب أو الشاعر ، ومن الأمثلة البارزة لهذا النوع من التقدير إعجاب الكاتب البريطانى الكبير توماس كارلايل بشاعر الألمان وحكيمهم جيتى ، فقد كان كارلايل فى ميعة شبابه يعانى حيرة فكرية ، ويضرب فى تيه مضل من الشك ، واتفق أنه تعلم فى تلك الفترة الحرجة من حياته اللغة الألمانية ، وشاءت المصادفة الحسنة أن يطلع على مؤلفات جيتى فوجد فيها ضالته المنشودة ، واستنقذته من بيداء الشكوك والحيرة وردت عليه الأمل فى الحياة والإيمان بالخير ، وقد عرف كارلايل لأستاذه جيتى هذا الجميل وظل طوال حياته يشيد بفضل جيتى ، ويثنى على حكمته ، ويكبر أدبه وعبقريته ، وكان تقديره العالى لمؤلفات جيتى ثمرة من ثمرات الوفاء وعرفان الجميل .

ونقاد الأدب المحدثون يقدرون مواهب كارلايل الأدبية ، ويعجبون بصدق سريرته وإخلاصه للأدب ، وحسن تقديره ، ولكنهم يرون فى كتابته عن جيتى شيئاً من المبالغة لا يتابعونه فيه إلى النهاية .

وهناك الأحكام التى تمليها المنافسة أو الكراهة والعنف ومجافاة الانصاف ، على أن حكم المنافسة والكراهة لا يخلو من فائدة ، وقد يجئ الخير من الشر ، وينعم الله بالبلوى وإن عظمت ، والشاعر الذى قال إن أعداءه لهم عليه فضل ومنة لأنهم عرفوه عيوبه فاجتنبها قد أصاب ووفق ، ومن الأمثلة البارزة فى تاريخ الأدب لما يفعله الحسد والغيرة والتحامل رسالة الصاحب بن عباد عن المتنبى التى أسماها « مساوئ المتنبئ » وقد نقل الثعالبى جانباً منها فى كتابه « يتيمة الدهر » وكان الصاحب معاصراً للمتنبى ، وطمع فى زيارة المتنبى إياه بأصبهان ، وهو إذ ذاك شاب ولم يكن قد استوزر بعد ، وكتب إليه يلاطفه فى استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، ولكن المتنبى لم يقم له وزناً ولم يجبه عن خطابه ، فأحفظه ذلك وملأ قلبه غيظاً وحسداً حتى وجد هذا الغيظ متنفساً فى تلك الرسالة التى وقفها على ذكر مساوئ المتنبى ، وأفاض فيها فى ذكر عيوب شعره ونواحى ضعفه ، وهذه الرسالة على ما بها من تحامل ومجافاة للانصاف وتعمد للاساءة ومغالطة فى بعض أجزائها لا تخلو قراءتها من فائدة ، لأن الصاحب كان من كبار أدباء عصره ، وبرغم تحامله على المتنبى وأدبه فانه قد وضع يده على بعض العيوب الجوهرية فى شعر المتنبى وأدبه .

وهناك الأحكام التى يكون مصدرها الجهل أو العجز عن الفهم ، وهى من أسوأ الأحكام وأمعنها فى الشطط وإن كانت فى الواقع لا تضر بجوهر رسالة الشاعر أو أدب الكاتب ، وذلك لأنها لا تصيب الهدف ، وتتحدث عن موضوع آخر غير الموضوع الذى يزعم صاحبها العلم به ، ولكنها مع ذلك قد تسئ إلى مكانة المنقود عند الذين لا يحسنون التحرى ولا يتسع وقتهم للبحث ، ومن بواعث الأسف أن الأحكام الصادرة عن الجهل ليست قليلة سواء فى الحياة أو عالم الأدب والفكر ، وكثيراً ما يتحامل الناس على أحد المفكرين وهم لا يعرفون حقيقة تفكيره واتجاه مذهبه ، وإنما توهموا له صورة مخالفة للحقيقة ، وقد يكون سبب ذلك إسفاف تفكيرهم ، وعدم استطاعتهم الارتفاع إلى مستوى المفكر الذى يحاربونه .

وقد يكون باعث ذلك الدعاية التى يبثها خصوم الكاتب أو الشاعر وأعداؤه .
ومن كبار المفكرين الذين أساء إليهم وأضر بهم حكم الجهل الفيلسوف الإسلامى الكبير ابن رشد ، فانه مع صحة إيمانه وصدق تدينه أتهم فى دينه ،

لأن الذين اتهموه لم يحسنوا فهمه ، ولم يستطيعوا الارتفاع إلى مستواه ، ومنهم الفيلسوف الحكيم اسبينوزا الذى أتهم بالالحاد ، والذى قال عنه رينان فى احتفال رفع الغطاء عن التمثال الذى أقيم له فى مدينته لاهاى إنه كان ممتلىء النفس بفكرة وجود الله ، ولكن الذين عجزوا عن فهم تفكيره الفلسفى الدقيق الذى يحتاج إلى استعداد خاص ومران طويل رموه بالكفر والالحاد .

وهناك أحكام أصحاب المذاهب والنظريات ، وهؤلاء يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى تلقى أحكامهم فى احتياط وحذر ، لأنهم ينظرون إلى الشعراء والكتاب من زاويتهم الخاصة ، ويحاولون أن يفسروا آراءهم فى ضوء نظرياتهم ، ويكادون يفرضون عليهم آراءهم ومذاهبهم ، فالوجوديون مثلا يحاولون إدخال أكثر الكتاب والشعراء فى حظيرة الوجودية ، ويفسرون أقوالهم فى ضوء المذهب الوجودى .

وأكثر أصحاب المذاهب والنحل يتبعون هذه الطريقة ، فهم لا ينظرون إلى الشاعر أو الكاتب على حقيقته ، وإنما يحاولون أن يجعلوه وسيلة لتأييد مـــذهبهم .

وهناك اختلاف الأحكام الناشئ عن اختلاف الأمزجة والطبائع والأخلاق والعادات والبيئة والنشأة والتقاليد الثقافية .

ومن الأمثلة الحديثة التى تسترعى النظر إلى اختلاف الأحكام رأى الدكتور طه حسين فى عبقريات العقاد الذى كشف عنه أخيراً فى حديثه التليفزيونى وأكده بعد ذلك فى حواره مع الأستاذ أنيس منصور ، فالدكتور طه يقول إنه لم يفهم عبقريات العقاد ، وهو رأى أثار دهشة الكثيرين من الأدباء والمفكرين ، وأشار الدكتور طه إلى عبقرية عمر بالذات ، ويقول الأستاذ أنيس منصور فى جريدة الأخبار الصادرة يوم ٢٦ مارس الماضى : « وجلست إلى طه حسين ساعتين وهو يؤكد لى أنه لم يفهم عبقرية عمر ولا عبقرية محمد ولا أية عبقرية أخرى . . . » . ولم يذكر الدكتور طه سبب عدم فهمه لعبقريات العقاد ، وهل كان سبب ذلك قصوراً فى بيان العقاد أو عيباً فى طريقة عرضه وغموضاً فى تفكيره ، وقد عبر الأستاذان نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم للأستاذ أنيس عن تقديرهما العالى لعبقريات العقاد ومكانة الأستاذين فى الأدب المصرى الحديث معروفة .

ويمكن أن نستخلص من ذلك أن من يلتمس الحق عليه أن يتلقى معظم ما يسمع من الأحكام الأدبية مهما يكن مصدرها فى تحفظ وتبصر ، وأن يقلبها على جوانبها المختلفة ليحاول معرفة غثها من سمينها وباطلها من صحيحها ..

على أدهم

البحار والمحيطات



تأليف
الدكتور أنور عبد العليم

يعتبر امتداد شواطئ الجمهورية العربية المتحدة على بحرين من أعظم بحار العالم وهما البحر المتوسط فى الشمال والبحر الأحمر فى الشرق من الميزات الطبيعية التى دفعت بلادنا منذ أقدم العصور إلى الاهتمام بالدراسات البحرية ، فلم يكن اهتمام قدماء المصريين قاصراً على علوم الطب والزراعة والهندسة والفلك والرياضيات وغيرها ، بل تعداها إلى دراسة البحار والمحيطات ، فكانت أساطيلهم تجوب هذه البحار متجهة إلى مشارق الأرض ومغاربها حيث تعود محملة بالذهب والعاج والأبنوس والمنسوجات والتوابل والعطور وغيرها ، كما أنهم ضربوا بسهم وافر فى ابتكار وسائل صيد الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى كما هو واضح من النقوش والرسومات التى سجلتها آثارهم الخالدة على الزمن ، فكانت هناك طرق الصيد بالسنانير والحراب والشباك مما لا يزال معمولا به إلى وقتنا هذا فى مصر ، وفى كثير من البلاد كالهند والصين واليابان وأندونيسيا وغيرها .

وليس هناك شك فى أن لحوم الأسماك والحيوانات البحرية الأخرى من أهم المصادر البروتينية فى غذاء الإنسان ، ولذلك فانه من الضرورى ، بل من الواجب علينا أن نتوافر على دراسة الثروة السمكية فى مصر وأن نعمل جاهدين على تطوير طرق الصيد بقصد زيادة الإنتاج ، فنستطيع عندئذ أن نستغنى بها عن الكميات الضخمة من لحوم الأبقار والأغنام التى نستوردها من الخارج بالعملات الصعبة ، ويؤدى ذلك بطبيعة الحال إلى استخدام هذه العملات فى تصنيع البلاد ، ففى انجلترا واليابان وغيرهما من الممالك البحرية تشكل لحوم الأسماك نسبة كبيرة فيما يستهلك من اللحوم فى تلك البلاد .

ولا يستطيع الإنسان استغلال البحار استغلالا اقتصادياً دون التعرف على طبيعتها ودراسة الأحوال السائدة فيها حتى يكتب له النجاح والتوفيق ، ولما كانت المكتبة العربية خالية من الكتب الخاصة بهذه الدراسات — بينما توجد مئات منها بمختلف اللغات الأجنبية — فيعتبر صدور كتاب « البحار



الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر
٢٢٨ صفحة ١٧×٢٤ سم الثمن ٦٥ قرشا

والمحيطات » للدكتور أنور عبد العليم خطوة موفقة نحو نشر هذه الدراسات باللغة العربية وتدعيم أركانها بين الناطقين بالضاد .

وهو يؤدى فى الواقع إلى ثلاثة أهداف متباينة وهى :

أولا — إيضاح أهمية دراسة البحار والمحيطات والوسائل المستخدمة فى هذه الدراسة .

ثانياً — دراسة البحار والمحيطات من النواحى الطبيعية والجيولوجية والبيولوجية .

ثالثاً — التعرف على اقتصاديات البحار والثروات التى يمكن استغلالها لخدمة بنى الإنسان .

* * *

والاقيانوغرافيا أو علم دراسة البحار والمحيطات من العلوم المركبة التى يستدعى الالمام بها الإحاطة بعدد كبير من العلوم الطبيعية والكيميائية والبيولوجية وغيرها ، ولذلك يلتزم المؤلف عند تناوله للدراسات التى يعالجها الكتاب بتقسيمها إلى الاقيانوغرافيا الطبيعية والجيولوجيا البحرية والاقيانوغرافيا البيولوجية والاقيانوغرافيا الاقتصادية ، ثم يعدد فى إيجاز الظواهر والدراسات التى تدخل فى نطاق كل قسم من هذه الأقسام . وينتقل بعد ذلك إلى تاريخ الكشوف الاقيانوسية منوها بفضل المصريين القدماء والعرب على الملاحة البحرية عن طريق ارسال البعثات الاستكشافية التى كانت الأولى من نوعها فى العالم ، فقد أرسل الملك نخاو مثلا عام ٥٠٠ قبل الميلاد أسطوله البحرى فى البحر الأحمر ليدور حول أفريقيا ، حيث عبر خلال هذه الرحلة أعمدة هرقل (جبل طارق) إلى البحر المتوسط ثم إلى مصب النيل مرة أخرى ، واستطاعت هذه البعثة الحصول على أعظم كشف بحرى فى ذلك الوقت وهو استكشاف المحيط الهندى والمحيط الأطلنطى الذى كان يعرف حتى فى القرون الوسطى « ببحر الظلمات » ، ثم تأتى بعد ذلك البعثات الأوروبية الاستكشافية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومنها رحلة فاسكودى جاما وكريستوف كولمبس ومجلان ،

ويستمر المؤلف فى سرد الرحلات البحرية الكبرى إلى يومنا هذا بما فى ذلك الرحلات الجغرافية أو البيولوجية . ويحتوى الجزء التمهيدى من الكتاب أيضاً على وسائل الدراسة والبحث فى علوم البحار حيث يتناول سفن البحث والمعاهد الدراسية والأجهزة التى تستخدم فى تحديد المواقع وسبر الأغوار واستخراج عينات القاع وقياس الطبقات الرسوبية والتصوير الفوتوغرافى والتليفزيون على قاع البحر وكرة الأعماق وغواصة الأعماق وغير ذلك من الوسائل التى يستخدمها العلماء والباحثون فى الكشف عن خبايا الأمواج .

* * *

ويعتبر الجزء الثانى من الكتاب ـ وهو الخاص بدراسة البحار والمحيطات من النواحى الطبيعية والجيولوجية والبيولوجية ـ أكبر الأجزاء وأكثرها أهمية بالنسبة للدارسين ، فالظواهر الطبيعية مثلا لا تقتصر على دراسة ماء البحر والتعرف على خواصه الطبيعية والكيميائية وتكوين الجليد ودرجة الحرارة والملوحة ، بل تمتد إلى التعرف على حركة الأمواج وخواصها ودراسة التيارات البحرية فى مختلف المحيطات وأثر هذه التيارات على الحياة فى البحر وكذلك ظاهرة المد والجزر وغير ذلك من الدراسات .

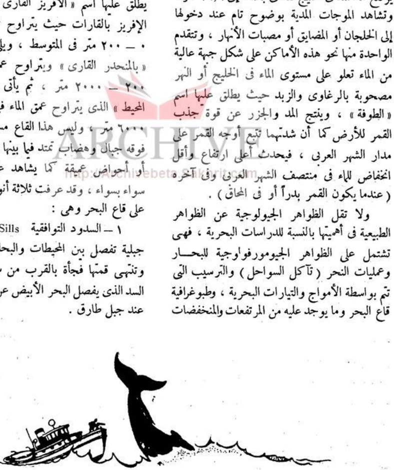
وتحتوى البحار والمحيطات على ما يقرب من ٩٨ ٪ من الماء الموجود على سطح الكرة الأرضية ، وماء البحر أكثر كثافة من الماء العذب نظراً لاحتوائه على كثير من الأملاح الذائبة فيه ، ولذلك تطفو الأجسام بسهولة فى ماء البحر عنها فى الماء العذب كما تكون السباحة فى البحر أيسر منها فى الأنهار والبحيرات العذبة ، وأهم الأملاح الموجودة فى ماء البحر هى كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وكلوريد المغنسيوم وسلفات المغنسيوم (الملح الإنجليزى) وسلفات الكالسيوم والبوتاسيوم وبروميد المغنسيوم وكربونات الكالسيوم ، وهى توجد بنسب متفاوتة ولكنها فى مجموعها تكون حوالى ٣٥ فى الألف من ماء البحر ، ومعنى ذلك أن اللتر الواحد من ماء البحر يحتوى على ما يقرب من ٣٥ جرام من هذه الأملاح ، ولذلك تحتوى البحار والمحيطات فى مجموعها على مقادير لا يمكن تصورها من الأملاح المعدنية ، وتعتبر فى الواقع معيناً لا ينضب لاستخراج هذه الأملاح . وماء البحر شفاف عديم اللون ولكن ترجع زرقة البحر إلى تشتت الأشعة الضوئية ، وتزداد هذه الزرقة فى المياه العميقة وكلما ابتعدنا عن الشاطئ ، كما يتأثر لون البحر أيضاً باختلاف طبيعة القاع وبارتفاع الشمس فى الأفق وبوجود السحب والغيام فى الجو وبوجود رواسب الأنهار التى تتدفق إليه وخصوصاً فى أزمنة الفيضانات ، ولذلك كثيراً ما نلاحظ أن سطح البحر يتلون بألوان مختلفة تبعاً لتلك العوامل .

ولا يبقى ماء البحر ساكناً ، بل تحركه الأمواج السطحية التى تنشأ بفعل الرياح والعواصف أو الأمواج العميقة المدمرة التى تنشأ بفعل الزلازل والبراكين على قاع البحر . وهناك أيضاً التيارات البحرية ومنها التيارات الأفقية التى تسير على سطح البحر أو تحت هذا السطح فى اتجاه أفقى وكذلك التيارات الرأسية التى تهبط من السطح إلى القاع أو تندفع من قاع البحر إلى الطبقات السطحية ، كما أن هناك التيارات الدافئة والتيارات الباردة ، ومن أهم التيارات الباردة تيار لبرادور وتيار همبولت وتيار غرب كاليفورنيا ، ويكون الهواء فوق هذه التيارات بارداً ويسبب جفاف المناطق التى يمر بها ، بينما يكون الهواء الملامس للتيارات الدافئة مثل تيار الخليج وتيار البرازيل وتيار اليابان مرتفع الحرارة ومشبعاً ببخار الماء الذى يتحول إلى أمطار غزيرة عند انخفاض حرارة الهواء .

ويعتبر المد والجزر من الظواهر الطبيعية الهامة فى البحر حيث يرتفع الماء تدريجياً ثم ينخفض تدريجياً أيضاً فى دورات متتابعة منتظمة على الشاطئ ، ويحدث المد والجزر مرتين فى اليوم الواحد أى كل ٢٤ ساعة ، وهناك تباين واضح فى ارتفاع الماء وانخفاضه من منطقة إلى أخرى ، ففى شاطئ البحر المتوسط عند الإسكندرية مثلا لا يتجاوز ٣٠ سنتيمتراً ويصل عند شواطئ البحر الأحمر (خليج السويس) حوالى ١٢٠ سنتيمترا بينما يرتفع ماء المد فى خليج فنداى بكندا إلى ١٩,٦ متراً ، وتشاهد الموجات المدية بوضوح تام عند دخولها إلى الخلجان أو المضايق أو مصبات الأنهار ، وتتقدم الواحدة منها نحو هذه الأماكن على شكل جبهة عالية من الماء تعلو على مستوى الماء فى الخليج أو النهر مصحوبة بالرغاوى والزبد حيث يطلق عليها اسم « الطوفة » ، وينتج المد والجزر عن قوة جذب القمر للأرض كما أن شدتهما تتبع أوجه القمر على مدار الشهر العربى ، فيحدث أعلى ارتفاع وأقل انخفاض للماء فى منتصف الشهر العربى وفى آخره (عندما يكون القمر بدراً أو فى المحاق) .

ولا تقل الظواهر الجيولوجية عن الظواهر الطبيعية فى أهميتها بالنسبة للدراسات البحرية ، فهى تشتمل على الظواهر الجيومورفولوجية للبحار وعمليات النحر (تآكل السواحل) والترسيب التى تتم بواسطة الأمواج والتيارات البحرية ، وطبوغرافية قاع البحر وما يوجد عليه من المرتفعات والمنخفضات وكذلك الرواسب التى تكسو هذا القاع وطبيعة هذه الرواسب من حيث السمك والمنشأ ، فهناك الرواسب العضوية المكونة من هياكل الكائنات البحرية الدقيقة وهى توجد غالباً فى المياه العميقة حيث يتم تكوينها خلال أحقاب طويلة تتراكم خلالها طبقة فوق أخرى ، وهناك أيضاً الرواسب غير العضوية التى تتركب من الطمى والرمال وغيرها مما تحمله مياه الأنهار ، لا توجد مثل هذه الرواسب عادة إلا فى المياه الشاطئية التى تجاور اليابسة أى فى المنطقة التى يطلق عليها اسم « الافريز القارى » ، ويحيط هذا الإفريز بالقارات حيث يتراوح عمق الماء فيه من ٠ — ٢٠٠ متر فى المتوسط ، ويلى ذلك ما يعرف « بالمنحدر القارى » ويتراوح عمق الماء فيه من ٢٠٠ — ٢٠٠٠ متر ، ثم يأتى بعد ذلك « قاع المحيط » الذى يتراوح عمق الماء فيه من ٢٠٠٠ — ٦٠٠٠ متر ، وليس هذا القاع مستوياً ، بل ترتفع فوقه جبال وهضاب تمتد فيما بينها وديان أو أخاديد أو أحواض عميقة كما يشاهد على سطح اليابسة سواء بسواء ، وقد عرفت ثلاثة أنواع من المرتفعات على قاع البحر وهى :

١ — السدود التوافقية Sills وهى مرتفعات جبلية تفصل بين المحيطات والبحار التى تتصل بها وتنتهى قممها فجأة بالقرب من سطح الماء ، مثل السد الذى يفصل البحر الأبيض عن المحيط الأطلنطى عند جبل طارق .





٢ — الحواجز الفقرية Ridges وهى مرتفعات جبلية ضيقة تنحدر سفوحها انحدارات سريعة وتنتهى قممها تحت سطح الماء على أعماق بعيدة ، وقد تظهر هذه القمم فوق سطح الماء مكونة « الجزر البركانية » ، ومنها الحاجز الفقرى الموجود فى وسط المحيط الأطلنطى ويفصله إلى حوضين كبيرين .

٣ — المرتفعات الهضبية Rises وهى مرتفعات عريضة تبرز من قاع المحيط وتنحدر سفوحها انحدارات بطيئة ، مثل المرتفع الهضبى الموجود فى قاع المحيط الهادى الجنوبى .

ويؤدى وجود مثل هذه الحواجز أو المرتفعات إلى تقسيم القاع إلى وديان أو أحواض كبيرة الحجم أو إلى أخاديد عميقة فى بعض الأحيان ، ويناقش الكتاب فى شىء من التفصيل وجود هذه التضاريس القاعية منوهاً بما تم اكتشافه منها إلى الآن ، كما يناقش أيضاً مختلف النظريات العلمية التى وضعت لتعليل نشأة المحيطات وكيفية امتلائها بالماء موضحاً أوجه القوة أو الضعف فى كل من هذه النظريات .

وقد أوضح المؤلف عند دراسته للظواهر البيولوجية أن الحياة نشأت فى البحر حيث كانت جميع المواد اللازمة لتكوين البروتوبلازم (المادة الحية) موجودة فى ماء البحر كما كانت العوامل الطبيعية والكيميائية السائدة فى هذه البيئة البحرية صالحة لهذا التكوين ، ثم تكلم عن العلاقة الوثيقة التى توجد بين مختلف الكائنات الحية والبيئات التى تعيش فيها وعن كيفية تفاعلها مع هذه البيئات مع ذكر عديد من الأمثلة الإيضاحية ، ويمكن تقسيم البيئة البحرية إلى أربعة أقسام متتالية تبعاً لعمق الماء وهى البيئة السطحية (وتصل إلى عمق ٢٠٠ متر) والبيئة المتوسطة (من عمق ٢٠٠ متر — ١٠٠٠ متر) والبيئة العميقة (من عمق ١٠٠٠ متر إلى ٤٠٠٠ متر) والبيئة السحيقة (من عمق ٤٠٠٠ متر إلى قاع البحر) . وتختلف العوامل الطبيعية (الضوء والحرارة والملوحة والضغط) التى تتوافر فى كل واحدة من هذه البيئات المتتالية اختلافات واضحة ، كما أن هناك اختلافات واضحة بين الكائنات الحية التى تعيش فى كل منها .

وأبدى المؤلف اهتماماً واضحاً بالبلانكتون النباتى (الفيتوبلانكتون (الذى يعيش فى طبقات الماء السطحية التى ينفذ إليها ضوء الشمس ، وذلك لأنه يعتبر القاعدة الغذائية الأساسية لجميع الحيوانات البحرية من الأسماك والقشريات وغيرها ، فالبلانكتون النباتى باحتوائه على مادة الكلوروفيل الخضراء قادر على إنتاج المواد العضوية المعقدة من المواد البسيطة فى عملية التمثيل الضوئى وذلك بمساعدة الأشعة الضوئية ، ولا تستطيع الحيوانات على اختلاف أنواعها القيام بهذه العملية ، فهى بالتالى غير قادرة على إنتاج المواد العضوية المعقدة التى

تحتاج إليها أجسامها ، وهنا تتضح أهمية البلانكتون النباتى الذى يقدم إليها هذه المواد والذى يعتبر حلقة لا يمكن الاستغناء عنها فى الدورة الغذائية فى البحر ، وتتلخص هذه الدورة فى أن البلانكتون النباتى هو الغذاء الأساسى للبلانكتون الحيوانى ، وعلى البلانكتون الحيوانى (والنباتى أيضاً) تتغذى صغار الأسماك التى تصبح بدورها غذاء للأسماك الكبيرة والحيوانات البحرية الأخرى ، وعند موت هذه الحيوانات تتساقط أجسامها إلى قاع البحر حيث تتحلل بفعل البكتريا الموجودة فى هذا القاع إلى مواد بسيطة التركيب ، وتنطلق فى النهاية أملاح الفوسفات والنترات المخصبة حيث تحملها التيارات البحرية الصاعدة إلى طبقات الماء العليا ، ويقوم البلانكتون النباتى – الموجود فى المنطقة الفعالة للضوء – بامتصاصها وإعادة بنائها إلى مواد معقدة لتبدأ دورة غذائية جديدة وهكذا .

وأوضح المؤلف بعد ذلك أن ازدهار مصائد الأسماك ووفرة إنتاجها يتوقفان إلى حد كبير على البحوث البيولوجية المتعلقة بسلوك الأسماك وطبائعها ودراسة العوامل البيئية المختلفة التى تتعرض لها هذه الأسماك فى مختلف أطوار حياتها ، فبيض الأسماك مثلا – وتضع منه الأنثى الواحدة عدة ملايين فى الماء – يحتاج إلى درجات مناسبة من الحرارة والملوحة والمحتوى الأكسيجينى للماء لكى يتم فقسه ، كما أن اليرقات الصغيرة التى تخرج من هذا البيض تؤثر فيها أيضاً مثل هذه العوامل كما تؤثر فيها التيارات البحرية ، وينتج عن الظروف البيئية غير الملائمة هلاك أعداد هائلة من هذه اليرقات ، وقد بدأ العلماء يفكرون جدياً فى ابتكار الوسائل التى تؤدى إلى الحفاظ على « زريعة الأسماك » ووقايتها من العوامل البيئية غير الملائمة ، ومن ذلك تطريد الزريعة أو صغار الأسماك إلى الأماكن المحمية كالخلجان ووضع سياج حولها للابقاء عليها فى تلك الأماكن حتى يشتد عودها .

ومن طبائع الأسماك أن البعض منها يميل إلى التجمع فى أفواج كبيرة أو يستجيب للمؤثرات الضوئية بطريقة إيجابية أو يقوم بالهجرة من مكان إلى مكان فى بعض المواسم المعينة استجابة لبعض العوامل الفسيولوجية التى تتعلق بالغذاء أو التوالد ، ويؤدى التعرف على مثل هذه الطبائع إلى تركيز عمليات الصيد على الأوقات والأماكن المناسبة مما يؤدى إلى وفرة المحصول ، ولما كان « الافريز القارى » من المناطق الملائمة لصيد الأسماك فى كثير من بلاد العالم فان دراسة قاع البحر فى هذه المنطقة ذو أهمية كبيرة لتحديد طرق الصيد ، ففى القيعان المستوية مثلاً مثل شواطئ دلتا النيل على البحر الأبيض يمكن استخدام « شباك الجر » التى تجرف ما يصادفها من الأسماك ، ولكن لا تنجح مثل هذه الطريقة فى البحر الأحمر نظراً لوجود الشعاب المرجانية التى تمزق هذه الشباك .

* * *

ويتطرق الكتاب بعد ذلك إلى الحديث عن « الثروة من البحر » ، وهو حديث ذو أهمية خاصة نظراً للاحتياجات الاقتصادية المتزايدة الناتجة عن زيادة السكان فى العالم ، فمن الناحية الغذائية يمكن مضاعفة الثروة السمكية التى تغلها مصائد الأسماك فى العالم باتباع طرق حديثة للصيد تؤدى إلى زيادة الإنتاج بدلا من الطرق القديمة أو الطرق البدائية التى لا تزال متبعة فى كثير من البلاد ، كما أن للبحوث العلمية أهمية كبيرة فى الوصول إلى هذا الهدف ، ومع أن الأسماك على اختلاف أنواعها (ويوجد منها ما يقرب من ٢٠,٠٠٠ نوع) تشكل الجزء الأكبر من الثروة الحيوانية البحرية إلا أن هناك أيضاً الحيوانات القشرية كالجمبرى والكابوريا والاستاكوزا وغيرها ، وكذلك الحيتان التى تستخرج

منها الزيوت كما يستخرج البالين والعنبر ، وكذلك السلاحف البحرية التي تؤكل لحومها فى كثير من البلدان . وذلك بالإضافة إلى المنتجات الاقتصادية الأخرى مثل الاسفنج والأصداف واللآلى الحقيقية والمزروعة وغيرها .

وتقتصر الثورة النباتية فى البحر على الطحالب البحرية التي تنمو بكثرة على الشواطئ الصخرية وأهمها الطحالب البنية والطحالب الحمراء ، ويجمع سكان السواحل فى اليابان وجزر المحيط الهادى بعض الأنواع من هذه الطحالب حيث يستخدمونها فى الغذاء بدلا من الخبز ويصنعون منها أطباقاً مختلفة الطعم والمذاق ، ويستخدم الرماد الناتج عن حرق الطحالب فى صناعة السماد لاحتوائه على عناصر البوتاسيوم واليود والأزوت ، كما تخلط مسحوقها بعد التجفيف بعلف الحيوان أو غذاء الدواجن لاحتوائه على الأملاح المعدنية والفيتامينات ، ويباع مسحوق الطحالب فى الولايات المتحدة والنرويج على شكل أقراص فى الصيدليات لاستخدامه كعقار منشط للجسم وفاتح للشهية وذلك بفضل الأملاح المعدنية واليود والعناصر الأخرى التي لا تتوافر عادة فى الأطعمة المعتادة ، وتحتوى الطحالب على مادة « الآجار » ومادة « الألجين » وهما تستخرجان من الطحالب البحرية ولهما عدة استخدامات فى الصناعة .

وإلى جانب هذه الثروات الحيوانية والنباتية توجد الثروة المعدنية ممثلة فى الأملاح الذائبة فى ماء البحر ، وتحتوى هذه الأملاح على كثير من العناصر كالصوديوم والكلور والمغنسيوم والبروم والبوتاسيوم والكالسيوم والمنجنيز والحديد والنحاس والفسفور وغيرها ، بل تحتوى أيضاً على بعض المعادن النفيسة كالذهب والفضة والبلاتين . وبالإضافة إلى ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) الذى يستخرج من البحر فى كثير من بلاد العالم فهناك عدة عناصر تستخرج من ماء البحر وتستخدم فى الصناعة وأهمها المغنسيوم والبروم والبوتاس .

ومع أن فكرة استخلاص الماء العذب من ماء البحر فكرة قديمة إلا أن هناك فى الوقت الحالى عدة محاولات ناجحة لتحقيق هذا الهدف ، فهناك مثلا طريقة التقطير باستخدام الطاقة الشمسية أو الطاقة الناتجة عن احتراق الفحم أو البترول ، وكذلك طريقة التجميد وتتم بتبريد ماء البحر فجأة فتنفصل بلورات الثلج عن بلورات الأملاح ثم يصهر الثلج بعد ذلك للحصول على الماء العذب ، ولكن لا تزال مثل هذه الطرق باهظة التكاليف ولا تستخدم إلا فى حالات الضرورة القصوى كالحصول على ماء الشرب فى الأماكن النائية التي لا تصل إليها المياه العذبة ، والمعروف أن المناطق الجرداء أو المناطق القاحلة تصل إلى ما يقرب من ثلث مساحة اليابسة ، فلو استطاع العلم أن يقدم لنا فى يوم من الأيام طريقة اقتصادية لتحويل ماء البحر إلى ماء عذب لأمكن زراعة هذه الأراضى القاحلة واستغلالها لمصلحة الإنسان .

ويتضح من ذلك أن الدكتور أنور عبد العليم قد تناول موضوع « البحار والمحيطات » من عدة زوايا مختلفة ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً ، فبالرغم من تعدد فروع المعرفة التي تستلزمها مثل هذه الدراسات البحرية إلا أنه قد استطاع الإحاطة بها فى سهولة وإيضاح ، كما أنه تقدم بعرض شامل لأهم الموضوعات التي يحتاج إليها المشتغلون بعلوم البحار موضحاً فى أكثر من موضع أهمية الدراسات الأكاديمية بالنسبة للتطبيقات الاقتصادية ، ويعتبر هذا الكتاب كسباً كبيراً للمكتبة العربية بالإضافة إلى كتبه السابقة عن الدراسات البحرية وهى « أضواء على قاع البحر » و « الثورة المائية فى الجمهورية العربية المتحدة » و « ثروتنا المائية » .

د. محمد رشاد الطوبى



الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة : ٣٠٣ ص ١٤×١٩ سم : الثمن ١٩ قرشا

تأليف : أحمد مخيمر

نحن هنا فى هذا الديوان يلفنا عالمان : عالم « النسيان » بما فيه من ضياع السمات ، وفقدان المعالم . وعالم « المجهول » بما فيه من ظلام الدروب ، وتيه المسالك . . .

أما « النسيان » فلا تجد دليلا عليه أقوى من عنوان الديوان نفسه : « الغابة المنسية » ! فليس من قصيدة « الغابة المنسية » إلا بضعة أبيات أبقتها ذاكرة الشاعر أحمد مخيمر ، أما أبيات القصيدة التى تزيد على السبعمائة بيت ، والتى كانت مكتوبة فى كراسة حتى سنة ١٩٣٩ ، فقد ضاعت فيما ضاع من قصائد صاحب الديوان .

والحق أن شعراً جميلا عميقاً لشاعر معاصر يتمتع بالحياة معنا ، ثم يضيع — أعنى الشعر — أو يرقد فى زوايا النسيان على هذه الصورة ، لهو شىء يستحق الأسف . . فليست قصيدة « الغابة المنسية » وحدها

بى التى جر عليها النسيان مساحبه ، فهناك قصائد كثيرة يذكر الشاعر موضوعها أو عناوينها ، ولكنه لا يذكر نصوصها . ولقد أشار الشاعر أحمد مخيمر إلى هذه القصائد الضائعة فى باب من الديوان عنوانه : « صوت من الماضى » ، وذكر منها ما استطاع أن تعيه ذاكرته ، ثم عاد فى مقدمة الديوان ليؤكد لنا أن الكلام الذى قدم به باب « صوت من الماضى » ليس مشتملا على بيان دقيق للشعر الذى ضاع منه ، فقد تذكر بعد كتابته كثيراً من شعره الضائع ، ومثل لبعضه فى المقدمة . . .

وهكذا ترى أن الضياع والنسيان والفقدان كان قدراً مقدوراً لكثير من شعر الشاعر أحمد مخيمر ، الذى نطمئنه — أول الأمر — على أن المسطور من شعره لن يضيع ، لأنه شعر جدير بالبقاء ، ولن ينسى لأ شعر لا يجوز عليه النسيان . . .

و « النسيان » قد يكون ظاهرة تلفت النظر فى شعر أحمد مخيمر ؛ فديوانه «غابة منسية» ، كما اختار ا يسميه . وقصيدة «الغابة المنسية» المطولة كلها مفقودة منسية ... وليس غريباً على الشاعر الملهم أحمد مخيمر أن يكون كثير من شعره منسياً ، أو أن يكون هو نفسه رجلا كثير النسيان . . . أليس شاعرنا إنساناً ، والنسيان جائز على الإنسان ؟ ألم يقل شاعرنا العربى القديم :

وما سمى الإنسان إلا لنسيــه ولا القلب إلا أنــه يتقلب ؟

بل ألم يقل لنا الشاعر أحمد مخيمر نفسه أن « جبريل » حين ودع السماء ، وهبط إلى الأرض ، وتشكل بصورة إنسان ، جاز عليه النسيان — حينما مست قدماه تراب الأرض — كما يجوز على سائر البشر :

أين منه الخلود . . ؟ قد « نسيته » نفسه ، حين أوغلت فى الزمان
أين منه السماء . . ؟ لم تبق إلا ذكريات فى نفسه أو أمـــانى
عندما لامس الـــثرى قدمـــاه غمرتــه برودة « النســيان » . .

ولعلك — من هنا — تدرك السر فى النسيان عند شاعرنا أحمد مخيمر ! إنه إنسان قبل كل شىء . . .
ثم قد يكون — قبل ذلك أو بعد ذلك — ملكاً هبط من السماء إلى الأرض ، فغمرته برودة النسيان عند ما لامس الثرى قدمـــاه . . ! !

وليس هذا هو الموضع الوحيد الذى جعل فيه الشاعر مخيمر ، رسول السماء جبريل ، ينسى كل شىء حتى الخلد الذى كان فيه . فهناك فى اللحن الثالث من ملحمة « الروح القدس » وفى المقطوعة الثامنة والتسعين منه ، يصور الشاعر نسيان جبريل قائلا :

نسى الخلد . . . غير ذكرى تراءت من بعيد . . . كطائف الحلم يسرى
أو سراج فى الليــل غــير قريب ذو ضياء لا يمسك الطرف . . نزر
وكأن النسيـــان ألــقى بليــل فى مــدى روحه . . . ومــد بستر
نسى الخلد غــير أشبــاح ذكرى تتوارى حينا ، وتبــدو فتغــرى

هذه هى غلالة النسيان فى شعر « الغابة المنسية » . . . أما « المجهول » ، فقد حملنا الشاعر على أن نخبط فيه فى مسالك شتى . . . وأول هذه المسالك أن أحمد مخيمر يعترف لنا بأنه (ما يزال مجهولا) على الرغم مما نقرأ من كلمه . . . اسمعه وهو يقول فى صفحة ١٥ :

قــلبى بقلب الوجــود متصــل يأخــذ منــه الحقيقــة الأولى

يا لزمـــانى ! فكيــف يفهمــنى   قلت سؤالا ، أو كنت مسئولا ؟
برغم مــا تقــرءون مــن كلمى   فإنــنى مــا أزال مجهــولا . . .

وعلى الرغم من أنه ما يزال مجهولا لنفسه ، فإنه يسير فى « مسالك المجهول » حيث يفتحها أمام روحه همس الصمت فى الظلام . . . فيقول لنا فى مقطوعة « مسالك المجهول » :

مســالك العــالم المجهول يفتحهــا   أمام روحى همس الصمت فى الظلم
كأنما الليــل طرس ، والنجوم به   رواية خطها المقــدار بالقــلم
هنــاك حيث رغاب الروح دانيــة   ومعبــد الخلد فى عيــنى كالحــلم
أظــل ممــا أرى فى حــالة عجب   ليست من البشر فى شىء ولا الألم . .
أحسهــا ، وبودى لو نطقت بهــا   تلك التى لم تزل أعــلى من الكلم

فنحن هنا أمام « حالة » تكتنف السارين فى دروب المجهول ، يحسها الشاعر ، ولكنه لا يستطيع النطق بها على ما عهدناه من طرائقنا فى التعبير بالكلام . . . ونرى هذه « الحالة » فى قصيدة « الجدول » التى يقول فيها الشاعر أحمد مخيمر :

كأ نى فى نفــسى حيث هنيهــة   أشاهــد فيهــا كونهــا المتراميا
وأبصر فيهــا جــدولا فوق مــائه   ظلال من المجهــول لحن خوافيــا

و « المجهول » كامن فى داخل الشاعر مخيمر ، أو مكتنف له ، أو محيط به ، أو مشرف عليه من الأعالى حيث القمة المجهولة التى يقول فيها من قصيدة من الشعر المرسل بعنوان « نداء » :

لم يــزل فى الفؤاد أول صبح
مشرق مــن جبينــك المحبوب
هو فى ظلمــة الفراق العــزاء
حيث يبدو هناك حلماً وذكرى
ونشيــداً للقمــة المجهوله . . .



وقد بلغ من اكتناف « المجهول » للشاعر أحمد مخيمر أن حبه قد غدا « قصة مجهولة » :

سيغدو عـلى الأجيال حبك قصة تذاع ، وما يدرى بها أحد بعد !
يقولون : ليلى ، وهى سر كتمتـه ويزعم قـوم غيرهم أنهـا دعد . . .

على أن هذا « المجهول » فى شعر صاحب ديوان « الغابة المنسية » لا يخيفنا عليه من الضياع ، بل يؤكد لنا أنه باحث وراء « الكشف » ، جاهد وراء . . « العرفان » .. إن ملكاً سماوياً يحدوه فى مجاهل المسالك ، ويروح يلمس أعماقه بنبع متفجر من الحكمة . إن الغطاء ينكشف عنه فبصره حديد . . . إن كل شىء فيه يتحول ويتغير ، فأصبح الكون كله روحاً فى روحه :

لم تعـد هـذه الطبيعـة حولى شجرا فى الضفاف ، أو قمـراء
لم تعـد جـدولا ، وزورق ملا ح ، وظـلا ، وربـوة ، وفضاء
أو نجـوما منثـورة ، أو حقولا ناضرات ، أو غيمـة بيضـاء
إنهـا أصبحت بروحى روحـا والتقت فى جوانحى أصداء . . .

وكيف نخشى – أو كيف نخشى نحن على أحمد مخيمر – الضياع ، وصرخة « الخلود » فيه قوية مدوية ؟ إنه لا يطمئن نفسه هو وحسب بالخلود ، ولكنه يطمئننا جميعاً ، ما بين كهول وفتيان قائلا :

والخـلد من بعـد الحيـاة نداؤه مـا زال يمـلأ كهلكم وفتـاكم
هـذا الشعور به أينـكر . . . إنه من عـالم الروح المـديد أتاكم
لا تفرقوا ! فعـلى الخلود مصيفكم مثل الحيـاة ، وفوقه مشتاكم . . .

وعلى الرغم من عوالم المجهول المحيطة بالشاعر أحمد مخيمر ، فان فكرة « وحدة الوجود » متسلطة عليه ، مستغرقة له . وهى فكرة صوفية عالجها لفيف من متصوفة المسلمين من أمثال محيى الدين بن عربى ، ولكن الشاعر مخيمر عالجها فى قصيدته « الجدول » قائلا :

وأحسست فى الآزال أنى طـائف بجوب الليـالى ، أو برود المغانيا
وأحسست أن الكون حولى صدحة أرى فى صداها كل ما كان خافيا
وأحسست أن المـاء والظل والسنا وأنى ، صرنا واحداً ليس فانيا . .
خلدنا . . . كأنا لا انتهاء لبـدئنا ولا بدء فى هذى الدُنى لانتهائيـا

لقد اتحد شاعرنا بكل شىء فى الوجود ، واتحد كل شىء فى الوجود به ، ففنى فى الكون بذاته ، ولكنه لم يفن فى الكل ما دام وحدة منه . ومن هنا لم تكن نفسه – كما يراها – نفساً واحدة ، ولكنها شتى نفوس فيه . ويقول فى هذا :

حملت الزمان الرحب من عهد آدم إلى آن ترى الدنيا ظلولا بواليـا
وما أنا نفس وحدها تنقـل الخطا ولكننى شتى نفوس خـلاليا . . .

والبيت الثانى يذكرنا ببيت الشاعر الجاهلى امرئ القيس :

فلو أنهـا نفس تمـوت سـوية ولكنهـا نفس تسـاقط أنفسـا

وإن كان الذى أراده أمير الشعر فى العصر القديم غير المعنى الفلسفى الصوفى الذى أراده شاعرنا أحمد مخيمر فى العصر الحديث . . .

والحديث عن النفس ووحدتها الكونية عند الشاعر مخيمر يسوقنا إلى الحديث عن رأيه فى انشطار النفس الإنسانية إلى نفسين : نفس خيرة محسنة ، ونفس شريرة أمارة بالسوء ؛ ولا يخلو كيان الإنسان ومزاجه من قيام النفسين معاً فى ذات واحدة . وليس هناك تعارض بين قيام النفسين وإيحائهما للإنسان بما يوجه سلوكه فى الحياة . . . بل هما ضرورتان من ضرورات « الإنسانية » فى الناس . اسمعه فى مقطوعة « لا تلمنى » وهو يقول :

لا تلمنى إذا بدا لك منى ... ما يسوء النفوس من وهدات
أنا كالناس . . لا أرى الناس تنجو ... من عوادى ترابها الراصدات
لى نفسان يا أخى . . . يشقا ... ن دروباً للفكر مبتعدات
هذه للحضيض تهوى . . وهذى ... تتسامى إلى الذرا الخالدات[1] . . .

والشاعر أحمد مخيمر حين يتفلسف ، ويغوص فى أعماق المجهول ، ويغيب فى زوايا النسيان ، وينساب سارياً فى الكون وفى وحدة الوجود ، وينقسم على ذاته فى النفس الإنسانية ، لا يبعد كثيراً من الإنسان الغارق فى الحياة إلى نواصيه . فتجد عنده « الحب » ، وتجد عنده « الوطنية » القوية الهادفة إلى البناء جنباً إلى جنب مع النضال والكفاح ومقاومة الظلم ، وتجد عنده « اللسان الحاد » حين يكره وحين يهجو ، وتجد عنده الأدب الحيى الخجول حين تأسره بأدنى جميل . . .

وهو فى « الحب » قد يكون حسياً طالب متعة ، وقاصد لذة ؛ ولكنه يرى كل حب يلقاه زاداً يعينه على السير فى الدرب إلى « الحب الكبير » :

فقال فـؤادى : كل حب لقيته ... فزاد يعين السالكين على الدرب
إذا ما بدا الحب الكبير لناظرى ... نفضت يدى مما لقيت من الحب !

وهو فى الحب لا يبالى ما يلقاه من ألم وحزن ، فإن الأفراح عنده تتساوى بالأحزان ، بل قد بلغ من مقدرته و « لامبالاته » أنه يستطيع أن يحيل الحزن إلى فرح :

أحزان قلبى قد أنبتن لى فرحا ... كالأرض تنبت من بين الثرى زهرا
فالحزن والبشر فى نفسى قد التقيا ... والآل فى الرى عندى يشبه النهرا
وتلك حال يحس الخالدون بها ... ويحمدون لديها النوم والسهرا

وهذه « اللامبالاة » قد أراحت — فيما يبدو لى — صاحبنا الشاعر الكبير من كثير مما يشقى به الناس عامة ، والشعراء خاصة . فهو فى هذه « الوحدة الوجودية » خالد . . . وفى الخلود يستوى كل شىء ، ويلتقى السعد والشقاء ، على سواء :

فلا البؤس مذموم ، ولا السعد مفرح ... ولا القرب يشجى مهجتينا ولا البعد
عدى بالتلاقى يا حياة ، وأوعدى ... فسيان فى الخلد الوعيد أو الوعد
فرغنا من الدنيا . . . فلم يبق موجعا ... شقاء ، ولم يحدث بنا فرحاً سعد . .

---

(١) نذكرنا فكرة الحضيض فى النفس الإنسانية والتسامى فيها معاً ، بقول صديقنا الشاعر المهجرى الكبير إلياس فرحات فى ديوانه الجديد المسمى « الحريف » :

إن فى الإنسان من فطرته ... للثرى شيئاً ، وشيئاً للثريا

هذا هو بعض « الحب » عند الشاعر أحمد مخيمر . أما الوطنية ، فهى رائحة الجذور عنده منذ رأى الأمور لا تجرى فى مصر قبل الثورة على نهج سليم . . . فقد رأى الفساد فيها يشب فى كل ناحية ، وله خلل الرماد وميض نار تؤجج . . . وكأنه كان يتنبأ فى ملحمته « روح القدس » التى نظمها قبل الثورة بعامين بكل ما صارت إليه الأمور ، حين قال فى النشيد الثامن عشر بعد المائة منها :

مـــن وراء الرمـــاد ألمـــح نـــارا تتغـــذى من لذعهـــا الأفـــكار
مـــن وراء الســـكون أسمع صوتا فـــزعت مـــن دويـــه الأقـــدار
مـــن وراء الصفـــاء فى الجدول الســـاجى انـــدفـــاع يكنـــه التيـــار
مـــن وراء الهـــدوء عـــاصفة كبـــــرى ، ومن خلف صمتـــه إعصـــار

ولم تكن « روح القدس » وحدها هى ميدان الصرخة الوحيد التى صرخها الشاعر من أجل وطنه ، ومن أجل حالة بلاده ، ومن أجل الفلاح صاحب الكوخ الحزين ، الذى يجمع الخبر لغيره من الأغنياء الشرهين ، وهو محروم حتى من حبة القمح . . . لقد كانت قصيدته « نصيحة إلى الشعراء » التى نظمها سنة ١٩٥٠ والتى ألقيت فى أحد اجتماعات « جامعة أدباء العروبة » ميداناً آخر لانطلاقات الشاعر نحو التحرر الفكرى ، وتحرير الفلاح من براثن المستغلين . ولقد كان صاحبنا جريئاً فى انطلاقته تلك التى يصفها بأنها كان لها فى وقتها دوى كبير . ولعل صوته لإنصاف « الفلاح » هو من الأصوات التى لا يجوز إغفالها فى معرض الحديث عن الفلاح فى الأدب العربى . وما أصدقه وهو يقول فى تلك القصيدة :

أين صوت الفـــلاح يضرخ مفزو عا للـــذع الشقـــاء واللأواء ؟
يجمع الخـــير مثلما تجمـــع النحـــ ـــلة شهـــدا للجـــائعين الظماء
يجمع الخـــير ، ثم يحـــرم منـــه ثم يجـــزى عليـــه شر الجـــزاء
هل مسحتم دمـــوعه . . هل منحتم قلبـــه مـــا بقلبكم مـــن عـــزاء ؟
لا وربى ! بل قـــد نظرتم إليـــه فى سكون مر ، وفى استخـــذاء
وعجبتـــم مـــن السيـــاط تهـــاوى فوقـــه بابتســـامـــة صفراء . . .



ولم يكن الشاعر مخيمر مجرد نائح على الفلاحين ، أو باك على المظلومين ، ولكنه كان ثائراً — قبل الثورة — يستفز الهمم ويستحث العزائم للتأهب للمعركة التي لم يكن مفر من مجيئها ، وللساعة التي كانت آتية لا ريب فيها ، فيقول من ملحمة « الروح القدس » :

يا نخيل الوادى ! ويا ساكنى الشط ويا زارعى الحقول . . . سلام !
قد دعانا ليوم معركة الشعب إباء النفوس والإقدام
ولنا غاية . . . وللشرف الموروث عهد ، وللنضال ذمام
إننا راحلون عنك لأيام شداد . . . وراءها أيام . . . .
من يريد السلام لا يعرف الأمن ، ومن يطلب العلا لا ينام . .

ولا يذهب صوت الشاعر هباء أو صرخة فى واد ، بل يجد استجابة للنداء من الأحرار وهم يقولون :

تلك أرواحنا على أيدينا لن نبالى بالعصبة الظالمينا
إن تاريخنا ليأبى علينا أن نعيش الحياة مستضعفينا
سندك الطغيان بيتا ، فبيتا سنخوض الأهوال مقتحمينا

وما هى إلا عشية أو ضحاها ، حتى كان الملك جبريل — وهو أحد أبطال ملحمة الروح القدس التى لم ينشر الشاعر أحمد مخيمر منها إلا لحنها الثالث — يشهد حركة الزحف فى نشيد يقول فيه الشاعر :

وعلت ضجة ، وصيحة فلاحين زرق الثياب ، بيض العمائم
أيقظت ما غفا من الطير فى القرية أو فى الغصون فهى حوائم
قال جبريل عند ما جذبته من غيابات نفسه ، وهو نائم :
بدأ الزحف يا صديقى وما تسمع من ضجة نداء الملاحم !

أما « اللسان الحاد » والهجاء المر اللاذع ، فنحمد الله أن النماذج منه فى ديوان « الغابة المنسية » نماذج قليلة ، بل تكاد تكون نادرة ! ولعل فكرة « النسيان » فى هذا الديوان قد طوت عنا شعراً فى الهجاء كان جديراً أن يطوى إلى حيث لا بعث ولا نشور ! فلم يعد عصرنا يحتمل مثل أشعار ابن الرومى ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وأضرابهم من فرسان ذلك الميدان . . .

على أن « أحمد مخيمر » الشاعر المنعوت بشاعر الهجاء ، هو — فوق هذا — ضرب آخر من الوفاء للأصدقاء . وما أجمل صوره ولوحاته الشعرية لجماعة من كرام الناس ، من أمثال الكاتب الحر يوسف حلمى ، والشاعر عبد العليم عيسى ، والأديب محسن فهمى ، فقد صور نفوسهم بأمانة لم يزدها على ما فهم من كرم الطباع . . .

وللشاعر أحمد مخيمر من أبكار المعانى وابتكاراتها وروعة الصورة الشعرية ما يحملنا على الدهش من أن يبقى هذا الشاعر منسياً . فله لفتات ذهنية مبتكرة حين يصف ، أو حين يتفلسف ، أو حين يتصوف . . . بل حتى حين يصلت سيف هجائه على إنسان . . ! ومن بدائعه فى شعر الطبيعة قوله فى أبيات ثلاثة بعنوان « حب السماء » :

إن بين السماء والأرض حباً كل شىء إليه أصبح يومى
ما أرى القطر غضبة للسموات ، وسخطا للواحد القيوم
إنها تغسل الخطيئة عنها وتوارى حياءها بالغيوم . .

ومن أبكار معانيه قوله من قصيدة عنوانها « عيناك » :

إذا نظرت عيـــنى لعينيك خلتـــنى ... إلى الغيب أعلو ، أو لما فوقه أسمو
وخيـــل لى أنى أمـــام بحـــيرة ... بمقمـــرة يغفو على عشبها النسم
وأنى وحـــدى فى الوجود . . وأننى ... مجرد روح ، لا كيان ولا جسم . !

ومن معانيه الجياد فى حب الأبطال للموت وشوقهم إليه ، قوله من مرثيته للشهيد البطل عبد القادر الحسينى

أمـــامك الجنـــة الخضراء تفتحها ... لك السيوف التى حطمت والأسل
السابقون من الأبطال قد دخـــلوا ... والصاعدون من الأحرار قد وصلوا
ودوا لحب الوغى لو أنهم رجعوا ... فيقتلوا مـــرة أخرى كما قتلوا . . .

وبعد ! فإن إعجابنا بديوان « الغابة المنسية » لا ينتهى . وهو إعجاب بالفكرة العميقة من ناحية ، وبالصورة والتعبير الشعرى من ناحية أخرى . ولا بأس أن نشير فى سرعة إلى ما فى هذا الديوان من كلام جيد فى حرية الفنان ، وفى تحديد الوزن الشعرى – بالحاء لا بالجيم ! – وفى الموقف السليم بين التجديد والتزام القديم ، وفى القدرة على نظم الشعر الجديد مع القدرة على الصياغة ، والتمكن من القافية ، والقوة فى اللغة . فأن الذى ينظم الشعر الحر والشعر المرسل مع قدرته على لزوم ما لا يلزم لهو شاعر متمكن غير مفلس ولا عاجز . . . وحسبك أن تعرف أن الشاعر أحمد مخيمر هو أحد اثنين فى الأدب العربى نظما الشعر على طريقة « اللزوميات » ، وأولهما أبو العلاء المعرى . ومن كان كذلك لا يلجأ إلى التجديد فى الشعر إلا على إرادة للتجـــديد . . .

على أن إعجابنا « بالغابة المنسية » لا يمنعنا من نقده فى بعض المواطن . فالبيت الذى يقول فيه مخيمر :

حمـــامهـــا مســـالم ... فى صبحهـــا نسورها

هو من المقلوب الذى لا يستقيم مع منطق القوة وطبائع الأشياء . . . فالنسور هى التى تسالم الحمائم ، لا الحمائم هى التى تسالم النسور . . .

ثم لماذا يلجأ صديقنا الشاعر إلى ضرورات لغوية شعرية فى اجتنابها منادح كثيرة ؟ فهو يقول فى

جولة بين الكتب

التخطيط الاشتراكى

تأليف : د . عبدالله عبد الدايم .
الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومى بسوريا ٩٨ ص ١٤ × ٢٠
ث ٥٠ ق . س

دراسة تحليلية للاشتراكية والتخطيط الاشتراكى فى أربعة فصول . عالج المؤلف خلالها أهمية الاشتراكية فى عصرنا هذا وحتمية التجربة الاشتراكية وبخاصة للدول النامية وشروط نجاحها وضرورة التخطيط للوصول إلى أهدافها السليمة .

لغز الموت

تأليف : مصطفى محمود .
الناشر : دار النهضة العربية ٩٦ ص ١٤ × ٢٠
ث ١٥ قرشاً

يعالج هذا الكتاب مشكلة الموت فى أسلوب سهل به روح صحفية ساخرة . يبسط المؤلف الأفكار المختلفة إزاء هذه المشكلة ويستمد مادته من الأدب والفلسفة وعلم النفس وعلم الحياة والطب . والكاتب نفسه لا ينتهى إلى رأى معين أو غاية محددة للمشكلة التى يعرضها قدر ما يهتم بتحليلها وبيان خوافيها وأسرارها المختلفة .

صفحة ٩٨ من قصيدة « ثورة الشعب » :

لم يستطع غاز ولا طاغية يسوده

ويقول فى صفحة ١٠٤ من قصيدة « بغداد » :

لم يستطع أحد منهم يغالبنى ولن يكونوا بحال مستطيعينا

فحذف « أن » المصدرية من تكملة الفعل « يستطيع » ، والصحيح إثباتها . فيقال : لم يستطع غاز أن يسوده . ولم يستطع أحد أن يغالبنى . وقد كان عليه — وهو شاعر قدير — أن يحتال على الوزن بما لا يخرج على قواعد اللغة . . . وخاصة أنه جرى على الاستعمال الصحيح فى قوله من قصيدة « الجدول » ص ٢٣٢ :

أراها ، وإن لم أستطع أن أقولها لمن لا يراها . . . خاطرا ومعانيا

وما بال صديقنا الشاعر الكبير يقول من قصيدة بعنوان « مرحباً يا خروشوف » :

ذاك خوفو ؟ فقلت : لا ، ذا خروشو ف مطل بظرفه المحبوب . .

فيرفع لفظة « مطل » مع أن الواجب نصبها على « الحالية » كقوله تعالى فى سورة هود : « وهذا بعلى شيخا »[1].

وما بال صاحبنا يقول فى قصيدته « محنة سوريا » :

لقد بانت نواياهم وما أخفوا من السر

ثم يعود فى صفحة ١٨٨ فيقول من مقطوعة بعنوان « خلى » :

يقول لى الخلى ، وليس يدرى بما فى القلب من خافى النوايا

إستعمال « النوايا » بمعنى النيات خطأ لغوى نبه عليه اللغويون وآخرهم الشيخ إبراهيم اليازجى . فكأن النوايا جمع « نوية » ، ولم ترد « نوية » بمعنى « نية » . أما الذى ورد فهو « الطوية » وجمعه « طوايا » . . .

أما الأخطاء المطبعية وخاصة فى صفحات ٨٥ — ١٨٨ — ١٩٣ — ١٩٦ — ٢٢٩ — ٢٥٢ — ٢٦٣ وغيرها فقد كنت أرجو مخلصاً أن لا تغير تلك الصفحات المشرقة لهذا الديوان الجميل . . .

محمد عبد الغنى حسن

(١) الآية رقم ٧٢ من سورة هود .

أنشودة الغرباء

شعر : محمد الحديدى .

الناشر : الدار القومية — المكتبة العربية — ٢٢٤ ص ١٣ × ١٨

ث ٢٥ قرشاً

الديوان الأول لشاعر شاب ، قدم له الأستاذ الشاعر على الجندى ، والديوان مكتوب على النهج التقليدى فى شكله ، وإن كان محتواه العام جيد ، نوع فيه الشاعر ، فاستخدم نظام المقطوعات . وقد استفاد الشاعر من أسفاره العديدة فى الخارج ، مما نستطيع إزاءه أن نضع جزءاً كبيراً من الديوان تحت باب أدب الرحلات

مأساة الحلاج

تأليف : صلاح عبد الصبور

الناشر : دار الآداب بيروت ٢٠٨ ص ١٢ × ١٧ ث ٥٠٠ مليم

مسرحية مكتوبة بالشعر الجديد ، حاول المؤلف فيها أن يوفق بين الاطار الشعرى والضرورة الدرامية . استمدت أحداثها من حياة الحسين بن منصور الحلاج وهو أحد متصوفى الإسلام ، سجن وصلب وقتل ، لأنه من وجهة نظر المؤلف شهيد حمل الحقيقة ومشى بها بين الناس فكانت مأساته .

ثرثرة فوق النيل

تأليف : نجيب محفوظ

يقول أنيس زكى الذى تركز فى نفسه الحركة طوال الرواية لسمارة البطلة فى السطور الأخيرة من الرواية « أصل المتاعب مهارة قرد ، تعلم كيف يسير على قدمين فحرر يديه ، وهبط من جنةالقرود فوق الأشجار ، إلى أرض الغابة وقالوا له عد إلى الأشجار وإلا طبقت عليك الوحوش » فقبض على غصن شجرة بيد ، وعلى حجر بيد ، وتقدم فى حذر وهو يمد بصره إلى طريق لا نهاية له » ص٢٠١

هذا التقدم نحو الطريق الذى لا نهاية له هو. موضوع « ثرثرة فوق النيل » . تقدم الإنسان وهو معلق بشجرة الجنة والإيمان الدينى وفى يده حجر يعوقه عن الصعود على الشجرة ويرمز إلى حياة الأرض التى تبنى بالحجر ما تظن أنه باق ، وترمى الأعداء بالحجر أيضاً فى معارك تظنها هامة مغيرة لمجرى الحياة أو معطية لها معنى .

والثرثرة تدور فى عوامة على النيل حيث تجتمع فيها كل أصيل جماعة بعينها يدخنون الجوزة وينسطلون فتنطلق أفكارهم وآراؤهم ، وكل منها ينم على الدائرة التى يدور فيها صاحبها من حلقات الحياة المتداخلة . ومحور هذه الحلقات أو الجلسات أنيس زكى « ولى النعم » أو المسئول عن الحياة فى العوامة .

وأنيس زكى هذا نقابله فى أول صفحة من الرواية فى مكتب عمله بوزارة الصحة وهو مكلف باعداد تقرير عن الوارد والصادر للسيد مدير



الناشر : دار مصر للطباعة
٢٠٠ ص ١٤×٢٠ سم الثمن ٢٥ قرشا

المصلحة . ولكن الرمز يصادفنا منذ أول كلمة رمز نجيب محفوظ الثرى بالمعانى التى يمكن أن تؤول مختلف التأويل ولكنه ، وهذا هو المميز له ، يشع جواً واحداً مهما اختلفت هذه التأويل .

« أبريل شهر الغبار والأكاذيب » . لماذا شهر أبريل ألأنه أول الربيع ؟ ألأنه شهر حركة الرصد والتقارير إعداداً للميزانية ؟ ألأنه شهر تحلو فيه الجلسات على شاطئ النيل ؟ ألأنه فعلا شهر الغبار والأكاذيب ؟ ومكتب الصحة الذى يعمل فيه أنيس زكى هو أيضاً غبار من الاهمال والروتين وأكاذيب بما يسجل فيه من خطوات الحياة ميلاد ومرض وموت .. إنه كل هذا وأكثر من هذا .

وطريف أن نلاحظ كيف ينظر أنيس إلى المدير فيراه يتضخم ويتضخم حتى يصبح بالوناً عالقاً بالسقف . وكيف يوحى رأسه الأصلع بمركب مقلوب . هذا هو العمل الروتينى أو الإدارى . تضخمات لا مبرر لها ومنطق مقلوب فى كثير مما يعنى به وبكيفية ما يعنى .

ويدون أنيس التقرير ولكن المدير يرى أنه بعد عدة أسطر لا يوجد ما هو مكتوب فى الصفحات المقدمة إليه لقد جف قلم الحبر واستمر أنيس يكتب تقريره ، فى آلية الدواوين . لأنه مسطول . أو لأنه لا يعنيه شىء . أو لأنه غير مقتنع بفائدة العمل الذى يقوم به . وطريف تشبيه هذه الصفحات

المكتوبة بلا حبر فكأنها ليست مكتوبة « بمعاهدات السلام » رمز إلى أعوص مشكلات الوجود التي لا تجد لها حلا . ولكن حركة الرواية تسير ورغم ما يشحن به منظر الديوان وما يدور حوله من رموز ذكية مثل سماع أغنية « يا أمه القمر على الباب » أثناء انهماك أنيس في العمل فإننا نكتفي من هذه المقدمة بأننا عرفنا البطل وعرفنا أنه دائماً مسطول ، وعرفنا أن الحبال بينه وبين الحياة قد تقطعت بموت زوجه وابنته . منذ عشرين عاماً .

ونتنقل من الديوان إلى العوامة التي تدور بعد ذلك الحركة كلها تقريباً عليها . عليها يجتمع الصحب بعد الفراغ من أعمالهم فنصف حياتهم للسعي على الرزق، وهذا ما لا نراه في الرواية إلا معلومات متناثرة والنصف الآخر هو السباحة في الملكوت بفضل جوزة يعدها أنيس وتدور عليهم . والعوامة لا يصلها بالحياة إلا الحبال والفناطيس التي يتحكم فيها « عم عبده » الريس . وكان للعوامة جارة عوامة على اليمين غرقت وعلى اليسار مصلى مقام على لسان من الشاطئ يصلي فيه عم عبده . هذه العوامة لا علاقة لها بالحياة على الضفاف صلتها الوحيدة هي عم عبده .

وعم عبده شخصية طريفة عملاق لا يذكر شيئاً عن حياته السابقة يعمل حارساً وهو أمين يصلي ويرمز إلى الإيمان الراسخ الساذج، ولكنه قواد في الوقت نفسه . لعله يرمز إلى عصور التاريخ التي تصالح فيها الجنس والدين ، بل لعله يرمز إلى خلود هذا الإيمان الراسخ الذي لا يسأل أبداً لماذا . يقول له أنيس : « أتطمع في خلود أخلد مما أنت فيه ؟ » . وعم عبده لا يتأثر بالجو ولا يعرف عمره ويخيل إلى نفسه أنه لن يموت . (ص ٦٩) وهو يثير إعجاب كل زائر وكل عضو جديد ينضم إلى الجماعة ولا ينضم إليهم في الواقع إلا سمارة البطلة التي تمثل لحظة التأزم في الرواية (هذا إذا تجاوزنا عن الدور العابر الذي يمثله رءوف خطيب سناء بعد ما هجرها رجب إلى سمارة) وعم عبده يخدم العوامة وأصحابها ، وهو صموت لا يتكلم (ص ٥٦) وحوله طائفة من الرموز . إنه أطول من كوخه ؛ رمز إلى أثره الأقوى من حقيقته ؛ أو أثر ما يرمز إليه الأقوى من حقيقته ، وهو غارق في اللحظة الراهنة ، ويجمع في يسر بين المتناقضات فهو موجود وغير موجود وهو قوي وضعيف وهو إمام وقواد . في هدوئه العجيب مرآة تنعكس عليها الخيالات والتأملات الحائرة المتأزمة التي تدور في العوامة . ومع ذلك هو حارسها ومقدم اللذات لها حشيشاً وبغايا . وهو كما يقول « أنا العوامة أنا الحبال والفناطيس إذا سهوت غرقت وجرفها التيار » . ويقول عنه على السيد الناقد الصحفي « إن العالم محتاج إلى رجل في عملاقية عم عبده لتستقر سياسته » .

والحياة على العوامة فوق النيل هي أفكار تتصارع وآراء . كل منها تنبع من زاوية ، تتناقش ولكن في عبث ظاهر ولامعقولية متعمدة . ولها من كون أصحابها مساطيل حرية التنقل السريع والسخرية اللاذعة وخلق العلاقات العجيبة بين شيء وآخر . إنها لا موضوع لها في الظاهر ولكنها في الواقع تبحث عن معنى للحياة . عن حبل تتعلق به راحته ؛ عن الحرية التي تجعلها تسير على الطريق الذي به تستطيع أن تنتمي إلى إيمان أو إلى عقيدة تطمئن إليها النفس ؛ عن وسيلة تفك بها يدها من الشجرة وترمي عنها عبثها بالقاء الحجر من يدها الأخرى لتسير طلقة حرة واثقة ، نحو المطلق ، نحو السر ، نحو الوجود الحـق .

إن ثرثرة فوق النيل سمفونية جديدة حول نفس الموضوع الذي يدور حوله نجيب محفوظ منذ هجر الخلفية التاريخية في الثلاثية ليبحث عن هذا الوجود الحر في « أولاد حارتنا » من خلال الغوص

فى النفس الذى لا يمكن إلا أن يكون عن طريق المنلوج الداخلى أو تتبع الوعى الحسى المختلط بالوعى المعنوى فى الباطن ، « من خلال العين التى ترى إلى الداخل » فأنيس بطل ثرثرة فوق النيل يقال له منذ الأسطر الأولى « إنك لا ترى . إن عينك لا ترى إلا إلى الداخل » .

وفى أولاد حارتنا من خلال رمز الجبلاوى رب البيت الكبير أو رمز الزعبلاوى فى القصة القصيرة نرى رحلة نجيب محفوظ فى هذا العقل الواعى والباطن معاً لاستشفاف هذه الحقيقة الكبرى وكانت الحقيقة تلقى أحياناً مباشرة كالنقاش الذى نراه فى « الثالوث الجديد » ، بل من خلال شخصيات متعددة رامزة فى وضوح وتحديد . كما نجد فى أحمد شوكت وعبد المنعم شوكت فى « السكرية » ووقفة كمال الحائر بين اتجاهيهما الواضحين . ولكنه منذ التفت إلى كمال وحده وتأزم المشكلة فى فنه نراه يفضل البطل الواحد « سعيد مهران » فى « اللص والكلاب » و « عمر حمزاوى » فى « الشحاذ » وهكذا . ومن حول البطل تتلاطم الاتجاهات والأفكار ولكن الطريق عسير طويل غامض متشعب مستحيل المنال . ولكن الأسلوب فى ثرثرة فوق النيل يختلف . فهذه المجموعة من المساطيل تنطلق بلا حدود لرؤياها ، بل بحرية كبرى فى تلاقى خطوط تفكيرها المضادة والمتنقلة فى سرعة . ومن ناحية أخرى يتداخل فى الرواية مشروع مسرحية تحاول أن تجد الخيط من هذا الخضم المتلاطم من الايحاءات والرموز غامضة وواضحة فلا تخرج أكثر من تخطيط عام والأهم من ذلك أنه تخطيط لا يصل إلى نتائج .

وفى المجموعة شخصية هامة هى رجب فنان وزير نساء يلقب باله الجنس وهو يمون العوامة عادة بحبيباته اللاتى يحبهن حيناً ثم يخلعهن على الأصدقاء فى العوامة . يدفن همومه فى الجنس ولكنه « شجرة بلا ثمر » مثل الفيلم الذى تألق فيه وعرفته سمارة عن طريقه (ص ٥٢) . يأتى العوامة يوماً بشابة رقيقة هى طالبة فى الآداب « سناء الرشيدى » ولكن سرعان ما يتركها ليحوم حول سمارة . رمز للانتقال من الرومانسية إلى الواقعية ولكن الرومانسية احتضرت والواقعية أيضاً تحتضر فأين السبيل كما يقول المؤلف على لسان أحد شخوصه فى هذه الرواية .

ومع رجب آخر الأمر تنشب المعركة بينه وبين أنيس حتى يتقاتلا فلا يغلب أحدهما الآخر .

أما أنيس زكى الذى حوله تدور التأملات فهو أكثر المسطولين سطلا وخيالاته ورؤياه حرية بالتأمل.



فبينما يديرون هم النقاش حول شىء هام يكون هو قد سرح فى عالمه المبعثر المملوء بالرموز . « بانوراما » واسعة طلقة تمتد عبر عصور وعصور من التاريخ لا تنتهى بالآن ولا بالمستقبل، وإنما لا تدرى من أين تبدأ ولا إلى أين تنتهى . ولنقف قليلا عند هذه الشطحات لنر من داخلها شيئاً . إنها تنقسم إلى قسمين قسم تاريخى وأسطورى . وقسم واقعى . فهو يرى رأس المدير قارباً مقلوباً أو يراه بالوناً متضخماً فى الهواء عالقاً بالسقف ، ثم يرى عظم اللحم فيذكر أن المدير سيموت يوماً وسيكون عظاماً كهذه العظمة أو يرى ساقه هو وقد انفصلت عنه إلى جانب الصينية التى عليها الجوزة ويعجب كيف ينفصل عضو منه على هذا النحو . ويتأمل الشعر والأظافر وكل ما ينفر فى ساق مقطوعة ملقاة بعيدة عنه وهى ساقه . وحرى ملاحظة الحاح صور العظام ودلالتها على الموت ، بل حرى الوقوف بالموت مرات فى الرواية وهو الخوف الأكبر والمعوقل الأعظم عن الذوبان فى المطلق والخلود أو هو يبدو كذلك . ولكن أمره لا يعرف . كذلك تستمد رؤياه الواقعية من أخبار قريبة مثل رؤياه وهو يحرز بطولات فى الألعاب الأولومبية فى اليابان وكأنما هى تنفيس عن الحرمان من أى تفوق . فهو دائماً غير محسوب ولا يريد أحد أن يوجد له صلة . لقد انقطعت صلته بالحياة . وفى عالم المسطولين هو دائماً مغفل ؛ فعندما تنتقل ليلى من رجب إلى خالد عزوز لا تفكر فيه ويسأل « وأنا أين ؟ » لماذا لا تنتقل إليه ؟ وعندما تأتى سنية كلما غضبت من زوجها تذهب إلى على السيد ولا تذكره ولا حتى فى خيالها ، وعندما يرثون لسناء بعد أن تركها رجب ويعدون هؤلاء الذين يمكن أن يرثوها ومن بعده لا يعدون أنيساً ويتساءل « لماذا تغفلنى احصاءات الأوغاد » (ص ٨٩) . وهو دائماً وحيد . تلقاه سناء فى وحدتها فلا تجد عنده إلا الوحدة . وتأتى سمارة إليه لأنه وحيد صموت تحاول أن تفيقه أو أن تحركه ولكن لا سبيل . من هنا تجد أحلام كالتنون الرياضى سبيلها إلى ربطه فى اللاوعى بالحياة .

أما رؤاه التاريخية فهو يذكر على أنه مثقف بلا شهادات طاف بكليات الجامعة ولم ينهى شيئاً من دراستها المنظمة ، له مكتبة تاريخية فى العوامة قد يقرأ فيها فى الساعات التى يفيق فيها ولكنها لا تكفى أبداً . أنه يفيق دقائق عقب النوم صباحاً فيسأل نفسه « لماذا يحيا ؟ » ولكنه ينسطل قبل أن يجد الفرصة ليجيب . وذكرياته التاريخية أو تهويماته التاريخية لها دلالاتها . ففى عصر المماليك يرى الفروسية والحياة الصاخبة ولكنه يرى الظلم والغبار وسنابك الخيل تدوس الأطفال والنساء . وفى عصر كليوبطرا يرى التناسخ « كليوبطرا ! أليست هى نفس المرأة التى تبيع المعسل فى درب الجماميز ؟ » ويرى نيرون وقد اختلطت فيه شخصيات « لقد وجد نفسه إمبراطوراً فقتل أمه ولما صار إلهاً حرق روما وقبل ذلك كان إنساناً عادياً فعشق الفن » . (ص ٧٩) .

وفى هارون الرشيد يتأكد له دوره . إنه يسقى الشاربين ولا يشاركهم فهو مع هارون الرشيد محروم يصب الخمر لهارون وهارون مع جواريه يلهو وهو واقف محروم .

ويأتى عمر الخيام فى صورة فارس يركض فى الهواء يقترب من الماء قرب العوامة ليدله أنه قد هرب من الموت .

أما فرعون فهو يرى على شكلين : الأول وهو يرسف فى الأغلال أسيراً بين أسرى قمبيز ، وقمبيز على منصته وفرعون منكس الرأس ومنظره يبكيه لأنه عز عليه أن يراه بعد أوج أبهته يرسف فى الأغلال . والثانى عندما يذكره كثيراً وكأنما هو يذكر عرضاً ولكن الرمز فيه قوى . . قال أنيس



لنفسه: «لم يكن عجيباً أن يعبد المصريون فرعون ولكن العجيب أن فرعون آمن حقاً بأنه إله» . أو عندما يكون فى آخر السهرة وقد بقى وحيداً وهو الوقت الأغنى فى تأملاته فينادى الحكيم القديم «ايبوور» ليحدثه عما قال لفرعون فيقول له منشداً ما أنشد فرعون :

إن ندماءك قد كذبوا عليك !
هذه سنوات حرب وبلاء
ما هذا الذى حدث فى مصر .
إن النيل لا يزال يأتى بفيضانه
إن من لا يمتلك أضحى الآن من الأثرياء
يا ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت
لديك الحكمة والبصيرة والعدالة
ولكنك تترك الفساد ينهش فى البلاد
انظر كيف تمتهن أوامرك
وهل لك أن تأمر حتى يأتيك من يحدثك بالحقيقة؟

وليس نشيد حكيم فرعون هو وحده الذى يتحدث عن الحال فى مصر وإنما ومضات هنا وهناك تشير إلى الكتاب الاشتراكيين (ص ٥٦) وإلى المسرحيات الهادفة (ص ٥٩ — ٦٠) وكيف يكتب الفصل الثالث فيها للرقابة وليس للمسرحية أو للنظارة .

ولكن الرؤيا الملحة على أنيس هى رؤيا الموت الذى يأتى ليبتلع العوامة ثم يرتد عنها لأنه الحوت الذى نجى يونس وكأنما هو الموت الذى يقترب ثم يرتد لسبب غير معلوم . والطريف معالجة مشكلة الموت من خلال هذا الرمز الأسطورى حيناً ومن خلال رموز أخرى كثيرة ، بل إن إلحاح فكرة الموت عنصر رئيسى فى حيرة السارى نحو المطلق أو نحو الحقيقة حسبما تصوره ثرثرة فوق النيل ، بل حسبما تصوره كل روايات نجيب محفوظ حتى أن دراسة فكرته عن الموت وتصويره لها جديرة بدراسة مفردة خاصة .

وإلى جانب الرؤى تأتى تعريفات وإشارات ورموز فيها تناقض ذكى ورمز حاذق يبرز من بينها رمز الهاموش إلى الإنسان فينعته الهاموش بأنه حيوان ثديى وتطالعه هذه الحقيقة فى نظره مراراً ولا ينسى أن مثار الاعجاب فى الهاموش هو الاصرار العنيد .

أما الشخصية الهامة فى حركة الرواية من حيث السير بالأزمة إلى أوجها فهى سمارة بهجت الفتاة العصرية الجادة التى تجسد مشكلة الوطن كله كما يقول خالد عزوز . « إنها فتاة عصرية أما الزواج فبرجوازى » . وسمارة صحفية فى الخامسة والعشرين جميلة أو جذابة . تأتى العوامة عن طريق معرفتها برجب وقد عرفته من أدواره ممثلا كما عرفت على السيد من مقالاته وكما عرفت خالد عزوز من قصصه وخاصة قصة الزمار الذى انقلب مزماره حية تسعى . وما تكاد تدب سمارة فى العوامة حتى تدب فيها الحياة . أنها نقطة الانطلاق التى يبتدئ بها نجيب محفوظ التفكير نحو الطريق . أو ماهية الحقيقة أو ماهية التناقض أوالتلاقى بين الاصلاح العالى المادى عن طريق الاشتراكية وبين مشكلات الروح والتساؤلات الميتافيزيقية . هى استيقاظ الوعى هى لحظة يشعر عمر حمزاوى بالرضى فى الشحاذ أو لحظة تخرج سعيد مهران من السجن فى اللص والكلاب أو مثلما يحس صابر الرحيمى بأنه لا بد باحث عن أبيه . ولكن استيقاظ الوعى وسط المساطيل طريف للغاية وهو يمد نجيب محفوظ بطاقات لا حدود لها فى حرية الحركة وفى تأكيد هذا التساوى بين المتناقضات جميعاً وفى الالحاح على « إن لا شىء ينتهى إلى لا شىء » وفى اللعب بفكرة الموت والخوف التى تربط بين هذه العوامة وبين الحياة على الضفاف التى فرت منها . وتدخل سمارة العوامة بعد أن تهتز بها السقالة وهى تهتز لكل قادم رمزاً إلى الصلة المرعوشة بين عالم الملكوت فى العوامة وبين عالم الواقع على الضفة هناك .

وتتعرف سمارة على الموجودين وتكون فرصة لأن نتعرف على الصحب واحداً واحداً . وأنيس باستمرار صامت غارق فى تأملاته التى لا يرى فيها أى جدوى « ولا جدوى لأى شىء » وفى نظره « لا شىء يحدث على الاطلاق » (ص ٢٥) و « لقد ضاق كل شىء بكل شىء » وهو يهتف أحياناً « فيا أى شىء افعل شيئاً فقد طحننا اللاشىء » . (ص ٣٨) و « عندما نهاجر إلى القمر فسنكون أول مهاجرين يهربون من لا شىء إلى لا شىء » . (ص ٩٥) وهو يفكر فى « تلك الحلقات المذكرة بالنهاية والتى تجعل من أى شىء لا شىء » (ص ١٣٨)

وتثير سمارة فرصة تأمل الجماعة من الباطن بطريقتين الأولى عندما تسألهم عن همهم الأول وهم يرتابون فيها أولا ثم يأمنون إليها ، ويتبين أن همهم ينبع من اهتماماتهم وكلها تافهة،والطريف أن أهم الشخصيات النسائية أكثره لا شىء أو هو الحب أو الرجل . والطريقة الثانية عندما تحللهم فى مذكرتها التى تنساها مرة على الشلتة فيسرقها أنيس ويقرأ ما بها ويذكر مقتطفات منها فى حديث على فيثور الصحاب عليه ولكن « لا عتب على المساطيل » كما يقولون، ثم تعود سمارة لتسترد مفكرتها التى خططت فيها الشخصيات والموضوع ولكنها مثل نجيب محفوظ نفسه حائرة فى رسم هدف المسرحية خائفة من الحوار الهادف والمناقشة المباشرة ومن اختلاط الموضوع نفسه عليها وغموضه . وهنا عرضاً نرجو أن ينشر نجيب محفوظ بعض مفكراته هو ؛ فلعلها تكون كمذكرات الروائى العالمى الأمريكى هنرى جيمس (مجلية) لكثير من فنه وآرائه ؛ طريفة كأطرف رواياته وأعظمها .

وتستمر زيارات سمارة وتنشأ علاقة بينها وبين رجب لا هى بالحب ولا هى بالصداقة ولا الزمالة . ولكنها « رفضت زواجاً برجوازياً مغرياً » مما يدل على جديتها وعلى تحررها من التقاليد . وحول

علاقات سمارة بالمجموعة ينسج الفنان آراءه الكثيرة وتتناثر فى كثرة بالغة ملاحظاته الطريفة الذكية التى لا يمكن أن تحصيها هذه الكلمة .

وثلاث مرات يدق ناقوس على رأس هذه الجماعة لكى تهتم بالعالم من حولها ولا ينفع إلا الأخير وبشكل مبعثر غير تام . إنهم راضون بالقدر الذى يربطهم بالحياة أى سعيهم فيها على رزقهم ليعتصموا وراء ذلك من السلبية الراضحة التى تغلف حياتهم . أنهم لا يهتمون بشىء وفيهم الموظف الروتينى : أنيس ، والصحفى الناقد : على السيد ، والفنان : رجب ، والقصاص : خالد عزوز ، والمحامى : مصطفى راشد ، ومدير الحسابات : أحمد نصر ، ومن النساء : ليلى زيدان الرائدة العانس التى تعمل بوزارة الخارجية وكأنها بضاعة أجنبية زائفة ؛ وسنية كامل المجربة التى تترك زوجها وأولادها غاضبة كلما أحب زوجها غيرها، ولكنها لا تنسى زوجها ولا أولادها حتى فى أشد حالات السطل رغم رغبتها فى أن تدفن همومها فى علاقة جديدة أو فى الجوزة ؛ وسناء الطالبة التى هى مجرد مرآة تنعكس عليها سمارة بجديتها وبطولتها . ولعل سناء ترمز إلى استمرار التفاهة البرجوازية الرومانسية . على كل حال فالدور النسائى عامة إلا سمارة ضعيف، ولعلهن جميعاً نماذج ثانوية حتى لا تكون سمارة الجادة وحدها ؛ ولتظهر جديتها بأوضح ما يمكن أن تظهر معكوسة على العانس وعلى الزوجة القلقة وعلى الراغبة فى الزواج أى على علاقات المرأة بالرجل فى شتى أشكالها وأطوارها .

وأول حادث كان يأمل أن يهز المجموعة سقوط امرأة منتحرة لخيانة عشيقها لها من ثامن دور وكأن هذا هو النبأ الذى جاء به (التاريخ) أى عم عبده ولكنه لا يهز المجموعة فى شىء وهكذا انتحر العصر الرومانسى دون أن يترك فيهم أثراً . وثانى خبر كان غرق عوامة . يتأكد أحدهم هل غرقت بمحتوياتها ويؤكد على أهمية المحتويات ولكن النبأ لا يهزهم أيضاً وهكذا ينعى عم عبده (التاريخ) عصر الواقعية . ثم أتى الحدث الثالث أثر أمسية بدت مملة فاقترح أن يتكوموا فى سيارة رجب ليذهبوا إلى سقارة (إلى بطون التاريخ الأولى) وهناك وفى العودة ترتطم السيارة بشبح : إنه إنسان يموت من الصدمة ويفرون من المسئولية ، يفرون من الحياة الجادة ، يفرون من الواجب ، ومن القيم . ولكن بعد ثورة ، ثورة ضمير ، وثورة نوازع وخلافات . ويعودون إلى العوامة فاذا « لم يعد شىء كما كان . الجنة ولت » . وكان رجب وهو صاحب السيارة قد علق على اجترار أنيس لبعض الملاحظات عليهم من مفكرة سمارة من ذاكرته « لعله يجتر كتاباً عن تدهور الحياة » . (ص ١٢٢) وهذه الحادثة تكشف فعلا عن تدهور الحضارة كما يمثله تصرف هذه الجماعة إزاء حادث الإنسان الذى صدمته سيارتهم ، وهم المساطيل . فمات نتيجة موات الحياة فيهم نتيجة عدم وجود « إرادة الحياة » .

ونقف مرة أخرى بالموت ودور الموت فى روايات نجيب محفوظ . إنه هو فى ثرثرة فوق النيل حركة دائرية كحركة الصادر والوارد حركة تتسلى بالعبث ، وثمرتها الحتمية الدوار الذى يخفى الأشياء الثمينة الطب والعلم والقانون والموتى ، الزوجة والابنة الصغيرة تحت غشاء الأرض ، والموت قدر يشك فيه الإنسان أحياناً ولكنه جاثم على الصدر ، والموت هو الذى يجمع هذه الجماعة فوق النيل . يسأل أنيس رجباً وهل أخبرت سمارة أن الذى يجمعنا هو الموت . هو الشىء الوحيد الذى يشتركون فيه فى التفكير . وعندما يتحدث عن سر قوة الدلتا بعيد انفضاض الجماعة وخلو أنيس لوحدته يكتب أنشودة نثرية عن الحياة والموت والكفاح بينهما فوق الدلتا . ولكن الآخرة موت « ولا هدنة لدفن الموتى وليس ثمة من يسأل أين يذهبون » . (ص ٨٣) . ويثير

التساؤل لماذا يعرقل الموت سعادتنا الأبدية (ص١٠٢) ويصور الموت علمياً بقوله « يقضون أوقاتهم فى العبث لينسوا أنهم سيتحولون بعد قليل إلى رماد وعظام وبرادة حديد وأزوت ونيتروجين وماء ، ويرهقهم فى ذات الوقت أن الحياة اليومية تفرض عليهم ألواناً من الجدية . . (ص ١٤١) ويشير أيضاً إلى أن بعض غرائزنا تعبد الموت (ص ١٤٩) ويذكر كيف أن الإنسان يحس أحياناً أن جزءاً منه قد مات فعلا أو أن الموت يطارده بشكل أو بآخر وعندما تتأزم الأزمة آخر الرواية وتحس سمارة بالاثم فى تخليهم عن مسئوليتهم نحو من صدموه فمات فيقول لها على السيد « آلاف يقتلون كل يوم بلا سبب والدنيا مع ذلك بخير وستجدين دائماً فرصة للعمل فلن يقعد بك تسامحك الواجب نحونا عن نشاطك الصحفى الذكى ولا عن همتك المعروفة فى الوحدة الأساسية ولا ولا ولا . . . الخ » . فتقول فى قهر شديد « إنى صائرة إلى الموت » فيقول خالد عزوز « كلنا صائرون إلى الموت » فتقول « أنما موت أفظع » فيقول « ليس ثمت ما هو أفظع من الموت » . فتجيب « ثمة موت يدركك وأنت حى » فيثور « لا لا لا يجوز أن يضحى بنا بدافع من تركيب لفظى » وهكذا يعلق نجيب البارع فى الهروب والانتقال على فكرة قوية تبدو كومضة ولكنها لا يمكن أن تكون إلا ومضة . الموت الذى يدركنا ونحن أحياء ماذا هو ؟ نحسه وأى وصف له لن يفيد فى تحديده .

وهكذا تتناثر آراء نجيب محفوظ فى الموت وفى دوره فى هذا السعى نحو المطلق أو نحو المجهول أو نحو التقاء الراحة المادية بالراحة الميتافيزيقية أو اتفاق الحل المادى مع الحل الميتافيزيقى . والعبث عنصر مسيطر على فكرته . والإيمان بالعبثية قد يكون جاداً وكتاب اللامعقول معقولون جداً ولكن كيف يتم الإيمان بالعبث أو كيف تهدأ الروح فى الإيمان بالعبث .

وفى آخر الرواية يتشاجر أنيس ورجب . لقد عرض أنيس بالحب « سمارة فتاة ذات مبادئ ولكنها امرأة ذات قلب فنحن مدينون للحب فهو الذى أنقذنا من حكم المبادئ » . ولكن رجب يثور على هذا التحليل فيصفعه . إشارة إلى أن الحل الجديد ليس هو الحل لما قد صاروا إليه وليس هذا هو التشخيص السلم لما آلوا إليه فلا هو عين أصابتهم (غيبية) ولا هو حب (رومانسية) . ولا هو مبادئ (واقعية) ولا هو إرادة حياة لقد تحطموا معنوياً أمام مأساة عبثهم . إن عبثهم عجز فى موقف الخطر وأمام الامتحان عن أن يكون مصدر سعادة أو راحة أو طمأنينة ، بل إن الإيمان به يتزعزع وتتلاطم مع المراحل السابقة للفكر الإنسانى فى مدار التاريخ ويظل يغلى عند التصادم .

وتتركز حركة فجائية عنيفة فى آخر الرواية بالمعركة بين أنيس ورجب . فان رجب يصمم على قتل أنيس وأنيس يصمم على قتل رجب . العبث يصارع التفاهة أو الحب أو اللاخلاق . وكان أنيس قد شرب القهوة المعسلة ولكنه بعد الاشتباك فجأة مع رجب يصحو ضميره ويريد أن يبلغ عن جريمة القتل « كل شىء يهون إلا جريمة القتل » وتملكت أنيس صحوة غريبة وهو المسطول أبداً المسطول الذى رفت من عمله بعد أن ذهب عقب الحادث صباحاً ونام فراراً من عذاب الضمير أو شدة الاصطدام بالواقع فرفته المدير نهائياً وعاد بلا عمل . ولذلك يظن رجب أن صحوته تلك من شقائه وقد أصبح بلا مورد رزق . ولكن أنيس يؤكد له ألا علاقة بين هذا وذاك . ثم اشتبك الاثنان ولعب الشيطان بهما ، بل بالمجموعة كلها وخاصة « برأس البلوى » سمارة كما نعتها رجب . وتنتهى المعركة

وأنيس محطم ويشرب القهوة مرة أخرى ويعود قليلا قليلا إلى انسطاله، لقد غضب ولكنه أيضاً غار إنه يحب سمارة نوعاً ما ويدور بينهما حديث هام ينعى الأخلاق حتى فى أحمد نصر الذى لم يخن زوجه عشرين عاماً ، يصوم ويصلى ويهتم بأن يزوج بنته ولكنه يقف سلبياً من الأحداث كما يقف سائر قومه (ص ٧٦) . ومن هذا الحديث الحزين الهادئ الذى يديره أنيس وهو نصف مسطول يتأكد لدينا أن التجربة كانت ممكنة كان يمكن أن تذهب سمارة أو أنيس إلى البوليس وأن يقفوا جميعاً فى مستوى المسئولية والجدية وإرادة الحياة واحترام الكائن الحى ولكن سمارة ترتد عن ذلك ، وأنيس أيضاً يرتد . أهو تحول فى الشخصية ؟ أهى نهاية مفتعلة للمسرحية الداخلية التى كانت تريد أن تكتبها سمارة . ويقول أنيس رداً على سؤالها « فكيف ترى النهاية ؟ » . « هذه هى مشكلتنا لا مشكلة المسرحية وحدها » . ولكن أو ليس يمكن التغلب على هذا القرار والعبث بالعقل بالإرادة . نعم هناك حتمية لا تنفع فيها إرادة ولا يجدى فيها عقل ولكن هناك أمل . وبينما سمارة تحدثه عن الأمل ، شعر أنيس « بأن شيئاً ما يحدثه إنه عما قليل سينشق سطح الماء القاتم عن رأس الحوت » . رأس الحوت الذى نجى يونس والذى يمكن أن ينجى الإنسان يوماً ما . وتغيم رؤيا الحوت من خلال هذا الحوار الذى نقلناه أول هذا الحديث والذى يجعل « أصل المتاعب مهارة قرد تعلم كيف يسير على قدميه فحرر يديه وهبط من جنة القرود فوق الأشجار إلى أرض الغابة . وقالوا له عد إلى الأشجار وإلا أطبقت عليك الوحوش . فقبض على غصن شجرة وعلى حجر بيد وتقدم فى حذر وهو يمد بصره إلى طريق لا نهاية له » .

ترى هل نقف فى هذا الطريق مرة أخرى وقفة بارعة فذة مع نجيب محفوظ لندرس هذا التقدم الحذر ، ونسجل مرحلة من مراحل السير ؟ أما الوصول فلعله مجرد أمل . . أمل كان وسيظل .

دكتورة سهير القلماوى

جولة بين الكتب

فى النظرية الماركسية .. المثالية والمادية

تأليف : عبد المنعم الحفنى .

الناشر : مكتبة راديو ٨٩ ص
١٤ × ٢٠ ث ١٥ قرشاً

دراسة تحليلية للنظرية الماركسية والآراء التى وردت إزاءها وموقفها من المادية والمثالية وذلك فى محاورات أشبه بالعمل المسرحى ، استمد المؤلف بعض شخصيات هذه المحاورات من تراثنا الإسلامى والتراث الغربى .

قال الراوى

تأليف : الياس فرحات .

الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومى بسورية ١١٣ ص ١٧ × ٢٠
ث ١٢٥ ق.س

كتاب شائق ألفه أديب مهجرى كبير عن رحلة له مع أسرته فى غابات الأمازون، يدل على أن أخواننا فى المهجر لهم مشاركات جليلة فى أدب الرحلات ، لما طبعوا عليه من روح المغامرة والاقدام ، لاكتشاف مناطق مجهولة أو شبه مجهولة، وبالكتاب باب كامل عن حياة الشاعر بقلمه ، مكتوب بروح موضوعية قوامها الصدق والاخلاص .



ابراهيم المصري

قبل أكثر من ثلاثين سنة كنت أشترك فى تحرير مجلة « الأسبوع » ، وهناك التقيت ، لأول مرة ، بابراهيم المصرى ، ثم زاملته فى تحرير « البلاغ » سنوات عديدة . « ومنذ عرفته وأنا أجده شامخ الرأس قوى القلب مرفوع الجبين أميناً على رسالته وقدسية فنه ، مع ما لقى من ضراوة الحياة وقسوة الزمن ومحنة المرض ، عرفته وعلى رأسه « تاج » من الشعر الأبيض الرائع — وهو شاب — وعلى هامته تاج آخر من العزة والشمم والإحساس بقدسية الفن وكرامة الرسالة ، ظل رائداً مكافحاً يضرب أعظم الأمثال لكلمة فولتير العظيمة : « وماذا يهمنى أن ليس لى تاج ؟ . . أليس لى قلم . . ؟ » .

هكذا عاش إبراهيم المصرى طول عمره ، (وما يزال يعيش) : رائداً فى فن القصة ، ومعلماً نافذ البصيرة فى مشاكل المرأة والشباب وأحاديث العواطف والقلوب .

لذلك سرنى وأفعم قلبى غبطة أن يصدر هذا الكتاب عنه .

وكم أتمنى أن يقرأ هذا الكتاب الشباب والناشئون من كتابنا ليجدوا فيه سيرة تلهمهم وتعلمهم أشياء كثيرة يحتاجونها أعظم الحاجة : سيرة كاتب فنان

تأليف : فوزى سليمان

الناشر : مطبعة النصر بالقاهرة
عدد الصفحات ٧٩ ص - ١٤×٢٠ سم

حياته وأدبه

تحدى الفقر والمرض والحياة جميعاً ، سيرة رجل كان أبوه « نساخ عقود » فى المحكمة المختلطة فلم يتيسر له قسط كاف من التعليم المدرسى ، وكانت طبيعته وحاسته الفنية ونزوعه إلى الأدب والثقافة تباعد بينه وبين هذا اللون من التعليم ، فثار عليه وتحول بكل قوته وقدرته إلى الأدب والفن .

ولكن ، لنترك الأستاذ فوزى سليمان ، يحدثنا حديث هذه السيرة فى فصول كتابه الشائق المركز .

الكتاب فى عشرة فصول ، أولها فى مولد الكاتب ونشأته ، وفيه يقص المؤلف « سيرة حياة » إبراهيم المصرى منذ ولد فى القاهرة سنة ١٩٠٠ ونشأته فى حى « القبيسى » الشعبى بالظاهر ، وكان أبوه « نساخاً » متوسط الحال ولكنه يحفظ الشعر ويلقيه إلقاء فيه من الخطأ واللحن ما يثير غضب ولده الذى بدأ يعرف شيئاً من النحو والصرف ، ولكن هذا الشعر الملحون الذى كان يسمعه لأبى تمام ومهيار الديلمى والبحترى كان عاملا من عوامل تعلقه بالأدب وتنبهاً كافياً لأن يقرأ ويتعلم . وأدخله أبوه مدرسة فرنسية تعلم بالمجان ، ثم انتقل إلى أخرى ليتقدم منها إلى شهادة « الكفاءة » ، ولكنه لم يوفق فى الحصول عليها . وكان من أساتذته فى تلك المدرسة أستاذ واسع الاطلاع فى الأدب العالمى ، فوجهه لقراءة بلزاك وستندال وزولا وفلوبير من القصصيين الفرنسيين ، وبسكال ومونتسكيو وفولتير وروسو من المفكرين ، ثم قرأ روائع المسرح الإغريقى ومسرح شكسبير وجيته وراسين وإبسن ، وبذلك انصرف بكل قلبه ونشاطه إلى الأدب والقصة وترك المدرسة لا يحمل أية شهادة .

وكبر أبوه واحتاجت أسرته ، فاضطر أن يعمل عملا صغيراً فى بنك ، ولكن حبه للكتاب غلبه على أمره فكان يخفى ما يريد أن يقرأ فى « درج مكتبه » حتى وجد رؤساؤه أنه لا يصلح ففصلوه . . ! وبقى أشهراً « متشرداً » جائعاً .

وكان فى هذه الفترة يقضى صباح يومه فى دار الكتب يقرأ ، ثم يتركها إلى « مطعم فول » قريب ، حتى يعود عصراً فيقرأ حتى يخرج مع موظفى الدار .

ودام هذا الكفاح وهذا التثقف ثلاثة أعوام طويلة كان إبراهيم يعيش خلالها مما كان يغدقه عليه إخوانه لقاء بعض خدمات أدبية يسديها لهم ، وممن عاونوه فى هذه الفترة ومدوا إليه يد المساعدة الأديب المرحوم محمد تيمور والمرحوم الأستاذ إسماعيل مظهر والقاضى والمؤلف المسرحى عمر عارف ، وزكريا مهران — عضو الشيوخ إذ ذاك — وعبد الخالق ثروت الذى تولى رياسة الوزارة بعد ذلك ، والذى كان يعطف عليه أدبياً ومادياً .

ثم يفجعه القدر بعد ذلك فى شقيقه ، ويضاعف الفجيعة بأن يشقى روحه ويعتصر قلبه فيرغمه على أن يقوم بالعمل الذى كان يقوم به أخوه : مدرساً فى أحد المعاهد ، أى أنه لا يجد « لقمة العيش » إلا على جثمان أخيه .

ويظل هذا حاله ستة أعوام ، وهو مع ذلك يقرأ ويثقف عقله ويراسل الصحف حتى يتنبه لقيمته أستاذنا المرحوم عبد القادر حمزه فيطلبه للعمل فى تحرير « البلاغ » بعد أن يستوى على قدميه كاتباً له

قيمته وقدره وخطره ، كاتباً يجيد بعد ذلك كتابة المقالة والمسرحية والقصة ، وعند ذلك ترك مهنة التدريس .

وفى هذه الفترة وضع « لمسرح رمسيس » أول مسرحية مصرية قدمها يوسف وهبى وهى «الأنانية» ثم أتبعها « الفريسة » و « نحو النور » . . التى حشد فيها – لأول مرة فى تاريخ الحركة الأدبية فى مصر – آراء وتعاليم اشتراكية أثارت عليه ثائرة صدقى باشا الذى كان رئيساً للوزارة إذ ذاك ، والذى قرأ الرواية بنفسه وأبى أن يجيزها للمسرح إلا بعد أن يستبعد منها المؤلف جميع الفقرات الاشتراكية . ولكن إبراهيم أبى أن ينزل عن أية كلمة فى الرواية ، فلم تمثل ، وطبعها فى كتابه : « الفكر والعالم » .

وصدرت له فى هذه الفترة كتب : « الأدب الحى » و « الأدب الحديث » و « وحى العصر » و « صوت الجيل » ثم أصدر مجلة « الأدب الحى » وأول مجلة للمسرح خاصه سماها : « التمثيل » كان ينقد فيها جميع المسرحيات التى تقدمها مسارح القاهرة ، وبخاصة مسرح رمسيس ، وكان يشاركه فى إصدار المجلة الأستاذ زكى طليمات .

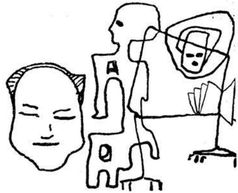
وبعد عشر سنوات ترك « البلاغ » إلى « دار الهلال » وتولى رياسة تحرير « الهلال » وتحرير السياسة الخارجية لمجلة « المصور » . (وبعد ثلاثة أعوام من هذا العمل المتواصل الشاق سقط على الأرض ذات يوم وهو يأكل ، وأحس كأن ضربات قلبه ، من فرط عنفها ، تكاد تخنقه ، وكأن مطارق من حديد تدق رأسه ، فارتمى على فراشه مسلوب الحول . . . أربع سنوات لم يكتب فيها سطراً واحداً ، ولم يربح خلالها قرشاً واحداً ، ولم يجد بين كل من خدمهم من إخوانه صديقاً ، فباع مكتبته التى كان قد زودها بأكثر من أربعة آلاف كتاب ، ثم باع أثاث بيته ، ثم هجر القاهرة إلى « عزبة النخل » حيث عاش تلك السنوات الأربع أشبه بطفل يولد من جديد) .

ويشاء الله أن يعود لإبراهيم نشاطه ، بفضل جلده وصبره وعزيمته ، فيعود للعمل فى « الهلال » ثم ينتقل منها إلى « دار أخبار اليوم » التى ما زال يعمل فيها إلى اليوم ، إلى جانب إنتاجه الشخصى من الكتب والقصص .

وحين ننتهى من هذا الفصل الأول (١٧ ص) نكون قد أحطنا بسيرة « حياة » إبراهيم المصرى وشقوة عمره ومحنة الفقر والمرض التى لازمت شبابه ، وأحطنا بما بذل من جهد وعزم ومجالدة حتى خرج من هذه المحن والفواجع كلها .

وفى الفصل الثانى (٧ ص) يحدثنا المؤلف عن « الدراسات الأدبية والاجتماعية » التى اتسمت بها الحياة الأدبية فى مصر فى نحو سنة ١٩٣٥ ومشاركة صاحب الترجمة فيها وإسهامه فى محاربة المادية المستبكرة والجشع . . الذى بدأ يسيطر على أوربا من القرن الثامن عشر ، والذى استفحل خطره فى القرن التاسع عشر عقب ظهور المفكر الألمانى « نيتشه » الذى أعلن ، فى زعمهم ، أن « الله قد مات وأن الإنسان هو الله » ودعوة إبراهيم إلى الاستمساك بروحانية الشرق ، من خلال دراسته لدستيوفسكى وطاغور – الذين يؤيدان هذه النزعة الروحية – وغير ذلك من الدراسات .

ومن خلال هذا الفصل نعرف أن صاحب الترجمة من الذين يدعون إلى تحرير الكاتب والشاعر من عبودية اللفظ ، التى كانت ما تزال قوية فى ذلك العصر ، فهو يرى : « أن نزعة الطرب اللفظى هذه رمز الهمجية وعنوان عبودية الإنسان للحواس دون الفكر . . . وأنها نزعة خطرة فى أدبنا الشعرى والنثرى ، كما يبدو ذلك واضحاً فى منظومات معظم شعرائنا المدوية بالطرب اللفظى . . أما أرواحنا وعقولنا فتظل خاوية من كل عاطفة سليمة صادقة .



حتى ليتعذر على القارئ أن يحس فى منظوماتهم باحدى العواطف الإنسانية الكبرى » .

وهو ، فى القصة المصرية ، يرى وجوب اتجاهها وجهة مصرية إنسانية معاً ، وأن : « أدبنا لن يظهر حقاً فى ثوب مستقل شخصى إلا متى أنعمنا النظر فى شعبنا وأخضعنا ثقافتنا لروح شعبنا وحاولنا أن نفهمه بها ونحبه » . كما يرى أن حكم الناقد على العمل الأدبى من خلال نظريات خاصة عمل تعسفى جائر ، بل يجب على الناقد الأدبى الاعتراف بشخصية الكاتب وتميزها .

والفصل الثالث عن منزعه الاشتراكى ، ومنه نعرف أن إبراهيم المصرى : « كان ، مع سلامة موسى وإسماعيل مظهر ، فى طليعة الذين نادوا بالاشتراكية فى مصر » ورأيه فى ذلك دعوة صريحة إلى الاشتراكية : « والحرية مع الاعتراف بقيمة الفرد ودفعه إلى الطموح وإلهاب همته الشخصية وحفزه إلى الابتكار والخلق، بحيث يمكنه أن يدعم النظام الاشتراكى بحرية فكره وحرية نقده لأوجه النقص فى هذا النظام وحرية طموحه فى تحقيق إمكانياته الشخصية التى لا تتعارض ومصلحة الجماعة ونظامها والتى تؤكد فى الوقت ذاته قوة الفرد وخصائصه الخلاقة المبدعة . فالحضارة الحقيقية هى تقوية الدولة والفرد معاً ، بحيث ينشأ من تعاونهما ، فى ظل الحرية المشروعة ، نظام اشتراكى يقر العدالة الاجتماعية مع الاحتفاظ بقيمة الفرد وقيمة فكره وكرامته المعنوية والإنسانية » (ص ٢٥) .

وفى الفصل الرابع (ص ٤) نجد إبراهيم المصرى « الكاتب المسرحى » وفيه يعرض المؤلف ويحلل طائفة من مسرحيات صاحب الترجمة التى مثلها فى مطلع النهضة المسرحية الحديثة مسرحا يوسف وهبى وفاطمة رشدى والأستاذ أنطون يزبك

وفى الفصل الخامس (٩ ص) يتناول المؤلف « الدراسات النسوية » التى اشتغل بها إبراهيم المصرى فى الفترة الأخيرة خاصة فأصدر منها : « دروس فى الحب والزواج » و « الغيرة » و « مدرسة الحب والزواج » ومئات من المقالات والردود والتعليقات فى صحف « أخبار اليوم » . وفى هذا الفصل يقتبس كلمات كثيرة تصور منزعه ومنهجه فى هـــذه الدراسات ، وهى كلها تتسم بالتحليل النفسى والرغبة فى التقويم وحسن التوجيه وتفيض بمشاعر الحب الشامل والإنسانية الرفيعة .

ونجد فى الفصل السادس : « إبراهيم المصرى وفن القصة (٨ ص) ، رأى المؤلف فى قصص إبراهيم المصرى ، وهو يرى أن فن القصة « ينهض على أربع قوى رئيسية : خيال متقد ، وخبرة عميقة بالحياة ، وثقافة واسعة ، وأسلوب خاص لشخصية فذة لها طابعها المستقل . وهذه القوى الأربع توافرت فى صاحب الترجمة ... وقد اجتمعت هـــذه الخصائص كلها فى مجموعات قصصه أمثال : « الإنسان والقدر » و « صور من الإنسان » ، و « الأنثى الخالدة » و « كأس الحياة » و « وثبة الإسلام » و « صراع الروح والجسد » و « الباب الذهبى » و « عالم الغرائز والأحلام » وغيرها . وهذه

القصص ليست قصصاً شائعة الموضوع ، دانية المرمى ، آخذة بالمفاجئات والمباغتات ، بل هى قصص منتزعة من صميم النفس البشرية فى حالات اضطرابها وتوزعها وصراعها العنيف بين إرادتها ومشتهياتها . قصص تصور – لأول مرة – فى أدبنا العربى مآسى القلب ، وفواجع العاطفة ، وأزمات الضمير ، يغوص الكاتب إلى أعماقها ويدرسها ويحللها ، مسجلا فى أمانة مطلقة دقائقها وتفاصيلها ، كما يفعل العالم فى معمله أو الطبيب على منضدة التشريح » . (ص ٣٩ – ٤٠) .

« فابراهيم المصرى لا يكتب ليعبث ، ولا يكتب ليسلى ، بل يكتب ليستخرج من منجم الحياة معادن بشرية فيها الخير كما فيها الشر ، وفيها الجمال كما فيها القبح ، وفيها الفرح كما فيها الألم ، وفيها قبل كل شيء ذلك التوق العجيب إلى التفوق والإستعلاء الكامن فى أعماق النفس الإنسانية ، والذى قد ينحرف فينزع إلى الأنانية والهدم والتدمير ، أو يستقيم فيتطلع إلى التخلص من ربقة الفطرة ونوازع الشهوة ومغريات الحواس كى يتجه نحو الحب الكامل والتضحية الخالصة ، وعالم الروح والوجدان والضمير » . (ص ٤٣) .

ومن هذه السطور ندرك الإعجاب البالغ الذى نجده عند مؤلف الكتاب نحو إبراهيم المصرى ، وهو إعجاب واضح قوى فى كل سطر من سطور الكتاب .

ومن خلال هذا الفصل نعرف موقف إبراهيم المصرى من قضية « الالتزام » فى الأدب ، فهو يرى من وظيفة الفن : « أن يصور لنا الحياة فقط ، ومن خلال صوره الصادقة القوية الأمينة ، نستخلص نحن الأفكار والنظريات الفلسفية التى تروق لنا والتى نشعر أننا قد اهتدينا إليها من سياق القصة الطبيعى الحى لا من أفكار المؤلف نفسه أو من فلسفته الخاصة التى يسير أبطاله بموجبها ويريد أن يرغمنا على قبولها والتسليم بها » . (ص ٤٨) .

والفصل السابع يتحدث عن « القصص التاريخى » لإبراهيم المصرى (٦ ص) ويرى المؤلف أن تلك القصص التى تخير لها صاحبها شخصيات ممتازة من التاريخ الإسلامى والمصرى القديم والأوربى وغيرها ، عالجها الكاتب بخيال الشاعر وعقل المحلل وبصيرة الفنـــان .

والفصل الثامن يتحدث عن قصصه الرمزى والفلسفى (٧ ص) فيرى أنه يقرن بين الرمز الفلسفى والواقع الحى ، ويعالج : « الجانب المعنوى المتعلق بحظ الإنسان ومصيره وقيمة إرادته وخياله فى انطلاقه الدائب وراء مطامحه الوجدانية وغاياته الفكرية العليا » . يستخلص ذلك من عرض نماذج من قصصه الفلسفى الرمزى .

ويتحدث المؤلف فى الفصل التاسع : (٤ ص) عن « نظرة عامة » فى أدب إبراهيم المصرى فيرى أنه لا يصدر عن فكر مجرد أو فلسفات ونظريات مهيأة من قبل ، بل عن « ملاحظة مباشرة للحياة وإحساس صادق بها ، وتصور مشبوب لأحداثها وأطوارها » ويرى أن الاتجاه الغالب على أدبه هو الاهتمام بالمواقف الدرامية وتصوير الفواجع والمآسى الوجدانية دون تشائم ، بل يصورها تصويراً مصحوباً بالدعوة إلى القوة والمجالدة والتحدى والكفاح .

والفصل العاشر والأخير (٨ ص) أورد فيه المؤلف آراء الأدباء والنقاد فى إبراهيم المصرى وأدبه ، وفيه جمع طائفة مختارة من الآراء لأدباء مصريين وشرقيين وأوربيين .

* * *

من السطور التى اقتبسناها فى هذا المقال نحس – كما أشرنا من قبل – إحساساً واضحاً بالمدى البعيد من الحب والإعجاب الذى يجده الأستاذ

فوزى يوسف نحو إبراهيم المصرى ، وهو إحساس يلازمنا فى كل صفحة وسطر فى الكتاب ، كما قلنا

وقد نجد بعض النقاد أن ذلك « الإغراق » والقسر وفرض الرأى قد يكون عيباً فى التأليف . ولكنا نجد شيئاً من العذر للمؤلف وهو يقول إن إبراهيم المصرى : « لم يستخفه السعى وراء الشهرة ولم يجتذبه إغراء المال » — وهذا الوصف صحيح — فكأنه أراد أن يعوضه عن ذلك بأن ينصفه — هذا الذى ينكر نفسه ولا ينصفها — ويعترف بفضله ويضعه فى مكانه الحق ، فجاءت هذه النبرة العالية من الإعجاب والتقدير ، الذى تحس صدق الكاتب فيه

على أنه ، لو صح هذا الرأى لبعض النقاد ، فقد قدم لنا الأستاذ فوزى فى كتابه سيرة خلابة موحية من « حياة » إبراهيم المصرى ، كما قدم لنا « عرضاً » دقيقاً مركزاً لأعماله وملامح فنه .

أما سيرة « فكر » إبراهيم المصرى فنحن نلتقطها من سطور وصفحات مختلفة متفرقة من الكتاب ، كما فعلنا نحن فى حديثنا عن رأيه فى الاشتراكية والالتزام والنقد الأدبى وغيرها . وكان الأفضل ، فى تقديرى ، أن يجمعها فصل واحد مستقل .

وكم كنت أتمنى أن نجد إلى جانب « سيرة حياة » إبراهيم المصرى سيرة « نفسه » وتصوير عواطفه حيال ما لقى من محنة وشقوة ، وكيف استطاع أن يتفوق عليها ويقهرها ويخرج منها — ليس سالماً فقط — بل قوياً متفوقاً ، ذهناً وروحاً وثقافة ، وتلك المؤثرات والعوامل التى كونت نفسه ومزاجه وجعلت منه هذا « الإنسان » الذى نعرفه « بالذات » .

ولكن « سيرة النفس » هذه قد لا يستطيع أن يكتبها ، بصدق ، غير إبراهيم المصرى نفسه .

ولعله يفعل .

ملاحظات :

مع جودة الأسلوب وقوته وتركيزه — كما نجد فى السطور التى اقتبسناها — نجد بعض أخطاء الأداء والتعبير ، نكتفى منها بمثلين : الأول قوله : (فقبلت « به » تلك السيدة زوجاً لها (ص ٤٤ والصواب « قبلته » والثانى ذلك الخطأ الذى يجرى كثيراً على أقلام الكتاب هو (بل « ويسخر » الواقع لمصلحته (ص : ٤٧ وصوابه « بل يسخر » بدون واو .

وهناك فقرة غير واضحة أو غير مفهومة ، لى أنا على الأقل ، وهى : (. . . يصور لنا شاباً « أقدم » على خيانة صديقه وسلبه امرأته ، ثم تنبه فى اللحظة الأخيرة واستفاق ضميره . ولكن يقظته كانت باطلة لأن مجرد تفكيره فى الخيانة ومحاولة تحقيقها أفضيا إلى يقين فى نفس صديقه بوقوع الخيانة ، وهذا اليقين أدى إلى موت الصديق « كما لو كانت الخيانة قد تمت بالفعل » (. ص : ٤٢) .

ففى هذه الفقرة المرتبكة لا نعرف : هل تمت الخيانة ، كما نفهم فى أولها ، من كلمة « أقدم » وما بعدها . . . ؟ أم أنها لم تتم ، كما نجد فى آخرها من كلمات : « كما لو كانت » وما بعدها . . ؟

* * *

وقد تمنيت ، فى أول هذا المقال ، أن يقرأ هذا الكتاب الشباب والناشئون « ليجدوا فيه سيرة تلهمهم وتعلمهم أشياء كثيرة يحتاجونها أعظم الحاجة » . والآن أتمنى مرة أخرى لو يقرأه الراسخون من هؤلاء الكتاب والسابقون ، إذن لأحسوا مثل ما أحسست من الفخار والنشوة لأن واحداً منهم ومن أهل جيلهم استطاع أن يبلغ هذه المثابة من الجلد والعناد والصبر وتحدى القدر وتثقيف الذات والتجرد فى الإخلاص للفن ورسالته .

محمود الشرقاوى

الدوليـة الثـانيـة

نصر

تأليف: ج . هـ . كول   ترجمة: عبد الكريم أحمد

الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة ٧٠٨ ص ١٧×٢٤سم الثمن ٨٥ قرشا

هذا هو المجلد الثالث من الكتاب (أو الموسوعة بعبارة أدق) الذى يسجل فيه المؤلف نمو الفكر والعمل الاشتراكيين . ويعالج المجلد الحالى الفترة الممتدة من تأسيس «الدولية الثانية» فى عام ١٨٨٩ إلى نشوب الحرب العالمية الأولى . وفى الفصلين الأول والثانى يتتبع المؤلف نشأة الدولية الثانية وتطورها ثم انهيارها . ويلاحظ أنه خلال المؤتمرات الأولى «للدولية الثانية» كانت الكلمة الأخيرة للاشتراكيين الديموقراطيين فهزموا الفوضويين المرة تلو المرة ، وكان ذلك استمراراً للصراع بين الماركسية والفوضوية ، والذى ميز فترة «الدولية الأولى» . ومن القضايا التى كانت مثار الجدل ما تعلق بالقوة النسبية لدور كل من العمل السياسى والعمل الصناعى ؛ وفى مؤتمر زيور فى عام ١٨٩٣ صدر قرار «يسمح لجميع النقابات بالاشتراك فى المؤتمر ، وكذلك للأحزاب والمنظمات الاشتراكية التى تعترف بضرورة تنظيم العمال والعمل السياسى . والمقصود (بالعمل السياسى) أن تسعى منظمات الطبقة العاملة للحصول على الحقوق السياسية وغزو الأجهزة التشريعية وأن تستخدمها فى دعم مصالح البروليتاريا والاستيلاء على القوة السياسية» ، وهو قرار أثار فيما بعد ، خلافاً حاداً لا حول معناه فحسب ، بل وحول نصه أيضاً ، وفى مؤتمر باريس المنعقد فى عام ١٩٠٠ برزت بوضوح قضية الاشتراك فى الحكومات البورجوازية ، ولما كان من المستحيل معارضة «الاشتراك» فى كل صوره ، أبقى الباب مفتوحاً بعد فرض قيود شديدة ، ذلك «أنه لا يمكن أن يكون مطلقاً سوى مجرد بديل مؤقت واستثنائى لمواجهة موقف طارئ» . وفى هذا المؤتمر نفسه تمت الموافقة بالإجماع على قرار تقدم به فان كول الهولندى ، وينص على تعهد «الدولية» بالقتال بكل الوسائل الممكنة ضد سياسة التوسع الاستعمارى التى تتبعها الدول الرأسمالية ، وعلى تكوين أحزاب اشتراكية فى البلاد المستعمرة (بفتح الراء) وأشباهها والتعاون معها إلى أقصى حد ممكن . وكذلك وافق المؤتمر بالاجماع على قرار يحث الأحزاب الاشتراكية على القيام بصراع مشترك ضد النزعة العسكرية والاستعمار ، ويرجع هذا الاجماع إلى أن معظم الاشتراكيين فى ذلك الوقت لم يدركوا أنهم «سرعان ما سيواجهون صراعاً حاداً بين نداء التضامن القومى ونداء التضامن الدولى» . وكانت القضية التى شغلت اهتمام مؤتمر أمستردام المنعقد فى عام ١٩٠٤ ، خاصة بموضوع «التنقيح» الذى استنكره مؤتمر درسدن من قبل ، فاكتفى بالإعلان الإيجابى عن ضرورة الابقاء على أساليب العمل التى تقوم على صراع الطبقات ومعارضة البورجوازية

وأن يكون الهدف هو الاستيلاء على القوة السياسية . وفى مؤتمر كوبنهاجن (١٩١٠) أثير موضوع الاضراب كسلاح للحيلولة دون نشوب الحرب ، ولكن القرار الذى اتخذ استبعد كل إشارة إلى الاضراب ، « ملقياً العبء الرئيسى فى مهمة منع الحرب على كاهل الاشتراكيين فى البرلمانات المختلفة » . وكان من المقرر عقد مؤتمر للدولية الثانية فى فينا فى أغسطس ١٩١٤ ، ولكن الأحداث المفاجئة انتهت بنشوب الحرب فكان فى ذلك سقوط الدولية الثانية الذى « كان يمكن التنبؤ به . . فقد كان من الجلى تماماً فى شتوتجارت وفى كوبنهاجن أنه ليست هناك سياسة منسقة يحتمل أن تكون ذات أثر فعال فى إيقاف الحرب . . . » .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى بحث موضوع الاشتراكية البريطانية ، فيقدم لنا تحليلا وافياً ودقيقاً لفلسفة الجمعية الفابية التى كان لها أوضح الأثر فى الاتجاه البريطانى . إن الفابيين يرون « أن الاشتراكية ليست سوى الخطوة التالية فى نمو المجتمع ، خطوة تجعلها التغيرات المترتبة على الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر حتمية » . ولكن بينما قبل ماركس مفهوم التقدم الحتمى للاشتراكية تحت ضغط القوى الاقتصادية ، ذهب الفابيون إلى أن الاشتراكية لا بد أن تجئ فى صورة المرحلة النهائية لعملية تطورية تحت ضغط متزايد من الناخبين الديموقراطيين الذين أصبحوا يدركون أكثر فأكثر أنهم قادرون على تدبير شئونهم بأنفسهم والتخلص من أصحاب الأراضى والرأسمالية .

وأخذ كول بعد ذلك يعرض لنا نشأة النقابية الجديدة فى انجلترا ، ثم حزب العمال المستقل ، ومن بعده حزب العمال ، كما يعرض لنا شيئاً عما أسماه اشتراكية الطوائف التى « كانت أساساً مذهباً أخلاقياً وليس مادياً . . وقفت ضد كل من اشتراكية الدولة ، وما عرف بعد ذلك بالشيوعية ، لتأكيد الأهمية الحيوية لحرية الفرد والجماعة وضرورة نشر المسئولية الاجتماعية بين الناس كلهم بجعلهم سادة حياتهم الخاصة والظروف التى يتم فى ظلها عملهم اليومى إلى أقصى حد ممكن » .

ولعل أبرز ما تميزت به الاشتراكية الألمانية خلال الفترة التى نحن بصددها ، ذلك النزاع الذى دار حول « التنقيح » revisionism ، وهو الاتجاه الذى حمل لواءه ادوارد برنشتاين (١٨٥٠–١٩٣٢) ففى كتابه « الاشتراكية التطورية » يقول إن الاشتراكية لن تأتى فى صورة نظام يقيمه الاشتراكيون غداة استيلائهم على الحكم ، بل بواسطة تراكم التغيرات الفردية التى ستتحقق بواسطة العمل الاجتماعى داخل الحدود التى تفرضها الضرورات البحتة للنمو الاقتصادى ، وهذا بطبيعة الحال « . . ما كان الفابيون يقولونه منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة » على حد تأكيد كول ، وإذا كان برنشتاين لا ينكر الصراع الطبقى كحقيقة واقعة ، إلا أنه ليس الأداة المهمة حقيقة فى التغيير ، فالأشياء تتغير لأن الظروف القاعدية للحياة الاجتماعية تتغير ، ولأن التغيرات التى تحدث فى هذه الظروف تدفع الناس (وليست الطبقات) إلى العمل على مواءمة أنظمتهم مع حاجات جديدة . وهذا الرأى هو جريمة برنشتاين الكبرى ، كما أنه أنكر أيضاً أن المجتمع

من الفكر السياسى والاشتراكى

الرأسمالى على وشك الانهيار وبذلك يهيىء الفرصة أمام البروليتاريا للاستيلاء على الحكم . وهاجم الرجل أيضاً فكرة « دكتاتورية البروليتاريا » على أساس أنها لا تتفق مع المبدأ الديموقراطى ، قصده أن الديموقراطية تعنى القضاء على الحكم الطبقى وليس احلال طبقة فى الحكم محل أخرى . وانتقد ما أشار إليه « البيان الشيوعى » من أنه ليس للعمال وطن . ولكن برنشتاين فى الوقت نفسه تعرض للاتهام بالتطرف فى نزعته القومية ، وأهم من هذا أن موقفه من الاستعمار يتعارض مع أية فلسفة اشتراكية ، أى اشتراكى مؤمن يمكن أن يتقبل مثل هذا الكلام من برنشتاين حين يقول « لا يمكن الاعتراف للهمج إلا بحق مشروط فى الأرض التى يشغلونها . فللمدنية حق أسمى فى نهاية المطاف » ، والغريب أنه استشهد فى دفاعه عن الاستعمار الأوربى بعبارة أوردها ماركس فى الجزء الثالث من كتابه « رأس المال » ، وفيها يقول « ليس هناك حتى مجتمع بأكمله ، ولا أمة ، بل ولا جميع المجتمعات المعاصرة ككل ، يعتبر مالكاً للأرض . أنهم مجرد شاغليها ، مجرد أصحاب انتفاع ، ويجب أن يتركوها للأجيال المقبلة وقد تحسنت عما كانت » . واتهم ماركس بأنه فى قرارته كان دوجماتياً وغير علمى ، لأنه « أقام صرحاً هائلا داخل إطار هيكل خارجى كان موجوداً أمامه فعلا . . وعندما كان الهيكل يقف عقبة فى سبيل البناء كان — بدلا من أن يتخلص من الهيكل القائم — يعدل البناء على حساب التناسب » وإذا كان التنقيح أخفق فى تغيير العقيدة الرسمية إلا أنه أثر بصورة متزايدة فى أسلوب الحزب الألمانى فى العمل وفى التفكير العملى لمن يوجهونه .

ويحدثنا كول أنه بينما كانت الاشتراكية الألمانية تؤلف حزباً متحداً ضخماً ابتداء من سنة ١٨٧٥ ، فان الاشتراكية الفرنسية ، بعد أن عادت إلى الحياة بعد انهيارها الكامل تقريباً فى سنة ١٨٧١ ، سرعان ما أثبتت قدرتها الفائقة على الانقسام كعادتها . وبينما كانت النقابات فى ألمانيا من الأتباع المطيعين للحزب الديموقراطى الاشتراكى ، برغم استقلالها الشخصى عنه ، وجدت النقابات الفرنسية فى السندكالية فلسفة وبرنامجاً خاصاً بها أعاد « الثورة » إلى مكانتها بوصفها الهدف واعتبرت السياسيين مجموعة من المرائين لأنهم يحاولون العمل بالوسائل البرلمانية وبذلك سيقوا إلى التعاون الطبقى بدلا من القيام بالصراع الطبقى فى ميدانه الطبيعى — الميدان الاقتصادى وعلى الأساس الطبقى — فقد أكد ميثاق آميان الصراع الطبقى على أساس العمل النقابى ، والاستقلال التام عن الأحزاب السياسية والشيع الفلسفية ، والاضراب العام كسلاح ، كما أكد أن النقابات ستتولى فى مجتمع المستقبل ، الإنتاج والتوزيع ، ولكن دون أن يحدد صراحة هل تختفى الدولة أو تستمر ، وإذا استمرت فماذا تكون علاقتها بالنقابات .

وعلى خلاف أوربا لم يكن فى الروسيا برلمان يعمل الاشتراكيون على غزوه ، ولم تكن هناك أية هيئة تقوم فعلا على أى مبدأ تمثيلى يستطيعون أن يعملوا عن طريقه أو يحاولوا التأثير فيه ، « ومن ثم كان الاشتراكى الروسى ثورياً بحكم الضرورة . . بمعنى أن السبيل الوحيد أمامه للعمل فى الحاضر ، خارج مجال الفكر البحث ، هو العمل الثورى » .

من الفكر السياسى والاشتراكى

ومن القضايا التى أثارها هرزن : هل يجب على الروس ، وهم فى طريقهم إلى تحرير أنفسهم ، أن يسيروا على نهج الغرب ؛ أن يمروا بالرأسمالية والتنمية الصناعية إلى الاشتراكية التى تقوم على قوة الطبقة العاملة الصناعية ، أم أن فى وسعهم اتخاذ طريق آخر إلى اشتراكية طابعها الغالب زراعى وتقوم على كوميون القرية ؟ ومما يلفت النظر ، تلك العبارة المشهورة التى وردت فى المقدمة التى كتبها ماركس للترجمة الروسية « للبيان الشيوعى » ، والتى تتعلق بامكان الانتقال المباشر إلى الاشتراكية فى روسيا دون المرور بالمرحلة الرأسمالية ، عن طريق تحويل « المير » إلى صورة أعلى من المجتمع القروى .

هذا هو المجلد الذى نقله إلى العربية الأستاذ عبد الكريم أحمد فى لغة رصينة توخى فيها الحرص على الأصل الإنجليزى . غير أننا نلاحظ هنات لا شك أن بعضها قد يرجع إلى الخطأ المطبعى مثل قوله « قام فيه جوزيف أرش والعمال (الزراعيين) بدور لا ينسى » ، « بقى الأحرار (الراديكالين) كما نلاحظ أن عبارة « السفسطة الماركسية » الواردة فى صحيفة ١٨٩ لا تحمل المعنى الحقيقى . وفى الوقت الذى حرص فيه المترجم على استخدام الألفاظ مثل « الراديكالية » و « الراديكاليون » و « السندكانية » نراه يستخدم « التحررية » . وكنا نفضل عدم استخدام كلمة « الفدرال » سواء بأصلها الانجليزى أو الفرنسى وأن يضع لها مرادفاً عربياً . وفى رأينا أن عبارة « الشوفينية البحرية » كانت تتطلب إما تعبيراً بالعربية يؤدى معناها ، أو تفسيراً لها فى الهامش ، لصالح القارئ العادى . ومهما يكن من أمر فهذه كما قلنا « هنات » طفيفة لا تؤثر فى المجهود الضخم الذى بذل فى ترجمة الكتاب ، وهو مجهود خليق بأكبر الثناء .

د . راشد البراوى

جولة بين الكتب

المغتربون العرب فى أمريكا الشمالية
تأليف : الدكتور جورج طعمه .
الناشر : المؤلف ١٥٠ ص ١٤ × ١٧ ث ٧٥ ق.س

دراسة تحليلية للمغتربين العرب فى العالم الجديد ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، استفاد المؤلف من خبرته الشخصية وعلاقاته مع المهجريين لمدة تزيد على عشر سنوات . وقد عالج المؤلف فى هذا الكتاب معنى الهجرة والآراء المختلفة إزاءها وجنسية المغتربين ، هل نعتبرهم سوريين أم سوريين ولبنانيين أم عرباً ، ودوافع الهجرة ومراحلها ، ثم النشاط الصحفى والأدبى للمغتربين ، والخدمات الجليلة التى أدوها للسياسة العربية والأدب العربى ، ثم اقتراح بتنظيم علاقات المغتربين بالوطن الأم بما فيه خير للجميع .

●

القضبان
تأليف : محمد جلال .
الناشر : دار القلم ٢٢٤ ص ١٤ × ٢٠ ث ١٥ قرشاً

رواية تتناول مرحلة من نضالنا الوطنى ، هى مرحلة الحرب العالمية الثانية وتصور التحالف الذى كان ناشئاً فى ذلك الوقت بين الاستعمار البريطانى والطبقة الاقطاعية العميلة وموقف الشعب إزاء هذا التحالف . من خلال ما كان يجرى فى قرية مصرية صغيرة يتحكم فيها باشا اقطاعى ، اعتدى على شرف بنات القرية ، حتى يرضى سادته من المصريين والانجليز على السواء . ... ثم لاقى فى النهاية مصيره المحتوم .

●

تحت سماء الأندلس
تأليف : زكى قنصل .
الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومى بسورية ٦٥ ص ١٧ × ٢٤ ث ٧٥ ق.س

مسرحية فى أربعة فصول للأديب المهجرى زكى قنصل ، استقى أحداثها من فتح العرب للأندلس فى القرن الثامن الميلادى .



البيان القومى الثورى

صدر هذا الكتاب منذ حوالى شهرين فى أربعمائة وخمسين صفحة تحت عنوان « البيان القومى الثورى : أساس مقترح لميثاق الحركة العربية الواحدة » ؛ وذلك على أساس أن يصدر المؤلف بعده الكتاب الثانى الذى يعتبره تتمة لكتابه الأول . . والذى سيصدر تحت نفس العنوان ؛ وإن كان الكتاب الثانى سيصبح « مشروعاً » مقترحاً لميثاق الحركة العربية الواحدة بعد أن وضع الكتاب الأول « أساس » هذا الميثاق .

ومؤلف الكتاب – الأستاذ عبدالله الريماوى – واحد من الجيل العربى الشاب الثائر الذى تمرد « بعروبته » على التبعية المطلقة العمياء لنظرية أو أخرى من النظريات المستوردة التى تريد أن تصوغ النتائج على قدر ما اعتسفته من مقدمات . أو التى تفسر حركة التاريخ وارتقاء الإنسان بأساليب « معملية » ! لا ترى فى الكون أكثر من أنه مادة كيميائية تخضع لمثل ما تخضع له المعادن للتحليل ؛ أو التى تسبح فى متاهات « كونية » فلسفية وكأنها لم تخلق لبنى الأرض ! . .

ومن ثم فإن الأستاذ عبدالله الريماوى يهدف بكتابه هذا إلى أن يبدأ انطلاقة فكرية ثورية بين الشباب العربى الثائر لكى يخرج نظرية ثورية عربية .. تكون نظرية للثائر العربى أينما كان فى حدود الوطن العربى وتصلح عناصرها الأساسية أيضاً للعالم الثالث : هذه النظرية التى أسماها بـ « النظرية الحركية الحياتية الإنسانية » .

وقبل أن نمضى فى عرض أساس هذه النظرية الذى هو موضوع الكتاب نشير – مجرد إشارة – إلى أن المؤلف تعمد – فيما يبدو – إلى أن يجعل عنوان كتابه « البيان القومى الثورى » The national revolutionary manifest. على غرار « المانيفستو » الذى يعتبر دليل العمل الثورى الشيوعى على أساس النظرية الماركسية . ولعله فى هذا يقصد إلى أن يلفت أنظار المثقفين هنا فى الوطن العربى . . والمثقفين فى العالم الثالث باستخدامه للفظة كثر الحديث عنها وترديدها بحيث أصبحت فى حد ذاتها – بصرف النظر عن مضمونها – تصلح لأن تكون عنواناً لأى نظرية ثورية . . ولعله أيضاً يريد أن يؤكد أن الفكر العربى الثورى قادر – بواقع من تجاربه وفهمه وتراثه وتاريخه – على أن يقدم للثوار « مانيفستو آخر . . عربى الوجه والأعصاب والدماء .

* * *

تأليف : عبد الله محمد الريمادى

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

عدد الصفحات ٤٥٠ ص ١٧×٢٤ سم

والكتاب ينقسم إلى بابين كبيرين يندرج تحت كل باب منهما عدد من الفصول . . ويختص الباب الأول الذى يبلغ مائة واثنتين وستين صفحة بالتحليل التاريخى بينما يختص الباب الثانى الذى ينتهى بنهاية الكتاب : بالاستقراء العقائدى الذى يحدد فيه المؤلف عناصر نظريته الثورية الجديدة : النظرية الحركية الحياتية الإنسانية .

— . . . وفى الفصل الأول من الباب الأول نقرأ ما يمكن أن نعتبره مقدمة للكتاب يتحدث فيها المؤلف عن هذه المرحلة من حياة الأمة العربية حديثاً يستند إلى منطق ثورى يواكب مرحلة التحول الثورى التى تعيشها هذه الأمة ، ويساند هذه المرحلة الحاسمة التى تتطلع فيها هذه الأمة إلى تحقيق « الدولة العربية الاشتراكية الديموقراطية » الواحدة . . . « التى يتحقق بها وفيها تحرير الوطن والأمة والمواطن من الاستعمار والتجزئة والاستغلال والاغتصاب والتخلف » . . والتى يتحتم فيها أن تندفع الإرادة العربية الثورية الكبرى لهزيمة « القوى العالمية الاستعمارية الصهيونية الرجعية » . . ولقطع الطريق على « القوة العالمية الشيوعية » التى تسعى جاهدة لكى تنحرف بالإرادة الثورية العربية عن هويتها وعقيدتها وقيمها الأصيلة . فى الوقت الذى نجد فيه « أن مقومات الثورة العربية الواحدة ودعامات التغيير الثورى القومى الشامل ؛ من عقيدة وتنظيم وتخطيط ، مقصرة تقصيراً بيناً عن مقتضيات الثورة والمرحلة والمعركة » ، بالرغم من أن التغيير الثورى يسير سيراً علمياً على طريق التحول الثورى الاقتصادى فى الجمهورية العربية المتحدة ، ويأخذ طريقه فى وجه صعوبات ضخمة فى الجزائر ، ويحاول أن يتلمس طريقه فى العراق ويثبت دعائمه الأولية فى اليمن .

هناك إذن حاجة ماسة إلى نظرية ثورية عربية أصيلة تحدد الهدف وترسم الطريق بمنطق من التحليل النظرى والتجربة الواقعية المستندة إلى استقراء عقائدى . . ومن هنا ؛ كان لا بد أولا من القيام بعملية تحليل تاريخى للنضال القومى العربى فى جميع أبعاده ومجالاته ؛ بمعنى إعادة كتابة تاريخ النضال القومى العربى على أسس جديدة من الموضوعية والثورية سواء فى نطاقه القومى أو ضمن سياق التطور العالمى . والحق ؛ أن التحليل التاريخى الذى استغرق من المؤلف أحد بابى الكتاب ؛ كان موفقاً إلى حد بعيد فى إبراز « السمات العربية المشتركة » لهذه الحركة النضالية العربية فى حدود الأمة العربية . . ونطاق الأوطان العربية المختلفة وعلى أساس من الفهم للواقع العربى بحقائقه وتناقضاته وما تتصارع فيه من قوى ومصالح وعقائد . .

وإذا كان المؤلف قد ركز تحليله التاريخى فى الفترة التى تبدأ بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ باعتبارها الثورة العربية الرائدة والأم ؛ فإنه قد أوضح فى جانب كبير من صفحات هذا البـاب حقيقة الانصهار البشرى الحضارى الحياتى المادى والروحى والتراثى الذى تكونت به الأمة العربية القائمة فى وطنها الكبير ، أمة واحدة تمتلك جميع مقومات الأمة وعناصر قوميتها . فهو يشير إلى الموجات البشرية التى عبرت من بلد إلى آخر من بلاد الوطن العربى ، وإلى تاريخ الحضارات القديمة التى قامت فى بلاد هذا الوطن كحضارات وادى النيل أو ما يبين النهرين أو بلاد الشام وقرطاجنة وشمال أفريقيا أو حضارات اليمن . . ويرى أن دراسة هذا التاريخ يؤكد أن مصر بالذات بحكم موقعها . . كانت دوماً تعيش تفاعل المنطقة الشامل مؤثرة فيها ومتأثرة بها بشكل مستمر ومتميز الأمر الذى يزداد وضوحاً وتأكيداً فى العصور التى تلت الفتح العربى الذى أكد انصهار هـذه الشعوب بوحدة اللغة والوطن والتراث والحضارة وبوحدة الحياة والكفاح ، بل وبوحدة الدولة طيلة قرون عديدة . . . إنصهاراً كاملا . وبهذا الانصهار البشرى الحضارى الحياتى : المادى والروحى والتراثى ؛ تكونت الأمة العربية القائمة فى وطنها الكبير ، أمة واحدة تملك — منذ ذلك التاريخ — جميع مقومات الأمة وعناصر قوميتها .

كذلك يشير المؤلف إلى المسئوليات الحاسمة والمشتركة لصالح المنطقة والحضارة الإنسانية دفاعاً عن وطنها وحفاظاً على وجودها القومى وحماية لتراثها الحضارى . ابتداء من صد موجات الغزو الأوروبى

التى جاءت مستترة وراء صليب المسيح وصولا إلى ر غزوات التتار وتعاونها فى صد الغزو العثمانى الذى تمكن فى النهاية من نشر الظلام على المنطقة العربية بأسرها دون أن ينجح فى القضاء على قوميتهـــا العربية وتراثها بالرغم من حملات « التتريك » الرهيبة . .

وفى تحليله التاريخى . . يخلص المؤلف إلى ثلاث حقائق هامة : أولها — أن الانصهار البشرى لهذه المنطقة العربية يتحدى « النظرية المادية التاريخية » التى تفسر نشوء الأمم والقوميات بأنه وليد نشوء علاقات الإنتاج البورجوازية وقيام سوقها . وثانيها — أن الصراع الطبقى حقيقة قائمة وراء دفع حركة الحياة والتاريخ والتطور وأن النزوع القومى لدى شعوب هذه المنطقة ؛ عامل أساسى فى دفع حركة الحياة والتاريخ والتطور إلى جانب عامل الصراع الطبقى . وثالثها — أن جذور النضال القومى فى الأمة العربية وجدت طريقها إلى الحياة والنور قبل قيام الغزو الرأسمالى الاستعمارى الأوربى .

ولعل فى هذا الجانب من التحليل التاريخى ما يذكرنا بما ورد فى « الميثاق الوطنى » عندما استعرض الرئيس جمال عبد الناصر التاريخ المشترك لشعوب المنطقة العربية ليؤكد فى النهاية أن الماضى كان مشتركاً وأن الحاضر مشترك أيضاً . . وأن المستقبل لا بد وأن يكون — مصيرياً — مشتركاً كذلك .

وأبرز ما أورده المؤلف فى هذا الجانب من التحليل التاريخى هو أنه أكد أن طبيعة الصراع والتناقضات فى الوطن العربى تختلف اختلافاً جوهرياً عن مثيلتها فى أوروبا . . الأمر الذى يؤكد بالتالى أنه لا يمكن أن نطبق « نظرية ثورية » غريبة عن تاريخنا وواقعنا . . نظرية قامت على أساس من التحليل لتــاريخ وواقع يختلف اختلافاً بيناً عن تاريخ الأمة العربية وواقعها . وهو يمضى فى تحليله التاريخى إلى ما قبل ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ مباشرة ليؤكد هذه الحقيقــة وليخلص فى النهاية إلى أن عوامل « الثورة فى العالم الثالث » . . المتخلف المستعمر . . تحولت بالحرب العالمية الثانية وبنتائجها — إلى قوة صامدة تجسم بالعقيدة والقيم والنهج حلا إنسانياً جديداً : متناقضاً مع الرأسمالية والاستعمار ؛ متبايناً مع الشيوعية الدولية ؛ يرفض بحزم وبنجاح الإحراج الثنائى الذى واجهت به هاتان القوتان الدوليتان الكبيرتان الإنسان والأمم قاطبة . خاصة وقد فشلت جميعها فى أن تثبت وجودها فى المنطقة لأنها عجزت كلها عن تحليل الواقع العربى والتاريخ العربى .

* * *

— إن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، كانت قمينة بأن يفرد لها المؤلف فصلا كاملا من كتابه باعتبارها « الثورة العربية الأم » . . فى الثورة القومية العربية الشاملة . وباعتبار أنها كانت نتيجة تطور تاريخى عربى طويل ونضال جماهيرى عربى مشترك وأصيل . . ومن ثم ينبغى أن ينظر إلى هذه الثورة باعتبارها ثورة « وحدوية اشتراكية ديموقراطية » هى طليعة الثورة العربية الواحدة .

ومن واقع التقييم الصادق لهذه الثورة فى كل ما خاضته من معارك — بالداخل لتأمين سلامتها باعتباره « النواة » ؛ وبالخارج فى حدود الوطن العربى الكبير ؛ تتضح الحقيقة الكبرى : إن المد القومى الثورى العربى وهو يواصل زحفه فى معركة التحرر من الاستعمار ؛ تمكن أن يسير صاعداً وصامداً نحو هدف « الوحدة العربية » وعلى طريق بناء المجتمع الاشتراكى الديموقراطى كمحتوى حتمى لهـــا .

ولقد كانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ صادقة مع شعار « الوحدة » حتى قبل أن تتحقق الوحدة بين مصر وسوريا فى سنة ١٩٥٨ : كانت أمينة وصادقة يوم عبرت كتائب الجيش العربى المصرى مياه البحر الأبيض لتأخذ مواقعها مع الشعب العربى فى سوريا وجيشه أمام زحف التحالف الاستعمارى تحت لواء مشروع ايزنهاور . وكانت أمينة وصادقة يوم أعلنت ميلاد الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ . . وكانت أمينة وصادقة يوم مدت يداً قوية تساند ثورة ١٤ يوليو « تموز » سنة ١٩٥٨ بالعراق . . ويوم واجهت الانحراف الانفصالى الشعوبى على هذه الثورة . . وكانت أمينــة وصادقة يوم ساندت ثورة اليمن فى سبتمبر سنة ١٩٦٢ ؛ كانت أمينة وصادقة فى هذا كله والمد القومى الثورى العربى يدعمها وهو يواصل الزحف فى معركة التحرر من الاستعمار ابتداء من ثورة الجزائر . . وانتهاء بثورة اليمن . ولقد تمكن هذا المد القومى الثورى العربى من أن يعرى عهود الانعزال عن تياره القومى الثورى : التحررى الوحدوى الاشتراكى الديموقراطى وأن يعزلها عن الجماهير فى كل قطر عربى مهما كانت الأقنعة التى تختفى وراء هذه العهود أو الأسلحة التى تشهرها .

وهذا المد القومى الثورى العربى — ومصر الثورة بمكان القاعدة ومركز الطليعة فيه — لم تنحصر آثاره وفعالياته ضمن نطاق حدود الوطن العربى . . فلقد أسهم فى المعركة الإنسانية الشاملة المعاصرة معركة الشعوب : من أجل التحرر من الاستعمار والاستغلال وقهرهما على النطاق الإنسانى ، ومن أجل إرساء قواعد السلم العالمى ، وفى سبيل إقامة العلاقات الدولية على أسس جديدة ، متحررة من الاستعمار

ومناطق النفوذ وتحترم حقوق الأمم فى تقرير مصائرها وصنع حياتها وحضارتها دون تدخل أو قهر أجنبى مهما كان أساسه أو مبرره المادى أو العقائدى .

— من هنا ؛ فإن « المد القومى الثورى العربى » جعل من « الإرادة القومية الثورية العربية » قوة ذاتية جديدة أصبحت هى القوة التى تصنع قدر أمتها مستقلة تماماً على الصعيد الدولى .. نموذجاً حياً لتجربة « الأمة الواحدة » ذات التراث المشترك الواحد .. تجربة القوى العربية العاملة فى نضالها من أجل تحقيق هدف واحد : هو « الوحدة » مضموناً ومصيراً وقوة وطريقاً . وهى تجربة ثورية أصيلة واحدة ترفض رفضاً علمياً قاطعاً تجزئتها وتفتيتها إلى تجارب ثورية متعددة سواء أكان ذلك « بالإقليمية » المقنعة بالثورية الوطنية ؛ أو «بالحزبية» المقنعة بالواقعية القطرية : وهى لا تنطلق من لا شىء ولا تدور فى فراغ ولا تعانى عقد الاستعلاء أو النقص . . وهى تجد أن الثورة ضرورة وحتمية مصيرية « لا بد لها » من « نظرية ثورية » تحدد للثورة مبادئها وقيمها وأهدافها وخلقيتها، وتكون دليلا للعمل الثورى وسلاحاً بيد قواه فى تحليل الواقع ووعى التناقضات ورسم المناهج لحلها . . « ولا بد لها » من «قوى اجتماعية ثورية » تتضح مصلحتها الإنسانية فى تغيير الواقع القائم وحل التناقضات القائمة فيه . . « ولا بد لها » من « حركة ثورية منظمة » تكون أداة الثورة فى انطلاقها على طريق التغيير الثورى الطويل .. « ولا بد لها » من « عمل ثورى متواصل » يحدد أهدافاً مرحلية للثورة ... « ولا بد لها » من « تقييم ثورى متواصل » للعمل والمناهج والتجربة فى ضوء النظرية :

هى إذن مقومات خمسة « لا بد » أن يستند إليها عمل القوى العربية الثورية لتؤكد شعار : « ثورة عربية واحدة — بحركة عربية ثورية واحدة » . وإذا ما وعت طلائع المد القومى الثورى العربى ذلك كله ؛ فإنها لن تدرك فحسب ضرورة إعلان نظريتها الثورية الجديدة ، وإنما ستدرك أيضاً مدى قدرتها على الإسهام فى أداء هذه المهمة ومدى مسئوليتها القومية والإنسانية فى أدائها .

بعد أن ينتهى المؤلف من تحليله التاريخى الذى استغرق منه الباب الأول من الكتاب : يخصص الباب الثانى كله لعملية الاستقراء العقائدى التى ينتهى منها إلى أسس أربعة تستند إليها نظريته الثورية الجديدة التى أسماها « النظرية الحركية الحياتية الإنسانية » . . هذه الأسس هى :

أولا — « مبدأ القومية » . . وسنه النزوع القومى .

ثانياً — « مبدأ الاشتراكية » . . . وسنة الصراع الطبقى .

ثالثاً — « مبدأ الديموقراطية » . . وسنة الكفاح الديموقراطى .

رابعاً — « مبدأ العقلانية — العلمية » وسنة النضال العقلانى العلمى .

وموضوع البحث لاستخلاص هذه المبادئ عند المؤلف هو : « الإنسان » بعد تعريفه وتقييمه واستيعاب تجربته الاجتماعية الحضارية التاريخية .

— فالإنسان أولا — كائن حى ، عاقل ، منتج ؛ ذو قلب وخيال ، صاحب إرادة ؛ تراثى حضارى اجتماعى . ومن هذا التعريف نستطيع أن نضع الأساس لفهم العلاقات البشرية . . ولفهم علاقة الإنسان بأرضه .

— والإنسان ثانياً — يعيش فى مجتمع . . واجتماعية الإنسان « ليست » قطعانية تجمعية حيوانية ، « وليست » اتفاقية يعقدها أفراد الجماعة أو المجتمع فيما بينهم لغرض معين يجمعهم . . «وليست» أيضاً تجسيماً لعلاقات وفعاليات تقوم بين الناس بسبب ضرورة توفير متطلبات مقوم (واحد) من مقومات إنسانية الإنسان ، كالمقوم المادى أو العقلى أو الروحى .

اجتماعية الإنسان : هى تجسيم لعلاقات وفعاليات مركبة يقوم المجتمع بها وتقوم هى فى المجتمع بين « الإنسان » كشخصية إنسانية حية متكاملة وهو « يلتقى » فى هذا المجتمع مع « الإنسان الآخر » كشخصية إنسانية حية متكاملة أخرى أيضاً . . شخصية غير مجردة .

— والإنسان ثالثاً — يتميز بأن له تاريخاً اجتماعياً حضارياً يصنعه ويتفاعل فيه تراث الماضى مع آمال المستقبل لتسهم فى صنع الحاضر .

ومن أجل أن نقيم نظرية ثورية من أجل هذا الإنسان ؛ ينبغى أولا أن نقيم نظرية تاريخية تفرق بين « حركة حياة الإنسان فى مجتمعه » وبين ركام التطورات والتغييرات والأحداث التى تعرف « بالتأريخ » الذى هو مجرد سرد الأحداث والوقائع . . وينبغى أن تبتعد عن التيارات العامة الثلاثة التى جرى الاعتماد عليها فى وضع النظرية التاريخية وهى :

١ — التيار التفسيرى الذى يستند إلى المثالية .

٢ — التيار التغييرى الذى يستند إلى المـــادية .

٣ — التيار الوجودى الذى يستند إلى الوجودية .

فهذه كلها تبدأ تقييم الإنسان والمجتمع والحياة من منطلقات خاطئة ضيقة وبصيغ متحيزة ومضللة . ومن ثم ينبغى على النظرية التاريخية التى تستند إليها النظرية الثورية ... ينبغى عليها أن تقوم على أساس من تفسير يحقق الوعى بحقيقة الإنسان ، ومن تقييم يحدد هدف الإنسان ونهجه ، ومن وسيلة لإحداث التغيير على ضوء من الهدف ، ومن سلاح بيد إرادة التقدم وقوى التغيير فى إعادة صنع الحياة . .

وإذا كان المؤلف قد اتفق مع « المفهوم الحركى الجدلى » للطبيعة والحياة والتاريخ ؛ فقد أوضح من الوجه المقابل . . أن العلم والتجربة ذاتهما قد أثبتا أن

« الحركة » التاريخية لا يجوز أن تضللنا فى استعمالها بحيث نرى لها مضموناً واحداً ونحن نستخدمها فى أكثر من مجال ومستوى من مجالات ومستويات الوجود الحى والعاقل وغير الحى !

ومن ثم فهو يرفض « المادية الجدلية » لأنها تنطلق من فرضية فلسفية غيبية ، ويرفض الحركة الجدلية بمفهومها وأساسها الماركسى . . لأنها تزعم الحتمية لقوانينها « العلمية ! » بينما أحداث التاريخ تجئ مختلفة عما « تنبأت » به .

والمؤلف هنا يهاجم بعنف كل نظرية تدعى « الحتمية » المحددة المتعسفة ؛ فليس من « العلم » فى شىء أن تدعى الوصول إلى حتميات فى مجال الحيـاة الإنسانية على أساس من جعل التاريخ علماً مثل العلوم الطبيعية أو المعملية !

— من هنا ينطلق المؤلف إلى عرض نظرية « الحركة الحياتية الإنسانية » . . النظرية التى يصفها بأنها شاملة وغير مطلقة لأنها حياتية إنسانية : تستمد شمولها من شمول مقومات الإنسان فى النوع الإنسانى . وينبع إطلاقها من تقييم يدرك إمكانيات الإبداع الإنسانى التى تتحدى فى صنع حياة الإنسان وتجربته الحضارية التاريخية . . كل إطلاق .

. . و « موضوع » النظرية الحركية الحياتية الإنسانية هو « حركة التطور والتغيير التى تصيب حياة الإنسان فى مجتمعه » عبر تاريخه . و « منهجها » هو « النهج العلمى القـائم على الملاحظة والتحليل والاستقراء .

من هنا فإن « حياة الإنسان » هى « الظاهرة المنطلق » التى تبتدئ من عندها النظرية . حياة الإنسان منذ نشوء النوع الإنسانى نوعاً متميزاً عن بقية الأحياء تميزاً كيفياً .

والمؤلف هنا « يؤكد على ضرورة تحديد العناصر التى تبقى ثابتة غير متغيرة فى هذه الظاهرة » من أجل الوصول إلى حل لمسألة العلاقة بين التاريخين الطبيعى والاجتماعى الحضارى الإنسانى . وهو يصل فى نهاية هذا التحديد إلى نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأساس نظرية وهى :

أولا — ليست حركة التاريخ الطبيعى عاملا من عوامل حركة التاريخ الحضارى الإنســانى .

ثانياً : إن أثر التاريخ الاجتماعى الحضارى فى التاريخ الطبيعى أثر متزايد .

وهاتان النتيجتان بالغتا الأهمية فى تحديد طبيعة الأسس التى تنبنى عليها المبادئ الأربعة التى تشكل قوام نظرية المؤلف ومضمونها :

المبدأ الأول — مبدأ القومية :

والمؤلف صاحب النظرية يؤكد فى استقراء تاريخى وعقائدى معاً أن « الإنسان » فى تطوره الحياتى الحضارى عبر مرحلتين هامتين هما مرحلة نشوء الأمم وقومياتها ؛ ومرحلة استقرار الأمم وقومياتها . والمرحلة الأولى (نشوء الأمم وقومياتها) تبتدئ بحركة تكون الجماعات البشرية الأولى وتطورها وتفاعلها منذ أقدم عصور الوحشية والبربرية وتسير مع تلك الجماعات عبر عصور الحضارة لتبلغ بعد قرون طويلة مرتبة الأمم ، فهى تشمل حركة نشوء وتكون وتطور . اللغة ؛ والوطن ؛ والتراث ، والحياة المادية والعقلية والروحية المشتركة لهذه الجماعات . ابتداء من تكون الأسرة ثم العشيرة ثم تفاعل العشائر بالهجرة والنزوح والفتح والتزاوج والتمازج إلى مجتمعات أعقد تركيباً تصل فى النهاية إلى مرتبة الأمم .

وعلى أساس استقراء المؤلف ؛ فإنه يهاجم بعنف « المادية التاريخية » فى تفسيرها لنشوء الأمم وقومياتها تفسيراً كليـاً يربطه « بنشـوء » العلاقات البورجوازية وقيام سوقها . . . وهو يرفض هذا التفسير ويصفه بأنه « غير علمى » ينقصه الواقع والتاريخ فى إطلاقه ثم يقول : « إذا صح (هذا التفسير) فى أوروبا الحديثة ؛ فإنه لا يصح فى الأمم الأقدم والأعرق التى نشأت وتكونت دون أن تبلغ مرحلة العلاقات البورجوازية ؛ ولا يصح كذلك فى الأمم الإفريقية التى تتكون اليوم دون أن تعبر — أثنـاء تكونها القومى — بمرحلة البورجوازية وعلاقاتها وسوقها ؛ وإنما هى تتخطى هذه المراحل كلها إلى مرحلة الاشتراكية مباشرة » .

والحق ؛ أن المؤلف صاحب النظرية كان بالغاً حد الدقة فى حديثه عن القومية باعتبارها « سنة » إنسانية ينزع إليها الإنسان فى تركيباته الحضارية المركبة المعقدة . . بعكس ما يدعيه الماركسيون من أن القومية ليست سوى أسلوباً بورجوازياً للسيطرة ! . . وهو يشير فى هذا الصدد إلى أن الحركات الرأسمالية والإمبراطوريات التى أقيمت تحت أعلام الاستعمار لم تنجح فى محو مقومات الأمم ذات القوميات . . وإلى أن الحركة الشيوعية رغم وحده العقيدة المـاركسية اللينينية ووحدة الراية العالمية البروليتارية العالمية ، فشلت هى الأخرى فى أن تتخطى الوجود القومى للأمم التى انتصرت فيها. على الرغم من التركيز الأيديولوجى المخطط المتواصل على محاربة القومية وتجريحها . . « ذلك أن الوجود القومى . . والنزوع القومى هما صيغة الوجود الاجتماعى الإنسانى الباقى ما بقى الإنسان حياً » . . فهما سنة ملازمة له .

ولعل من أهم ما أومأ إليه المؤلف صاحب النظرية فى هذا الصدد ، هو أن « دعوة تخطى القومية تحت شعار وحدة

البروليتاريا العالمية . أصبحت — كما هو واضح اليوم — عائقاً أمام حركة الثورة التحررية الاشتراكية العالمية وسبباً في تفتيت جبهتها . وأنه لا بد أن يدرك الاشتراكيون مكان المبدأ القومي من حركة التاريخ والثورة وفي إنسانية الإنسان وحياته ؛ فيعترفوا بجميع النتائج العقائدية والحركية التي تترتب على ذلك الإدراك » .

المبدأ الثاني — مبدأ الاشتراكية :

وهو كما يعرضه المؤلف صاحب النظرية : يشمل ويركز « منطق التاريخ » تجاه مسألة تكون الجماعات — فالمجتمعات البشرية — وتطورها وتغيرها من زاوية محتواها المادي — الإنتاجي . وما ينطوي عليه هذا المحتوى من فعاليات وعلاقات وتفاعلات وصراعات ومن مصالح ونظم وقيم ؛ تقوم في المجتمع بين الإنسان والطبيعة والإنسان الآخر .

ويرى المؤلف أن مسيرة الإنسان التاريخية على طريق الاشتراكية — أي نحو المجتمعات اللاطبقية المتقدمة ، مجتمعات الكفاية بالعدل — هي مسيرة بطول تاريخ الإنسان يمكن تصنيفها — بالملاحظة — إلى ثلاث مراحل متتالية متميزة بعضها عن البعض تميزاً كيفياً وهي :

مرحلة اللاطبقية البدائية . . أي مرحلة الشيوع .

مرحلة الطبقية والصراع الطبقي . . أي مرحلة الاستغلال .

مرحلة اللاطبقية المتقدمة . . أي مرحلة الاشتراكية .

وهي ثلاث مراحل أساسية ورئيسية يمكن أن ينقسم كل واحد منها إلى مراحل فرعية . وعملية التتبع التاريخي لهذه المراحل تكشف حقيقتين هامتين :

أولا — أن كل المجتمعات البشرية « لا بد » وأن تمر بهذه المراحل الثلاثة الأساسية .

ثانياً — أنه « ليس حتمياً » أن تمر كل المجتمعات البشرية بالمراحل الفرعية التي تنقسم إليها مرحلة الاستغلال . . قبل أن تنتقل إلى مرحلة الاشتراكية . وأنه — أيضاً — « ليس حتماً » أن يتحقق هذا الانتقال بحركات متماثلة في جميع أبعادها بالنسبة لجميع المجتمعات في جميع العصور .

وهذه الحقيقة الثانية ؛ بالغة الأهمية في معارضة النظرية الماركسية التي ترى ضرورة انتقال المجتمعات البشرية بكل المراحل الفرعية قبل أن تصل إلى مرحلة الاشتراكية . . ومن ثم فإنه ليس حتماً — لكي يأخذ مجتمع بشرى ما بالحل الاشتراكي — أن يمر أولا بكل درجات مرحلة الاستغلال : كالإقطاع فالبورجوازية فالرأسمالية والاستعمارية الامبريالية !

كذلك فإنه من الأهمية بمكان أن نشير — كما يرى المؤلف — إلى أن المرحلة الثالثة الرئيسية « مرحلة الاشتراكية » تنقسم هي الأخرى إلى مراحل فرعية تمر بها في تقدمها المتواصل نحو آفاق لامتناهية في الكفاية بالعدل في المجتمعات اللاطبقية .

وفي مرحلة الاشتراكية ينبغي أن تتحقق عدة مبادئ :

— مبدأ إحلال الملكية العامة لوسائل الإنتاج ومصادر الثروة محل الملكية الخاصة .

— مبدأ إحلال إشباع حاجات المجتمع من سلع وخدمات محل الربح كهدف لهذه العملية (الكفاية) .

— مبدأ التوزيع العادل للإنتاج بين أفراد المجتمع (العدل) .

والمؤلف صاحب النظرية وإن كان يشيد « بالعبقرية الثورية الماركسية » في اكتشافها سنة « الصراع الطبقي » على جميع مراحل التطور الحياتي الحضاري فإنه يشير في الوقت نفسه إلى « الإثم الماركسي » الذي يجعل من سنة الصراع الطبقي « وحدها » مفسراً في كل تحليل لحركة التاريخ الحضاري الاجتماعي . وهنا يؤكد المؤلف على ضرورة اعتبار المبادئ الأربعة : سنة النزوع القومي ، وسنة الصراع الطبقي ، وسنة الكفاح الديموقراطي ، وسنة النزوع العقلاني . . عند كل تحليل لحركة التاريخ الحضاري الاجتماعي .

وينبغي أن يكون واضحاً أن « مبدأ الاشتراكية » في مضمون « النظرية الحركة الحياتية الإنسانية » :

— يرفض ويفضح الاتجاه الرجعي الذي يسم الاشتراكية بالإلحاد ويصفها بالتصادم مع الدين في جوهره وقيمه .

— كما يرفض ويفضح الاتجاه الإلحادي الذي يسم الإيمان الديني والدين في جوهره وقيمه بالرجعية أو بالتصادم مع الاشتراكية العلمية .

المبدأ الثالث — مبدأ الديموقراطية :

يؤكد المؤلف صاحب النظرية أن « الديموقراطية » بصرف النظر عن الكلمة ذاتها وعن مصدرها ؛ قضية قديمة قدم الإنسان نفسه . وإنها سمة ادعتها عبر التاريخ دول ونظم متناقضة الأسس والمضامين والقيم متباينة الأشكال والصور ، ومن استقراء المؤلف لمسيرة الإنسان في مجتمعه يرى أن المجتمعات البشرية مرت بمراحل رئيسية ثلاثة :

— مرحلة الديموقراطية البدائية . . مرحلة دولة سلطة « الشعب » ونظامها .

— مرحلة الديكتاتورية . . مرحلة دولة سلطة « الطبقة » ونظامها .

— مرحلة الديموقراطية الحضارية . مرحلة دولة سلطة « الشعب العامل » ونظامها .

ومن خلال هذا الاستقراء يؤكد المؤلف أن « الدولة » — بعكس ما يقوله الماركسيون — كانت دائماً وستظل ما بقي الإنسان ؛ ضرورة قائمة بصرف النظر عن التطورات والتغيرات في « النظام

السياسى » لها . باعتبار أن المشكلة الأساسية فى صدد الديموقراطية هى « المساواة » وجوداً وعدماً بين الناس فى الدولة ، أو « عدم التطابق » بين الدول – بأقاليمها ورعاياها – وبين الأمم أو الجماعات – بأوطانها وأبنائها . . . وباعتبار أن الكفاح الإنسانى فى حقيقته هو كفاح متجدد متواصل من أجل تحقيق تلك المساواة والتطابق، ومن أجل الوصول إلى « حرية الرأى والعمل » اللازمين لتحقيق تلك المساواة وهذا التطابق . ومن إغفال هذه الحقيقة وقعت العقيدة الشيوعية فى خطأ بالغ حين رأت « الحرية » . . حرية « ديكتاتورية طبقة البروليتاريا » فأبقت – بالتبعية – « عدم المساواة » بين الطبقات العاملة - ذاتها فى الدولة ، وأبقت « عدم التطابق » بين الدولة فى إقليمها والأمم فى أوطانها ، وأبقت كبت « حرية الرأى والعمل » بين الأحزاب الشيوعية نفسها وبين ظهرانى الطبقة العاملة - ذاتها . وكل ذلك يمارس تحت شعار بناء الاشتراكية .

وإذا كان الإنصاف يدعو المؤلف إلى أن يؤكد أن النظرية الماركسية فى هذا الصدد – بصراحتها العقائدية – قد فتحت أبواب التاريخ فسيحة لدخول الإنسان إلى عصر الاشتراكية وأكدت حتمية الحل الاشتراكى ، فإنه يشير فى الوقت نفسه إلى أنها أوصدت الأبواب أمام الديموقراطية . . فبقى على الكفاح الديموقراطى أن يؤكد حتمية الديموقراطية بتأكيد « الحل القومى – الاشتراكى – الديموقراطى » . . وبقى على « الديموقراطية الحضارية » أن تؤكد وجودها على أساس من دعامات هى :

– أسلوب اشتراكى فى الإنتاج يقيم المساواة والحرية الاجتماعيتين بين الأفراد .

– أسلوب من المساواة والحرية القوميتين بإقامة التطابق بين الدولة فى إقليمها والأمة فى وطنها .

– أسلوب من الحياة « العقلية – الروحية » الإنسانية ؛ يعى مقومات إنسانية البشر فى مجتمعاتهم ومتطلباتهم ككائنات حية منتجة ذات عقل وقلب وإرادة اجتماعية تراثية حضارية .

– أسلوب من النظام السياسى الديموقراطى تسير فيه الدولة – مع بقائها وبقاء السلطة بمؤسساتها وأجهزتها فيها – على طريق التخطيط والتنظيم والتنسيق للإنتاج والتوزيع والخدمات التى يصنع بها الشعب حياته على طريق التقدم الحضارى – المادى واللامادى – بغير حدود لخيره ولخير الإنسانية كلها .

المبدأ الرابع – مبدأ العقلانية – العلمية (العقلية – الروحية) :

وفيه يبدأ المؤلف صاحب النظرية بأن يؤكد أنه ليس من الجائز أو المجدى أن نأخذ فى استقرائنا لموضوع هذا البحث ، بمنهج يفصل بين « العقلية » وبين « الروحية » . . ذلك أن حياة الإنسان « العقلية – الروحية » فى طبيعتها ظاهرة فريدة فذة إنسانية اجتماعية . فلن نجد جماعة بشرية فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الإنسانى – مهما أوغلت فى بدائيتها – إلا ولها حياتها « العقلية – الروحية » التى تكون مقوماً أساسياً أولياً من مقومات هذه الجماعة . وفى هذا الصدد يرفض المؤلف صاحب النظرية بشدة الموقف « الماركسى » من الحياة « العقلية – الروحية » .. « فالمادية التاريخية » (الماركسية) تستند إلى المادة فحسب فى تفسيرها وتقييمها للإنسان والمجتمع والحياة والتاريخ على أساس يصفه المؤلف بأنه « يدوى إنتاجى طبقى » يؤكد الإلحاد « كموقف عقائدى حركى ضرورى للثورة وللثوار لازم لصنع التقدم ولبناء الاشتراكية » . . . ويؤكد – خلافاً لما تثبته التجربة الإنسانية الاجتماعية الحضارية – أن الإيمان الدينى هو فى كل عصر فى الجوهر والنتيجة « أفيون الشعوب » ! ويؤكد أن كل القيم الروحية والجمالية الفنية ليست سوى « وسائل » للسيطرة الطبقية ! . . الأمر الذى أدى إلى أن تواجه « الماركسية » بعد الحرب العالمية الثانية مجموعة من التحديات فى هذا الصدد ألجأتها إلى تفسيرات ومراجعات وتغييرات وتطويرات، الحد الذى « قصم ظهر الماركسية والماركسية اللينينية » كفلسفة شاملة وكنظرية تاريخية مشتقة منها .

ومن هنا ؛ فإن « العصر » يطالب بميلاد نظرية علمية ثورية جديدة تتخطى الماركسية . . والماركسية اللينينية – وبصفة خاصة فى الموقف من الحياة « العقلية – الروحية » وفيما يترتب عليها من نتائج نظرية وتطبيقية .

* * *

هكذا . . وبعد استقراء تاريخى وعقائدى جاد وطويل يصل المؤلف صاحب النظرية – الأستاذ عبدالله الريماوى – إلى وضع الأساس لنظريته « الحركية الحياتية الإنسانية » على أساس من منطق التاريخ الذى . . .

ليس منطق الغيبى أو اليوجى ،

وليس منطق المستعمر أو الرأسمالى ،

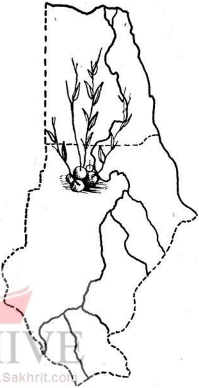
وليس منطق الكوميسار أو البروليتارى . . .

لأنه . . . منطق الإنسان .

* * *

إن كتاب « البيان القومى الثورى » – أساس مقترح لميثاق الحركة العربية الواحدة ، يعتبر بحق عملا عقائدياً ثورياً عربياً أصيلا . . يشكل فى حد ذاته محاولة مخلصة ورائدة فى مجال وضع « النظرية الثورية العربية » أساساً للعمل الثورى العربى الواحد . . . كما يشكل أيضاً دعوة مخلصة إلى المفكرين العقائديين العرب لكى يسهموا فى المشاركة فى وضع هذا الأساس . . . الضرورى واللازم للثائر العربى فى كل أرجاء الوطن العربى الكبير .

سعد زغلول نصار



العلاقات الاقتصادية
بين
مصر والسودان

قديماً قال أبو التاريخ هيرودوت :

« إنه قد نزل وحى سماوى من الملأ الأعلى على هيكل آمون المقدس يرتل : أن مصر قد تشمل كل الأرض التى يجرى فيها « حاعبى » (أى النيل) أو يرويها . وأن المصريين هم الأمة التى تشرب مياه النيل » .

وهيرودوت فى قولته هذه ، وإن قال بعض الحقيقة ، فانه لم يقلها كلها . ففى رأينا أن النيل وحده ليس هو الرابط بين جزئى البلدين وإنما هناك روابط أخرى لا نستطيع أن نغفلها فى معرض حديثنا عن هذه الروابط :

تأليف : الدكتور فيليب رفله

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية
١٧٩ ص ١٧ × ٢٤ سم الثمن ٣٥ قرشا

— الوحدة الطبيعية التى أوجدتها وهيأتها يد الطبيعة .

— الوحدة الجغرافية التى قامت على تجانس طبيعة الأرض ، وما بها ، وما عليها ، وما تفيض به عليها وحدة الظواهر الجوية .

— وحدة الأصل بين السكان .

— وحدة التعبير والتفاهم .

— وحدة الدين إلى حد ما .

والواقع — كما يقول بذلك غالب المؤرخين والأنثروبولوجيين والجغرافيين — أنه لا يوجد بلد يمكن أن يتطلع إليه السودان ، كالبلد الواقع إلى شماله ، فاثيوبيا توليه ظهرها . وغرب السودان صحارى وأعشاب ، وجنوبه قبائل ما زالت تعيش فى جاهليتها الأولى . لا بد من الاتجاه إلى الشمال ، حيث انحدرت الحضارة على طول مجرى النيل ؛ ولهذا فان حوض النيل عالم قائم بذاته وبشعوبه ، وحضارته وإمكانياته .

وحتى الذين كان لهم فى وقت من الأوقات مصلحة فى فصل جنوب الوادى عن شماله ، اعترفوا بأنه كل لا يتجزأ . . تاريخاً ، وحضارة ، ولغة ، وجنساً . وهذا هو السير ونستون تشرشل يعترف بذلك حين قال : « إن هذا الوادى يشبه شجرة النخيل المثمرة تمتد جذورها فى قلب السودان ، وتطول جذوعها فى قلب النوبة ، ويتفرع جريدها وثمارها فى دلتا النيل . وان هذه النخلة إذا قطعت فى أى جزء منها فانها تموت وتتلاشى » .

والكتاب الذى بين أيدينا هو محاولة لاثبات هذه الصلة الوثيقة بين شطرى الوادى ، وهو — كما قال المؤلف فى تقدمته — جزء من بحث شامل لرسالة علمية حصل بها على درجة الدكتوراه ، وكان عنوان الرسالة « الحدود المصرية السودانية » .

معنى ذلك أن الكتاب يضم بين دفتيه الجذور التاريخية والاقتصادية للعلاقات بين مصر والسودان ، ويركز أساساً على منطقة النوبة ، التى يعتبرها معبراً ، أو جسراً يوصل بين شطرى الوادى . وإن عند هذا المعبر بدأت تلتقى الجماعات ، ويتصافح الأخوان ، وتتسرب الحضارة من مصر السفلى ، وتأتى التجارة من السودان وتذهب إليه ، ومعها تتكون حضارة هى مزاج بين الشمال والجنوب .

والفصل الأول من الكتاب دراسة للسكان فى منطقة النوبة ، أو المنطقة التى افتعلت فيها الحدود ؛ وهو يقول إن السكان من الناحية الأنثروبولوجية يشبه بعضهم بعضاً ، واعتمد لإثبات ذلك على باحثين متخصصين هما ، اليوت سميث وكتابه « المصريون القدماء وأصل الحضارة » ، وكذلك على كتاب Seligman « الأجناس الأفريقية » ؛

وبعد عرض مضمون هذين الكتابين يخلص المؤلف إلى أنه حيث توجد الحدود المصرية السودانية ، لا نجد ممراً جنسياً شمالا أو جنوباً . ولذلك فان الحدود المرسومة ليست حداً طبيعياً أو فاصلا جنسياً.

« فالتغير الجنسى والتغير الجغرافى لا وجود له . . لا فى بلاد النوبة ، ولا فيما جاورها من مناطق » .

إذن فمنطقة الحدود كانت منطقة اتصال وتعمير للسودان ، وهى منطقة عبرتها هجرات بشرية على جانب كبير من الأهمية . ثم إن النيل رغم جنادله وانحناءاته لم يمنع تدفق القبائل والحضارات . ورغم جفاف المنطقة ، فقد سكنها أقوام حول النهر ، أو بعيداً عنه . . حول الآبار والأودية .

ويسكن إقليم الحدود قبائل عريقة فى القدم تشترك بين مصر والسودان فى أوطانها . فالنوبيون يسكنون حول مجرى النيل فى كل بين مصر والسودان . والبجة يسكنون الهضاب حول الحدود ، وإلى جنوبها . ولهذا فان خط الحدود قطع عناصر

واحدة فى الأصل والثقافة ، وهم الحاميون فى النوبة وفى الصحراء الشرقية .

ومما يدل على الانتشار الجنسى عبر الحدود أن قبيلة الجعافرة ، وهى بطن من بطون بنى هلال ، تسكن المنطقة بين قوص وأسوان . وانتشرت بعض عناصرها إلى بلاد المحس ، كما أن لهم شعبة فى كردفان .



ومن ناحية العلاقات الاقتصادية بين مصر والسودان ، عقد المؤلف فصلا شائقاً ، مدعماً بالأدلة والبراهين ، ذكر فيه أن هذه العلاقات وثيقة وتاريخية وأصيلة . وقد ذكر أنه من الممكن أن تزيد العلاقات نمواً ، لأن مصر تنتج إنتاجاً مخالفاً لمنتجات السودان . . باستثناء محصول القطن .

فمصر ضربت فى ميدان الصناعة بسهم وافر ، بينما السودان يفتقر إلى هذه المصنوعات فى الوقت الذى تتضخم فيه طاقة السودان الزراعية والحيوانية .

ومن هنا يمكن أن ينشأ بين البلدين تكامل اقتصادى . . إذا ما توفرت الظروف وعقدت الاتفاقيات ، وتم التعاون الكامل الشامل .

لكن المؤلف يذكر أن تخطيط الحدود بين مصر والسودان قد أثر فى العلاقات التجارية بينهما ، فهو يوجد نوعاً من الفصل ، يقتضى إنشاء قوانين ونظم ورسوم ، من شأنها أن تعرقل سير التجارة بين البلدين . . هذا رغم أن اتفاقية عام ١٨٩٩ نصت فى البند السابع على « عدم دفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من مصر حين دخولها للسودان » .

ويرى المؤلف حلولا ، لرواج التجارة ، بعد أن دب فيها الوهن وتناقصت خلال النصف الأول من القرن العشرين . وهى حلول تتعلق بالمواصلات وتسهيلها بين شطرى الوادى . ومن هذه الحلول إلغاء الرسوم الجمركية ، وإنشاء سكك حديدية . . وكذلك إلغاء الحدود الإدارية .

* * *

ومن ناحية التطور التاريخى ، فانه بين مصر وبين الأقاليم الواقعة فى جنوبها علاقات متعددة وقوية : وسواء أكان أصل المصريين ينبت من أرض مصر نفسها أو أنهم وفدوا إليها من الجنوب ، فالثابت أنهم وسكان الجنوب شديدو الشبه ، وهم من أصل واحد .

فالصلة إذن كانت منذ غابر العصور ، أيام قدماء المصريين ، ويظهر من الآثار المصرية القديمة أن شمال السودان كان وثيق الصلة بمصر . وأن المصريين حين وصلوا للسودان ، بدأت بوصولهم — كما يقول اركيل Arkell فى كتابه « تاريخ السودان » — الفترات التاريخية للسودان .

فالوثائق القديمة والحفريات تؤكد وجود حضارة تشبه فى قسماتها وأدواتها الحضارة المصرية القديمة . . التى بدأت تقريباً بعد حوالى خمسة آلاف سنة . لقد عثر المنقبون والباحثون والمكتشفون على أوعية وآثار فى مقابر الحضارة الجزرية من عصر نقاده فى صعيد مصر ، ووجدت نظائر لها فى قوز رجب وفى كسلا . ووجود هذه الآثار فى مناطق بعيدة فى السودان مع ما يشبهها فى مصر ،

يدل على العلاقة والصلة منذ أقدم العصور ، بل قل منذ عصر ما قبل الأسرات .

* * *

ولا ينتهى المؤلف من كتابه إلا بعد أن يفرد معظم صفحات الكتاب لمنطقة النوبة . وقد عرف ايراتوستين النوبة بأنها البلاد التى تقع غرب النهر حتى دنقله . أما استرابون ، فقد تحدث عنها باسم « نوباى » فى العصر البطلمى . والفراعنة ، كانت عندهم كلمة « نوب » بمعنى الذهب ، والذهب كان يأتيهم من الجنوب . . أى أن النوبة كانت بلاد الذهب . .

يقول رايزنر Reisner أن مصريى الدولة الوسطى كانوا يطلقون على الإقليم الواقع جنوبى حلفا اسم « إقليم كوش » . ويقول أيضاً :

إن تاريخ النوبة إ، ماهو إلا تاريخ اتصالها أو انعزالها عن مصر .

* * *

والدراسات الآن متصلة ، والحفريات تسير على قدم وساق لكشف الجذور التاريخية لموقف النوبة بين مصر والسودان . وقد أثبتت هذه الدراسات حتى الآن أن الحدود فى الدولة القديمة كانت تقف عند الشلال الأول . وفى الدولة الوسطى جنوبى وادى حلفا ، وفى الدولة الحديثة وصلت الحدود إلى الشلال (أو الجندل) الرابع . ومن هنا يمكن أن ندرك أثر النيل فى وحدة الثقافة ووحدة المصير . .

والتاريخ يقول إن المصريين فى الأسرة ١٨ كانت دولتهم تمتد حتى جنوبى الخرطوم . وفى أيام تحتمس الرابع وصلت الحدود إلى دارفور فى جنوب السودان . وهذا إن دل على شىء فانما يدل على أن مصر والسودان كانتا دائماً على خط متصل ، ووحدة قائمة .

ومما يؤيد ذلك ويؤكده أن الديانة المصرية كانت هى السائدة فى بلاد النوبة وما بعدها جنوباً . فكانت الآلهة النوبية تعبد فى مصر ، والآلهة المصرية تعبد فى النوبة . كما كان الفراعنة يؤلهون فى مصر وفى النوبة أيضاً .

ولم تقف العلاقة عند حد الدين فقط ، وإنما تعدتها إلى علاقات أخرى نخص منها العلاقة الاقتصادية . . وهى دليل كاف وبرهان قاطع بما كان من الارتباط بين شقى الوادى .

فقد كانت هذه العلاقة قائمة على صادرات وواردات . وكان الذهب أهم هذه الموارد . وكانت مصر تصدر الأسلحة والحلى والعطور والعقود والحبوب والتمائم والعسل والخرز والملابس .

ولم يكن النيل وحده هو طريق الانتقال ، بل كانت هناك وسائل أخرى منها دروب الصحراء ، وأهمها وادى العلاقى ، ودرب الأربعين ثم إن الأسرة ٢٥ فى تاريخ مصر كانت نوبية . ومما يذكر أن « بعنخى » أحد ملوك هذه الأسرة قد تمكنت النوبة تحت قيادته أن تكون عاملا رئيسياً فى السياسة الداخلية على طول وادى النيل من الإسكندرية إلى ما بعد الخرطوم .

وقد أرسل بعنخى إلى جنوده يقول :

« إذا وصلتم مصر ، فاتجهوا إلى الكرنك وانزلوا هناك إلى النهر ، واغتسلوا فى مياهه . ولا يفخر أحد منكم بقوته ، فانه لا قوة إلا لآمون فان الفرد الواحد يستطيع أن يتغلب على ألف بمعونة آمون . رشوا ماء مذابحه عليكم » .

ويذكر آركل أنه من المؤكد أن ملوك نباتا كانوا من المصريين ، واستمر نسلهم لألف عام يحكمون شمال السودان ، بعاصمتهم فى نباتا أولا ، ثم فى مروى ، وهم ورثة كهنة آمون .

وهكذا نرى أن حضارة مصر والسودان واحدة منذ أقدم العصور وكان يسكن السودان كله جنس



واحد ، متحد الثقافة حتى دنقلة ، ثم بعد زمن وصلت الثقافة الموحدة حتى ملتقى النيلين الأبيض والأزرق ، ثم امتد التأثير إلى الجنوب الأقصى من وادى النيل . . .

ولم تكن هناك حدود ، إذ كانت الهجرات مستمرة ، والتجارة والانتقال لا يقف فى سبيلهما حائل .

* * *

والقرون الستة الأولى للميلاد تمثل اختلالا فى ميزان القوى . فبعد عصر البطالمة جاء الرومان وحكمهم الذى ظل حتى دخول العرب مصر . وقد اشتدت الغارات من الجنوب لمحاولة هزيمة المحتل الغاصب ، ومنها غارات البجا ، وكثرت المعارك بين النوبيين والرومان .

ولقد ظلت العلاقات أيام الرومان بين القبائل الصحراوية والمناطق النهرية وبينهما وبين مصر الرومانية عبارة عن اضطرابات ومناوشات فى مناطق الحدود .

يتضح إذن من الدراسة التاريخية منذ فجر التاريخ حتى بداية العصور الوسطى أن بلاد النوبة كانت منطقة وصل هامة بين مصر وما فى جنوبها ؛ وأن هذه المنطقة فضلا عن أنها تمصرت تماماً ؛ وأنه لا يفهم تاريخها إلا بدراسة تاريخ مصر . . فإنها لم تكن يوماً ما فاصلا :

* * *

وفترة العصور الوسطى ، التى تبلغ حوالى ألف سنة . وتعاصر ممالك النوبة المسيحية من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وتعاصر دخول العرب مصر ، وزحفهم نحو الجنوب حتى النوبة ومنها إلى داخل السودان .

فبعد أن زحف العرب على مصر ، وهزموا الرومان وأجلوهم عنها ، زحفوا على بلاد النوبة ، بعد عام ٦٤١ م ، وهو عام فتح مصر . وقد ورد ذكر النوبة لأول مرة فى وثيقة عربية فى المعاهدة التى أبرمت بين القائد العربى عمرو بن العاص والمقوقس والى الروم على مصر . . ويتضح من نصوص هذه المعاهدة أن العرب كانوا يعتبرون النوبة معبراً للتجارة بين شمال الوادى وجنوبه .

ولكن المؤرخ المنصف لا بد أن يذكر أن العرب حتى أواخر العصر الفاطمى قد لقوا مقاومة من ممالك الجنوب المسيحية . . وفى عام ١٣٢٣ م نودى بكنز الدولة ملكاً عربياً على دنقلة . . وبهذا أمكن توحيد شطرى الوادى فى ذلك الحين ، فبنو كنز من عرب ربيعة .

* * *

فى بداية القرن السادس عشر تم احتلال مصر بواسطة السلطان سليم ، وصارت مصر ولاية عثمانية عام ١٥١٧ . ومنذ هذا التاريخ . . حتى اتفاقية عام ١٨٩٩ ، وهذه فترة تبلغ حوالى أربعمائة عام ، منها حوالى ٨٠ عاماً كانت مصر والسودان فيها دولة متحدة . . وأقصد بذلك الفترة من ١٨٢١ إلى ١٨٩٩ ،

ومهما قيل عن فتح مصر للسودان سنة ١٨٢٠ . فهو قد أوجد وحدة لم تكن موجودة من قبل ، أى أنه وضع أساساً لإنشاء أمة وتخلص بذلك السودان من مغبة التقسيم الذى حدث لأفريقية إبان القرن التاسع عشر .

لكن بعد الثورة المهدية عام ١٨٩٩ بدأ يصبح للسودان كيان خارجى من حيث الحدود والعلاقات الخارجية . فوصلت الحدود إلى دارفور فى الغرب والبحر الأحمر فى الشرق .

وما حدث بعد الثورة المهدية ، وبعد احتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢ . . وبالتالى احتلالهم للسودان . . لا يدخل فى نطاق هذا البحث ، أو هذا الجزء من رسالة الدكتوراه الذى اصطفاه المؤلف ليضمنه هذه الصفحات .

أحمد أبو كف

جولة بين الكتب

وصيد البنك الكبير
تأليف : كاترين فوربز . .
ترجمة : أحمد محمد عيسى .
الناشر : النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ١٧٤ ص ١٤×١٨
ث ١٧ قرشاً

قصة إنسانية رائعة ، برعت المؤلفة فى رسم شخصياتها ، حتى ليبدو أنها قد لعبت الدور الرئيسى فيها ، وهى تحكى حياة أسرة نرويجية مهاجرة إلى الولايات المتحدة ، وجهادها فى هذه البلاد من أجل حياة أفضل ، مع بيان الترابط العائلى المتين الذى ساعد على نجاح جهودها ورفع مستواها ، حتى كلل هذا كله بالنصر . مع ملاحظة أن هذه القصة قد طبعت بالعربية مرتين الأولى قبل عشر سنوات والثانية فى الشهور الأخيرة .

السيدة باربارا
تأليف : روملو جاييجوس
ترجمة : د . محمود على مكى
مراجعة : د . عبد العزيز الأهوانى
الناشر : مؤسسة سجل العرب بالاشتراك مع مشروع الألف كتاب
٦٤٧ ص قطع كبير

قمة الإنتاج الأدبى للروائى والسياسى الفنزويلى رومولو جاييجوس وتدور أحداثها حول الصراع بين القيم الاقطاعية القديمة المتمثلة فى امرأة غامضة رهيبة هى السيدة باربارا ومن يحيط بها ، وبين القيم الحرة الجديدة ويمثلها الشاب الجامعى القادم من المدينة سانتوس ثوماردو ، تنتهى بغلبة الخير على الشر باختفاء اقطاعية السيدة باربارا ورحيل الأمريكى المغامر الذى كان يعاون سيدة الاقطاعية على استغلال عمل أصحابها الحقيقيين .

ثورة الفكر فى أدبنا الحديث

تأليف : غـــالى شـكرى



لا يختلف اثنان فى أننا أشد ما نكون احتياجاً إلى كتاب جديد يتناول الفكر الثورى فى أدبنا الحديث بالبحث والدرس والتقييم . . فنحن بحق نفتقر إلى الروح الجادة المستأنية فى مجال--ذلك البحث الأدبى . . فهذه العجلة التى صارت سمة عصرية بارزة يتميز بها سلوكنـــا وتصرفاتنا قد حالت دون النظر العميق إلى الأشياء وحرمت علينا لحظة التأمل والتروى والاستبطان . . فقليل من أدبائنا من يتجلد ويثابر فى تحصيله . . وقليل منهم من تمنحه الطبيعة قدرة على التبصر والاستبصار ، فلا يقدم عـــلى الكتابة إلا إذا كان هناك هدف وراء هذه الكتابة يجعله لا يقول قولا «تقليدياً» مستهلكاً مكرراً . . لكن شد ما آسف أن يسع الأدب كل شىء . . فكل من يأنس فى نفسه القدرة على الكتابة يهرع مسرعاً لكى ينصب نفسه إماماً من أئمة الفكر النابهين . . وقد يجد من يغرر به ويوهمه بالعظمة فيتمادى فى غيه ويسرف فى شططه دون أن يجد من يوجهه إلى طريق السواء ودون أن يجد من يعلمه أن للقلم مسئولية وأنه حتم عليه أن يأخذ نفسه بكل قسوة حتى يستطيع أن يتعلم معنى الحرف وحتى يستطيع أن يعى معنى الكلم ومعنى ما يسطرون .

والحق أن كثرة من هذا النمط تنتشر فى مجالنا الثقافى والأدبى وأن هذه الكثرة تعيش بيننا وتضمن لنفسها دوام البقاء دون أن تجد من يتصدى لها بالحساب العسير . . وكان أولى بهم – بادئ ذى

بده – أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال : كيف نستطيع أن نتعرف على أنفسنا حتى يستطيع الآخرون أن يتعرفوا علينا ؟ ! ذلك هو السؤال الذى يستوجب علينا أن نوجهه أيضاً إلى صاحب كتاب « ثورة الفكر فى أدبنا الحديث » . . فأغلب الظن أن السيد المؤلف هنا إنما يعانى كثيراً من الأزمات حتى أنك لا تطلع على فصل من الفصول التى جاءت فى هذا الكتاب دون أن يذكر لك كلمة « أزمة » . . ويخيل إلينا أن أزمة الأزمات التى يعانيها إنما تتمثل فى عدم القدرة على تفهم ذات نفسه فلا يقوى على التمييز بين هذه الأفكار والأحاسيس التى تعتمل داخل هذه النفس ولا يقوى على أن ينقلها ويصبها فى جوف الكلمات فى تشكيل منظم موحد متماسك يبرئه من هذا الخلط وهذا التهويم الذى هو أبعد ما يكون عن روح الوضوح والتحديد .

فقد أراد الأستاذ غالى شكرى أن يبذل كل ما فى وسعه لكى يأتى إلينا بدراسة نقدية تحليلية لظاهرة الفكر الثورى فى أدبنا الحديث . . ولهذا نجده يبدأ كتابه بالحديث عن قضايا الإنسان الكبرى وكيف أنه من الجائز أن تصاغ هذه القضايا صياغة درامية متكاملة . . ولقد أراد أن يبرر ذلك لكى يكون بمثابة عملية تمهيد تلقائى للحديث عن مسرحية « الراهب » للدكتور لويس عوض . . ولهذا نجده يسلط الضوء على ثورة أبا نوفر وهو ذلك الأمير الحائر بين الأرض والسماء ، وهو الذى يعد محوراً لقضية فكرية قد ناقشها الدكتور لويس عوض فى مسرحية « الراهب » . . تلك القضية التى تعبر عن تاريخ مصر القبطية فى ظل الإمبراطورية الرومانية . . وترجع أهمية تلك المسرحية – فى رأى الكاتب – إلى أنها أرست قواعد المسرح الكلاسيكى فى مصر فهى تبدو كما لو كانت شديدة الكلاسيكية . . ولهذا يقول الأستاذ غالى شكرى فى هذا الصدد :

« إن اختيار المؤلف لمرحلة تاريخية ساقطة من وعينا تماماً وتجسيد أبا نوفر بالذات لها . . كما أن اختيار الكاتب لمنهج التصوير من الداخل كان عاملا أساسياً فى تعميق شخصية أبا نوفر تعميقاً مفصلا . . . وأن الفنان قد وصل دون افتعال بين مسرحنا المحلى والمسرح العالمى المعاصر بأن انتشل المسرح العربى من وهدة التقليد والمحاكاة الميكانيكية إلى اكتساب مقومات المسرح المعاصر . . ولهذا كانت مسرحية « الراهب » بمثابة شهادة الميلاد للبطل التراجيدى فى الدراما المصرية . . فقد خلا تاريخنا المسرحى من البطولة التراجيدية بغياب (الأصالة) عن النماذج البشرية والفهم العميق للتكوين الفلسفى والرمزى لأبطال التراجيديا » .

وينتقل السيد المؤلف بعد ذلك إلى موضوع بعنوان [شكسبير فى العربية] . ويتناول هنا تجربة الترجمة للمسرح المصرى . . وعنده أن الترجمة التى قام بها الشاعر خليل مطران لم تكن نقلا أميناً للنص الأجنبى . . بل كانت عملية مزدوجة بين نقل روح النص والخضوع لإمكانيات المسرح من ناحية وتوخى رغبة الجمهور من ناحية أخرى . . فقد كان خليل مطران يحذف مشاهد كاملة بضمير مستريح . . وبالرغم من ذلك فقد كان خليل مطران رائد الترجمة الجادة لشكسبير . . وربما كانت هذه الترجمات سبباً فى أن يتولى صاحبها إدارة الفرقة القومية . . وعنده أن الاهتمام بشكسبير لم يصل إلى درجة واعية إلا فى مشروع جامعة الدول العربية حيث تولى الدكتور طه حسين مسئولية اللجنة الثقافية فأصدر قراره التاريخى بترجمة جميع أعمال شكسبير .

وينتقل بنا المؤلف إلى موضوع آخر يتلو موضوع شكسبير وهو : [حرية الفكر من الحلم الليبرالى إلى نظرية الثورة] . . وهنا يحدثنا عن صور الاضطهاد التى عانتها البشرية من أجل حرية الفكر وهى ثلاث صور :

الصورة الأولى : وهى التى تمثل سقراط وهو ماثل أمام محكمة أثينا يدفع عن نفسه تهمة إفساد الشباب والتعريض بالآلهة .

الصورة الثانية : تتمثل فى محاكم التفتيش التى أقامتها البابوية فى العصر الوسيط .

الصورة الثالثة : وهى ممثلة فى قضية برتراند راسل أمام إحدى محاكم نيويورك . . ثم نجد السيد المؤلف يعرض بعد ذلك لأزمة حرية الفكر فى وطننا العربى فيرى أن الركيزة الأساسية للانطلاقة الفكرية فى فجر النهضة العربية إنما هى ركيزة فلسفية قد ظهرت من خلال المعارك التى كانت دائرة حول نظرية التطور مما أدى إلى توليد تيارين يمثلان طبيعة الحياة الفكرية التى كانت سائدة آنذاك : التيار التقدمى الذى يؤيد الحركة الفكرية الجديدة من ناحية . . والتيار التقليدى الذى كان ينادى بالثبات على الأنماط الفكرية القديمة . . ثم يذكر السيد المؤلف كتاب « حرية العقل » للأستاذ سلامه موسى ويعتبره وثيقة تاريخية واسعة لما شهدته بلادنا حينذاك من مأساة الحرية فى مصر .

وفى هذا الصدد يتابع حديثه عن دعاة الحرية فيذكر منهم الأستاذ خالد محمد خالد ويعتبر كتابه « من هنا نبدأ » بداية اتجاهه الديمقراطى .

يتلو [هذا الموضوع موضوع صراع الأجيال] الذى يعرض فيه لتطور فن القصة فى أدبنا العربى وكيف أنه لا يتوازى فى تطوره بالفن الروائى العالمى وهو

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية
٣١٧ ص ٢٤×١٧ سم الثمن ٦٠ قرشا

يبرر سبب تعويقنا بأننا لم نبدأ معهم هذا الفن وإنما كانت خبراتهم الفنية والإنسانية سابقة علينا بمراحل عديدة فى هذا المضمار . وفى أثناء حديث الكاتب عن هذا الموضوع نجده يوجه انتباهنا فجأة ناحية لبنان ليحدثنا عن قصص سهيل إدريس . فيعرض لقصة «الخندق العميق» وهى قصة تمثل الصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد . . ثم يشير بعد ذلك إلى قصته «الحى اللاتينى» التى تصور تجربة الحياة التى مارسها الدكتور سهيل إدريس فى باريس وأخيراً يشير إلى قصته الثالثة «أصابعنا التى تحترق» وبذلك يكون قد شارف على نهاية فصل «صراع الأجيال» .

ويحاول الكاتب بعد ذلك ، [أن يعرض لموضوع الواقعية الاشتراكية فى النقد العربى الحديث] : فعنده أن هذا الاتجاه فى الأدب جاء بعد مولد أعمال مكسيم جوركى التى تقوم أساساً على الفلسفة الماركسية كنظرية فى الطبيعة والمجتمع . . ثم يحدثنا عن تطور النقد فى أدبنا الحديث الذى صار فى خط مواز لحركة التطور الاجتماعى فى بلادنا وأن هناك جهوداً من أدبائنا قد بذلت فى إذكاء حركة النقد وفقاً للواقعية الاشتراكية . . فقد نادى سلامة موسى بأن يرتبط الفنان بمجتمعه عن وعى وتبصر . . وراح مفيد الشوباشى يعرض لآراء النقـاد الروس بالدرس والتحليل وجاء لويس عوض أكثر تخصصاً فاستعرض تاريخ الحركات الأدبية فى أوربا مدللا على أن الفن مرآة للتطور الاجتماعى . . ثم نجد الكاتب هنا يشير إلى كتاب «فى الثقافة المصرية» للأستاذين محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس . . وقد رأيناه يلوم عليهما أنهما قد تحدثا عن أعمال الروائيين المصريين وكأنهما يتحدثان عن أعمال سياسية محضة . أما عن أدب الخلق الاشتراكى فهو عنده وليد كتابات الشرقاوى والخميسى وغيرهما . ثم ينتقل بعد ذلك [إلى موضوع قلق الإنسان الجديد] : ويبدأ بالإشارة إلى مؤتمر فلاسفة العالم الذى عقد منذ سنوات بالولايات المتحدة حيث بحث فيه المؤتمرون طبيعة المرحلة الحضارية التى يجتازها العالم والدور الذى يمكن أن يؤديه الفيلسوف فى هذه المرحلة الحرجة من حياتنا . . ثم يشير إلى أن هناك بعض المصالحات التوفيقية بين الاتجاهـات الوجودية المتطرفة والتيارات الاجتماعية المقابلة لها . . وقد انعكس هذا على الفكر العربى المعاصر فكتابات عبد الرحمن بدوى تدل على تطور حركتنا الفلسفية وقد تأثر به قطاع عريض والشباب العربى المثقف . ومنهم مطاع صفدى وأحمد حيدر وقد ألفا كتابين يعالجان فيهما مشكلة القلق والإنسان الجديد .

[وتحت عنوان الرواية المصرية بين ثورتين] : نجد الكاتب يتناول كتب النقد الأدبى بالبحث والتقييم منها كتاب «دراسات فى الرواية المصرية» للدكتور على الراعى ومنها كتاب «حول تطور الرواية المصرية منذ بداية هذا القرن إلى بداية الحرب العالمية الثانية» .

[يتلو ذلك فصل آخر عن أدب الثورة بين الحلم والواقع] : وفى هذا الصدد يحدثنا عن مدى تجسيد الفن الأدبى لحلم الثورة . . ولهذا نجده يستشهد بعملين أدبيين كبيرين . [الأول] : كوخ العم توم للكاتبة الأمريكية هاريت بيتشر ستو التى لم تكن تتصور أن روايتها الوحيدة يمكن أن تشارك فى إشعال نيران الحرب الأهلية فى الجنوب . . فروايتها تنضح بالألم العميق بسبب استعباد الأبيض للأسود فى الجنوب الأمريكى .

[والثانى] : الأم لجوركى فهى من أدب الثورات لأنها عالجت الوضع المتأزم فى روسيا القيصرية ثم نجد السيد المؤلف بعد ذلك ، يتساءل أين تقع الثورة المصرية من أحلام أدبائنا ؟ . . إنه يرى أن ذلك الحلم قد تمثل فى بعض كتابات الأدباء المصريين مثل عذراء دنشواى لمحمود طاهر حقى وعودة الروح لتوفيق الحكيم وثلاثية نجيب محفوظ والأرض للشرقاوى وبعض قصص يوسف إدريس .

يحدثنا السيد المؤلف [بعد ذلك ، عن معركة الإنسان بين التاريخ والحضارة] لقد أراد أن يبين هنا حقيقة واضحة وهى أن الدراسات المتخصصة فى كافة المجالات إنما هى إحدى السمات البارزة التى تميز عالم الفكر فى القرن العشرين . . وحين يتساءل : إلى أين نسير مادياً وفكرياً ؟ يجيب بأن تفكيرنا الفلسفى قد أنضجته تيارات الفلسفة الغربية على أيدى أساتذة الجامعات . . ثم يعرض لكتاب الدكتور قسطنطين زريق «نحن والتاريخ» . . وقد انتقى من هذا الكتاب فصلا بعنوان «موقفنا من الماضى» لكى يكون موضع بحثه . . . فالدكتور قسطنطين يحدثنا هنا عن هذه المرحلة التاريخية التى نجتازها وهى مرحلة التحول عن ميراث القرون الوسطى إلى أبواب المدنية الحديثة ، ويعلل الدكتور الهبات الثورية التى تشتعل فى المنطقة العربية بين الحين والآخر على أنها نتائج الشعور بضرورة التغيير . وأخيراً ينتهى كتاب السيد المؤلف [بموضوع ثورة مندور فى نقدنا الحديث] . وهو يشير فى هذا الصدد إلى أن العناصر المميزة لاتجاه مندور النقدى يمكن أن تتضح من خلال هذه العبارة التى جاءت فى كتابه «فى الميزان الجديد» وهى على النحو التـالى :

«النقد هو الدراسة الموضعية للنص الأدبى وبذلك يصبح الأداة الوحيدة لتمييز الأساليب المختلفة» . ولقد صاغ مندور نظريته فى النقد الأيديولوجى فى أحد فصول كتابه «النقد والنقاد المعاصرين» . . فهو هنا لا يتراجع عن أن «التذوق الفردى للناقد هو المرحلة الأولى فى النقـد يتلو ذلك مرحلة أخرى هى تحليل هـذه الانطباعات وتبريرها أو تعديلها على ضوء الأصول الفنية المستقاة من أمهات الأعمال الأدبية فى تاريخ الإنسان . . ثم

إضافاتها بكشوف العلوم الإنسانية الأخرى وتطورات الحضارة التي أثمرتها » .

بعد ذلك يقول الأستاذ غالى شكرى « ويلوح لنا الآن أن لباب هذا المنهج قد استقاه مندور من أستاذه « لانسون » فهو على رأس الدعاة إلى الأخذ بالنقد التأثرى بشرط اصطناع الحذر » .

وبعد فقد يبدو لنا من خلال هذا العرض الموجز لمضمون الكتاب أن السيد المؤلف قد أراد أن يتوخى فى كتابته المنهج التاريخى الذى يلتزم بمصاحبة الظاهرة الفكرية منذ بدء نموها إلى أن يكتمل نضجها . . ولهذا نجده يبدأ دائماً كل فصل من فصول هذا الكتاب بمقدمة تاريخية يتناول خلالها أسباب نشوء الظاهرة وأسباب ارتقائها على مدار العصور . . لقد فعل ذلك حين تحدث عن قضايا الفكر فى عالم الدراما فرأيناه يشير إلى تلك القضايا الفكرية التى كانت سائدة أيام اليونان القديم وكيف كانت تلك القضايا مدداً مفيداً لأعمال تراجيدية لها مكانتها الجليلة فى عالم الإنسان . . لكن شد ما نأسف أن نجد الكاتب الكريم لم يستطع أن يثابر على الأخذ بهذا المنهج فرأيناه موفياً حق هذا المنهج حين تحدث عن العصر اليونانى . . لكنه سرعان ما تخطى العصر الوسيط وعصر ما بعد النهضة ليحدثنا عن العصر الرومانتيكى الذى ثار فى وجه التقاليد الأرسطية فحطم وحدات أرسطو الثلاث . . ولقد جاء ذلك فى سياق تمهيده للحديث عن مسرحية الراهب للدكتور لويس عوض . . وكم كنت أتمنى أن يلتزم الكاتب هنا بالسياق العلمى المتماسك الأجزاء ، فيكون حديثه السابق مبرراً منطقياً لحديثه اللاحق حتى يجرى الكلام موحداً منسجماً هادفاً إلى إصابة الهدف دون أن يلقى جزافاً وبلا غرض يسعى إليه . . فكان أولى به هنا أن يركز حديثه على تلك التصورات الرومانتيكية ومدى انعكاسها على أدبنا الحديث . . دون أن يحشد كل هذه التفاصيل وينزع إلى تلك التفريعات والتخريجات التى أصابت الموضوع بالتخلخل والتمزق والتشتيت . . ومما يدل على أن الكاتب يسير فى كتابه – سيراً «متخبطاً» فلا يستطيع السيطرة على مادته ولا يستطيع أن يعى نظاماً «محدداً» فى كتابته بحيث يمكن أن يستخلص من المقدمات النتائج التى يريد أن يصل إليها من وراء هذه الموضوعات التى عرضناها فيما أسلفنا . . نقول إن أصدق دليل على ذلك إنما هو إقحامه بعض الموضوعات التى تشذ عن طبيعة المضمون . . فهو مثلا يحدثنا عن « شكسبير فى العربية » . . . لكنه يتناول شكسبير هنا من الناحية (الإدارية) . . فلا ندرى ما الذى يهم القارئ فى أن شكسبير لم يحسن الإداريون أو القائمون بمشروع ترجمته توزيعه على المترجمين وكيف أنهم لم يتعرفوا على أعماله الجليلة التى تستحق الترجمة ويكون لها السبق فى ذلك دون غيرها . . لقد كنا نتوقع من الكاتب الكريم هنا أن يحدثنا حديث الدارس الجاد عن قيمة شكسبير الفكرية والفنية فى أدبنا الحديث حتى يستقيم هذا المعنى والاتجاه العام للكتاب .

والحق أنه حين حدثنا عن حرية الفكر كان لنا ذلك بعض العزاء فربما نجد فى هذا الموضوع ضالتنا التى نشدها لكن سرعان ما اتضح لنا من خلال كتابته – أنه قد أراد أن يمهد لهذا



الموضوع بمقدمة مستفيضة قد فاقت صفحاتها عدد صفحات الموضوع الرئيسى الذى أراد الحديث عنه . . وبعد أن نسقط من حسابنا كل التفاصيل ، يمكن أن نقول إنه يشير هنا إلى نظريتى التطور وكيف أنها كانت بمثابة الركيزة الفلسفية التى ألهبت نيران معارك عدة بين المتطرفين والمعتدلين جميعاً . . وهو يشير إلى أن الفضل فى ذلك إنما يرجع إلى « شبلى شميل» الذى قام بترجمة نظرية التطور وحارب الغيبيات . . مما أثار ثائرة المحافظين أمثال جمال الدين الأفغانى . . وهنا نجد الكاتب الكريم الذى اشتهر (بالتخمة) فى كتابته يشير إلى ذلك المفكر الكبير إشارة خفيفة لا تكاد تبين . . ولا تليق بمكانته الفكرية فى عالم الشرق . . . .

فلو عرف أن جمال الدين الأفغانى قد صنع رجال مصر الثائرين فى الفكر والسياسة والاجتماع لآخذ نفسه بالحساب العسير على هذه الهفوة . . ولا أدرى من أى مرجع استقى المؤلف هذا الخبر الذى يحتاج إلى كثير من التحقيق . وفى هذا الفصل لم يأت كاتبنا بشيء جديد فإن طريقته الإخبارية التقريرية قد أفسدت عليه روح البحث العلمية . . فقد كنا فى احتياج شديد إلى أن يطلعنا – الكاتب الكريم – على المفاهيم العامة والتصورات الفلسفية التى تولدت من وراء نظرية التطور وانعكست آثارها على أدبنا الحديث . . فالحق أننا لا نهتم بالمعارك فى ذاتها بقدر اهتمامنا بالمعطيات الثورية التى امتصها الأدب من خلال تلك المعارك مما أدى إلى تطوير حياتنا الفكرية والأدبية وتعميق نظرتنا إلى الوجود، لكن هذه الطريقة فى التعبير قد تستدعى من الكاتب روح التأمل والاستبصار وكبح جماح الحماس والاندفاع الذى يجرف صاحبه إلى التردى فى الخطأ والشطط .

وقد أكون منصفاً حين أقول إن الكاتب كان لا يعرف التروى والتأنى

فى معالجته لهذه القضايا الفكرية الخطيرة .. والدليل على ذلك ما نلاحظه من روح المجاملة وتطييب الخاطر .. فقد أفرد فصلا كاملا عن مسرحية « الراهب » للدكتور لويس عوض وحدثنا فى هذا الصدد حديثاً مستفيضاً قد بلغ درجة الملال والإسفاف فكانت عدد صفحاته محصورة من الصفحة العاشرة حتى الثانية والخمسين كلها غارقة بالعطر والثناء والإفراط فى التقدير .. ثم نجده يفرد بعد ذلك فصلا كاملا بعنوان « صراع الأجيال » قد امتد من صفحة ١٠٨ حتى صفحة ١٢٨ .. وكل هذا الفصل يحكى عن سهيل إدريس وقصص سهيل إدريس .

لكن الأدهى من ذلك أننا نجد السيد المؤلف يقول فى موضوع « أدب الثورة بين الحلم والواقع » فى بداية صفحة ٢٠٣ « على أننى لست أهدف هنا إلى تتبع الخطوط التفصيلية لحركة التزاوج بين الأدب المصرى والثورة المصرية فهذا موضوع كبير أرجو أن يتاح لى بحثه فى كتاب مستقل » .. والحق أننى عجبت من هذا القول الصريح الذى ينم عن شجاعة بالغة فهو بمثابة حكم صادق يصدره المؤلف لكى يدين نفسه .

إننى لا أدرى فيم كل هذا العناء الذى بذله هذا الكاتب بلا هدف أو غاية .. أما كان أولى به أن يدخره من أجل أن ينزفه فى تأليف هذا الكتاب المرتقب الذى ينشده والذى أوجه نصحى إليه أن يسميه « ثورة الفكر فى أدبنا الحديث » .. فأنا حقاً غير مقتنع بأن هذا الكتاب الذى أناقشه الآن إنما يدل مضمونه على العنوان الذى يحمله .. كل ما فى الأمر أنه لا يعدو أن يكون عرضاً واسع المدى للكتب والمجلات التى تحمل طابعنا وطابع غيرنا .. فلا أستطيع إلا أن أكون منصفاً حين أقول إن الكاتب قد عانى كثيراً من أجل تجميع مادته فما أشبهه هنا بذلك الرجل الذى أرهقته أحمال مادته الثقيلة فتوقف عند مرحلة التجميع ولم يستطع أن يواصل عملية البناء مما جعله يلقى عن كاهله ذلك العبء الثقيل مكتفياً بتكديسه فى كومة هائلة قد خلت تماماً من ملامحها ومميزاتها فلم تكن ذات شكل أو مضمون .. إنها شذرات من هنا وهناك .. كلمات مهوشة وأفكار مبتسرة قد صاغها الكاتب صياغة مفككة مرتبكة .. وعندى أنه ليس هناك سوى تعليل واحد يمكن أن نفسر – على ضوئه – هذه الهنات التى تردى فيها وهو أنه لم يتوخ هذا الكاتب الصدق فى كتابته ولم يكن فى هذه الكتابة وفياً للحقيقة الخالصة .

سعد عبد العزيز

جولة بين الكتب

حريق القاهرة أو نذير العاصفة

تأليف : أحمد محمد عطية

الناشر : الدار القومية – كتب قومية – ١٠١ ص ١٤ × ١٧

ث ١٢ قرشاً

تأريخ للحادث الشهير فى تاريخنا الحديث الذى وقع يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ والذى مهد للثورة المصرية بعد وقوعه بأقل من ستة شهور مع بيان مقدمات هذا الحادث الأليم والنتائج التى أدى إليها والمنجزات الهامة التى تمت فى عهد الثورة .

●

التكنيك المسرحى

تأليف : فيليب فان تيجام .

ترجمة : يوسف البدرى .

١٣٧ ص ١٤ × ٢٠ ث ٢٥ قرشاً

دراسة فى المراحل المختلفة التى تلى كتابة النص المسرحى إلى وقت عرض المسرحية ، تناول فيها المؤلف مشكلات النص المسرحى ، والدور الذى يسهم به الممثلون والمخرج ومصمم الديكور ومدير المسرح ومساعدوهم والبروفات النهائية حتى عرض المسرحية أمام الجمهور .

المحمومون

تأليف : محمد الراشد

الناشر : دار الكاتب العربى ببيروت .

٣١٨ ص ١٧ × ٢٤ ث ٣٠٠ ق . ل

رواية تحلل الأزمة التى يمر بها الجيل الجديد من أبناء العروبة ، إزاء المشكلات النفسية والعاطفية والحضارية الراهنة ، وموقفه من تحديات العصر وما فى المحيط الاجتماعى الذى يعيش فيه المؤلف من محمومين مصابين بأمراض العصر تناولها المؤلف وصفاً وتشريحاً ونقداً .

●

أرض الميعاد

تأليف : د . حسين فوزى النجار .

تقديم : فريق أول محمد إبراهيم .

الناشر : الأنجلو المصرية .

٢٦٦ ص ١٧ × ٢٠

يحلل المؤلف حقيقة ما يزعمه اليهود من وجود وعد إلهى مقدس برجوعهم إلى أرض الميعاد التى وعد الله بها إبراهيم عليه السلام ، وما يذهبون إليه من تفوقهم على شعوب الأرض كافة . فتفند ادعاءاتهم مع الرجوع إلى الكتب السماوية وكتب اليهود أنفسهم .

من السمات المميزة للكتاب النقدى العربى خلال عام ١٩٦٥ ، أنه يغلب عليه عدم تقديم دراسات مكتملة فى موضوعات محددة . ذلك واضح من جمع أكثر من كاتب لمقالاته المتفرقة فى الصحف وضمها فى كتاب . . مثل « معارك فكرية » لمحمود أمين العالم ، « فى أضواء المسرح » لرجاء النقاش ، « عشرة أدباء يتحدثون » لفؤاد دواره ، « دمعة فابتسامة » ليحيى حقى ، « مع الآخرين » لأنيس منصور ، « دراسات عربية ودراسات غربية » للويس عوض . . وكذلك كتاب أنيس منصور « يسقط الحائط الرابع » الذى نتناوله هنا بالدراسة . . وليس هناك مأخذ على صدور الكتب بهذه الصورة ، فقد سبق إلى هذا ت . س . اليوت وغيره من النقاد الغربيين ، بشرط ملاءمة هذه الدراسات لطبيعة الكتاب وبعدها عن السرعة والسطحية ، وقد كان اليوت يعيد قراءة مقالاته التى نشرها ولاقت نجاحاً عظيما ، أكثر من مرة ، ليتأكد من عمقها وصلاحيتها للصدور فى كتاب ، وكان يستبعد بعض مقالاته الناجحة لما يراه فيها من « الحماقة والسهولة » ، بل وكان اليوت يرى ضرورة إثبات تاريخ نشر كل مقالة ، ليتيسر للدارس الأدبى أن يتأكد من متابعة الكاتب لكل أطراف دراسته حتى ذلك التاريخ ، ويفتح الباب لإضافات جديدة فى المستقبل تبعاً لاكتشاف أسس جديدة وإبطال افتراضات قديمة . وسنرى إلى أى حد التزم أنيس منصور بأسس الكتاب النقدى كما وضعها اليوت وكما نؤمن بها جميعاً .

يضم كتاب « يسقط الحائط الرابع » مجموعة خواطر سريعة وانطباعات للكاتب فى الأدب والفن والسياسة والعلم والدين . . وبالجملة فى كل شىء . . وكلمة « سريعة » ليست من عندنا ، بل هى من أقوال الكاتب ، فهو يعترف فى صدد دراسته عن



العقاد ، وهى من الدراسات القليلة التى يضمها الكتاب ؛ « ليست هذه صورة كاملة له . فمن الصعب أن أرسم بهذه السرعة وفى هذا المجال الضيق صورة لشخص أو عقل أو حياة رجل عظيم عاش أكثر من سبعين عاماً . . ولكنها نقط أو ظلال فى صورته التى فى ذهنى ، والتى لا أعرف كيف أحدد معالمها بوضوح . رغم أننى قرأت له منذ طفولتى ، ورغم أننى أعرفه وأحبه ، وكنت آخر

يسقط الحائط الرابع

تأليف

أنيس منصور

الناشر: دار القلم ٥٠٠ صفحة ١٧×٢٤سم الثمن ٦٠ قرشا

الذين رأوه وهو على فراش المرض . . » (ص ١٦١) ولا نعرف كيف يحتج الكاتب بضيق المجال ، والمجال متسع بحمد الله (خمسمائة صفحة من الحجم الكبير) ، وكنا نتوقع بعد الحيثيات السابقة التى أكد لنا خلالها الكاتب صلته العميقة بالمفكر العظيم الأستاذ عباس العقاد ، أن يقدم لنا دراسة تليق بمكانة العقاد ، دراسة دعامتها قراءة كل كتب العقاد ، ومعرفة شخصية به قرابة العشرين عاماً ،

ومع ذلك فقد أخطأ عند ذكر عدد كتبه فقال إنه « ٧٤ كتاباً » (ص١٣٧) ثم قرر أن عددها « ثمانين كتاباً فى الفلسفة والدين والأدب والشعر والسياسة » (ص١٦١) بينما صحتها ثمانية وتسعون كتاباً (راجع بيانها بملف الطليعة عدد مارس١٩٦٦) . والتضارب الواضح هنا يدلنا منذ البداية على مدى تسرع الكاتب فى إصدار كتبه ، فلو راجع الأستاذ أنيس منصور مسودات كتابه أو تجارب المطبعة مراجعة

واحدة لقضى على هذا التضارب البين فى كتابه . وقد كان هذا التسرع هو نفس المأخذ الذى أخذ على كتابه الشهير « حول العالم فى ۲۰۰ يوم » ، فقد جمع المقالات الصحفية ودفع بها إلى المطبعة دون أن يكلف نفسه عناء مراجعتها مراجعة نهائية قبل صدورها ككتاب .

صدر المؤلف كتابه بمقدمة طويلة (۳۱ ص) — أطول من فصول الكتاب منفردة — بعنوان « نظرة عين » استعرض خلالها آراء الفلاسفة والكتاب فى الرؤية ، فالأب بيير دى شاردان يقول « إما أن ترى أو تموت ! . . لأن حياة الإنسان هى أن يرى أكثر وأوضح . وقد ظل الإنسان آلاف السنين يرى ويحاول أن يرى ، وأن يوسع مجاله البصرى ، وأن يجد له أبعاداً تحت الأرض أو تحت الماء أو فى الفضاء . . وأهم من ذلك حاول أن يرى أبعاده هو وأعماقه هو . . . » (ص ٥) والفيلسوف اشبنجلر يرى أن الإنسان قادر على صنع حياته باليد والعين معاً ، وسارتر يؤكد أن الرؤية هى دليل الوجود ؛ أنا أنظر إذن فأنا موجود . . فوجودى هو حريتى فى النظر إلى ما حولى . . بينما الكاتب الأمريكى لويس ممفورد فى كتابه « عن نشأة المدينة الحديثة » لم ير فى قصص بوكاشيو الشهيرة « الديكامبرون » سوى أن الناس فى القرن الرابع عشر كانوا يرحلون إلى الضواحى عندما يرهقهم التعب ومن هنا اتضحت أهمية الضواحى بالنسبة للمدن . وهذه هى الرؤية الخاصة بالكاتب الأمريكى « لويس ممفورد » . والكاتب السويسرى « ماكس فريش » صور بطل قصته « ليكن اسمى جانتين » مبصراً يتظاهر بالعمى ليتمتع بحريته فى رؤية الآخرين . . . ويؤكد الكاتب الأمريكى « فانس باكار » أن الدعاية الأمريكية عن المنتجات جعلت المواطن الأمريكى يرى بعيون زائفة ، بعيون شركات الدعاية . . . وبعد هذا الحديث الطويل الذى استغرق معظم صفحات المقدمة — عن أهمية الرؤية للإنسان ، ينتهى أنيس منصور إلى لا شىء ، مقرراً أن الإنسان لا بد أن يرى إما بنفسه أو بغيره . كالذى فسر الماء بالماء . . . ولم يقل لنا ما علاقة هذا العرض لأسماء بعض الكتب والكتاب ، بكتابه « يسقط الحائط الرابع » فالمعروف أن المقدمة تخدم الكتاب ، تقدمه أو تبرره أو تشرحه أو تهيئ القارئ لقراءته . وكأنما شعر الأستاذ أنيس منصور بأنه أطال فيما لا جدوى منه . . فتوقف فجأة ليحدثنا عن الحائط الرابع ، عن كتابه ، عن تقديم كتابه ، عن تبرير عنونته بهذا العنوان الهتافى : « يسقط الحائط الرابع » .

يقول الأستاذ أنيس منصور إن الممثلين على المسرح يمثلون بين ثلاثة جدران حقيقية ، وجدار رابع وهمى ، يفصل بين الممثلين وجمهور المسرح ، هذا الحائط الوهمى الذى دأب الجميع — الممثلون والمشاهدون — على التمسك به ، امتلأ بالثقوب الواسعة ، أى لم يعد هناك حاجز بين الممثل والمتفرج زال الحائط الرابع . أزاله الكاتب المسرحى الإيطالى بيراندللو بمسرحيته المعروفة « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » ، لقد صعد الممثلون من الصالة ، من بين صفوف الجماهير ، ولكنهم لم يلبثوا أن اندمجوا فى التمثيل فعاد إليهم الحائط الرابع . . ولكن « ثورنتون وايلدر » أسقط الحائط الرابع فى مسرحيته «بلدتنا» ، إذ جعل الممثل يخاطب الجمهور مباشرة وينتظر حتى يجلس آخر مشاهد فى مكانه . وكذلك فعل تينسى ويليامز فى مسرحيته « اللعب الزجاجية » . . وآرثر ميللر فى « بعد السقوط » . . هذه مسرحيات بلا ستار ، إذن فقد سقط الحائط الرابع فى المسرح ، وزوال هذا الفاصل بين الممثل والمتفرج ، يعنى زوال الحواجز بين المؤلف

والقارئ . والكاتب يحاول أن يزيل الحائط الرابع بينه وبين قارئه ، باعترافاته ، وكلما نشر الكاتب اعترافاته فى سنى حياته ، كلما صارح القارئ بما فى نفسه وبكل شيء عنها ، اقترب أكثر من جمهوره ، وما اعترافات الكتاب والفلاسفة والفنانين إلا محاولات صادقة للاقتراب من القارئ . . . كاعترافات القديس أوغسطين وجان جاك روسو ، و « يوميات » اندريه جيد ، و « كلمات » جان بول سارتر ، و« مذكرات فتاة متزنة » و « قوة الأشياء » و « قوة العمر » و « وفاة هادئة جداً » كلها اعترافات سيمون دى بوفوار . . وتوفيق الحكيم فى « سجن العمر » وزكى نجيب محمود فى « قصة نفس » . . . الخ . ومن هنا يتمنى المؤلف زوال كل الحوائط ، كل الفواصل ، بين كل الناس وكل الأشياء ، ومن ثم فهو يحاول فى هذا الكتاب أن يزيل ما بينه وبين الناس من فواصل ، وسنرى إلى أى مدى حققت المحاولة هدفها .

* * *

يحتوى كتاب « يسقط الحائط الرابع » على تسع وثلاثين مقالة ، وسبع دراسات . لا يجمع بينها أى جامع ، فهى لا تخضع لمنهج واحد ، ولا تندرج تحت موضوع واحد ، ولا تهدف إلى هدف واحد ، كما أوحى إلينا المؤلف فى مقدمته ، فالقليل منها هو الذى ينطبق عليه عبارة « سقوط الحائط الرابع » . وهى بالرغم من كونها مجموعة مقالات المؤلف المنشورة فى الصحف والتى كتبت تحت ضغط وإلحاح المطبعة ، والفراغ الشاغر فى الصحيفة ، المحدد موعد شغله باليوم والساعة وبالكلمة والحرف — إلا أن المؤلف لم يثبت قرين كل مقالة تاريخ نشرها ومكان النشر ليعين الدارس لها على تحديد موقعها من الأحداث الجارية ومن الأعمال التى تتعرض لها بالشرح والنقد والتعليق . وفى هـذه



الكتابات الصحفية السريعة إنما يكتب الكاتب ليلبي نداء المطبعة ونداء الفراغ الشاغر فى الصحيفة ، لا ليلبي نداء قلبه وعقله وفكره . . .

أولى مقالات الكتاب بعنوان « عينات من الوجودية الجديدة » . يذكر الكاتب أن سارتر اتجه اتجاهاً وجودياً جديداً بإيمانه الجديد بالاشتراكية ، ولكن اشتراكية سارتر واضحة منذ البدء ، وجودية إنسانية تحررية (بالرغم من كتاب روجيه جارودى « الوجودية فلسفة غير إنسانية ») منذ وقف يحارب النازية فى الحرب العالمية الثانية ، ومواقفه البطولية ضد الاستعمار الفرنسى فى حروبه بالهند الصينية والجزائر وضد اشتراكه فى العدوان الثلاثى على مصر ، وضد العدوان على كوبا . وفيتنام . . . وأنيس منصور يؤكد على القول الذى يؤمن به كل اشتراكى لا حرية لجائع . ويستخدم تعبيراً غريباً ، فيقول : هدف الإنسان واحد : هو أن يحقق شيئاً جديداً هو « الفرد العام » . . « وهذا الفرد العام هو مجموعة الصفات المشتركة بين أناس تحققت احتياجاتهم الضرورية ، أى تحرروا من الجوع ، وتحرر مجتمعهم من التناقض . واتجهت قدراتهم الخلاقة إلى شىء جديد » (ص ٣٧) يريد أن يقول أن صالح المجموع يتحقق بحرية الفرد ، ولكن الفرد حر فى إطار الالتزام بصالح المجتمع .

المقالة الثانية « أيها الملل . . وداعاً ! » يبدو أنها تثير إعجاب المؤلف فقد وضعها فى كتابين له ، هذا الكتاب (ص ٣٩) وفى كتابه « مع الآخرين » (الصادر فى سلسلة اقرأ عدد مارس ١٩٦٦ ص٢١) . وكتابه الأخير — مثل سائر كتبه — يحتوى على مجموعة مقالاته السريعة فى الصحف مجموعة فى كتاب كسائر كتبه ، نستثنى منها كتاب « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » لأنه عد فتحاً جديداً فى أدب الرحلات ، وترجماته للمسرحيات العالمية . وهذه المقالة استئناف لكتابه « وداعاً أيها الملل » واستمرار للتحول الفكرى فى رأس أنيس منصور وخروجه إلى الحياة وإلى الناس وإيمانه الجديد بالمجتمع وبدور الثقافة فى خدمة الحياة ، وتمزيقه للقوقعة التى احتوته كثيراً ، وترديده الدائم لعبارات الملل والقرف والتمزق والأرق ، فى مجتمع تشرق عليه نور الحرية ويبنى من جديد بسواعد أبنائه ليل نهار ، فعاد يرتبط بالواقع الوطنى الفوار « بشعاعات فجر صادق . . فجر يوليو وكل يوليو . . » ومع كل هذا فقد عاد أنيس منصور إلى نرجسيته ، إلى عشقه لذاته ، إلى الحديث عنها وحولها فى آخر كتبه ، عن مرضه بالمصران الغليظ وبالحساسية ! وعن ملله وأنه « لا يوجد إنسان لم يعرف هذا الشىء الخطير : إنه الملل ! . . وعلى الرغم من أننى إنسان ، فقد شددت قيودى إلى وتد ، كأى حيوان فى زريبة لا فى طائرة ! » (مع الآخرين ص ١٩) وأيضاً فى مقالته « حصل لى مرة » (ص ٧٩) .

الملل يا أستاذ أنيس مرض بورجوازى ، لا وجود له إلا فى رأس البورجوازيين ، ولكن هناك أناس لم يعرفوا الملل ولن يعرفوه ، أناس كادحون ، لا يعرفون إلا العمل . . . ! ؟ أناس لا يشعرون أن القاهرة ضيقة ليس بها إلا « كافتيريا هيلتن أو سميراميس » . ومع ذلك فكتاب « يسقط الحائط الرابع » يحتوى على مقالة بعنوان : « القرد فى عين أمه » يقول فيها الأستاذ أنيس منصور « أنت فى عين أمك كلارك جيبل . . الخ » (ص ٥١) ومقالتين متناقضتين : « برقيات طويلة ينقصها الذوق » (ص ١٥٧) و « أطال الله عمر الفقيد » (ص ٤٤) . فى المقالة الأولى ، تحدث عن بعض الكتابات المؤسفة التى هاجمت العقاد فى صدر رثائه ، قال فيها إن الوقت غير مناسب لعرض الخلافات ، ولكن « كل هذه مسائل تتعلق بالذوق » (ص ١٥٩) ثم يفرد مقالة فى الكتاب للحديث عن

وفاة الدكتور طه حسين أطال الله عمره ، فى الوقت الذى يبيح فيه الرجل للتليفزيون - إكراماً لأنيس منصور وبرنامجه نجمك المفضل - أن يرهقه بآلاته وضجيجه ، وأن يفقد بيته الهدوء والجمال ، فى الوقت الذى يحتفل فيه الوطن العربى بأسره بعام جديد يضاف إلى عمر الدكتور طه حسين المديد باذن الله ، يكتب أنيس منصور نص حوار دار بينه وبين دار أخبار اليوم جاء فيه :

« - أنا عارف طه حسين بيموت فى الساعة دى ليه ؟ طول عمره متعب . . الله يرحمه بقى !

- ومن حق هو مات إزاى ؟ أكيد مات ؟ والا أنتم تتعجلون وفاته !

- طيب عال . . طه حسين أزهرى ولكن ثار على الأزهر وخلع العمامة والقفطان عندما دخل الجامعة المصرية . . بل خلع العمامة من أساليب الكتابة والتفكير ، وارتدى قبعة تحت الجلد . . .

- مش مفهوم الكلام ده .

- . . . والناس يعرفون طه حسين الملحد . .

- ولكن عدل عن الإلحاد وله كتب عن السيرة وعن النبى . . .

- بينى وبينك ولا عـــدل ولا حاجة . .

لا طه حسين ولا العقاد ولا الحكيم ولا الدكتور هيكل . . صحيح كل واحد منهم له كتاب عن عن النبى ولـكن اللى فى القلب فى القلب . .

ده مش للنشر . . وسافر طه حسين إلى باريس ودخل السوربون . . وهو يعتمد ذراع جميلة . . لقد أحبته بنت صاحبة البيت وتزوجها .

- اسمها إيه ؟

- أظن اسمها سوزى . . أو سيزان . . »

(ص ٤٤ و ٤٥) .

إنى خجل لمجرد نقلى هذه السطور الآثمة لكل نفس عربية ، ولكنى أردت أن أقرنها بمقاله عن الذوق . . بدون تعليق ، ولا أعرف كيف تسمح دار نشر - يملكها القطاع العام أو القطاع الخاص - بنشر كتاب تهدر فيه كرامة كل مفكرينا العظام على هذا النحو ؟ !

وسنحاول أن نمر سريعاً - بمقتضى الحال - على ما نعده أخطاء وقع فيها المؤلف ، لنصل بعدها إلى دراساته السبع المنشورة ضمن مواد الكتاب .

تحت عنوان « الذى هو أبقى من الزمن » يحدثنا الكاتب عن ندوة دارت فى الجامعة حول القصة ، اختتمت بقوله « الفن لا يتغير . . لأن الفن قوالب . . قواعد ثابتة . . والفنان يتغير ويتبدل فى داخل هذه القوالب . . . » (ص ٦٢) ولكنا نرى أن الفن يتغير كالفنان تماماً ، أن قواعده غير ثابتة ، وقد تحدث المؤلف ذاته عن أدب اللامعقول أو العبث وعن الأدباء الصاخبين فى لندن وعن القصة الفرنسية الحديثة وروب جرييه . . وعن جريس وبيكيت ويونسكو . . . بل وعن توفيق الحكيم أيضاً .

وفى مقالة أخرى يجرى الحديث المعاد عن بؤس زوجات الأدباء وضيق الأدباء بزوجاتهم . وفجأة يتحول الكاتب عن حديث الأدب إلى حديث الرياضة وكرة القدم ، وبالرغم من اعتراف المؤلف قائلا : « إذا أردت « تحييد » أى مناقشة أو « تمييع » أى موضوع فليس عليك إلا أن تتحدث عن الكرة . . » (ص ٧٦) بالرغم من هذا الاعتراف بخطورة اندفاع الجماهير إلى الكرة وحماسهم الذى يحرفهم عن أى اهتمام جدى بأمور بلدهم ويعطيهم نوعاً من السلبية والميوعة تجاه بناء بلدهم ، إلا أن المؤلف يؤمن بضرورة اندفاع الملايين نحو الكرة بهذا الشكل الخارق للعادة . ورأينا فى الكرة ليس رأياً وحيداً ، فقد سبق إليه كل من الأستاذ غالب هلسا فى مقاله « الثورة والأنموذج » (راجع الآداب عدد ديسمبر ١٩٦٥) والدكتور فؤاد زكريا فى مقاله « السلبية وكرة القدم والصراع الفكرى بين الشباب » ؛ (راجع الطليعة عدد فبراير ١٩٦٦) .

وحديث آخر فى السياسة ،عن الزنوج الأمريكيين ، « لأن هذا الرجل أسود » . يذكر أن عدد الزنوج الأمريكيين : « ١ مليون » بينما أن عددهم : «٢٠ مليون» ، ويذكر أن نقل الزنوج من أفريقيا تم منذ ١٤ قرناً ثم يعود إلى ذكر تاريخ القرن الثانى عشر كبداية لنقل الزنوج إلى أمريكا (ص ٣٠٣) . على حين أن أول غزو استعمارى قامت به السفن البرتغالية لأفريقيا تم عام ١٤٤٤ . (راجع كتابنا : دفاع عن الزنوج ص ٣١) ويؤكد أنيس منصور أن الزنوج «لم يحملوا معهم إلى أمريكا ثقافة ولا حضارة ولا ديناً» (ص ٣٠٣) وفى صفحة تالية يذكر النقيض فيقول « .. فبراعة الزنوج فى المصارعة ، جعلت الرجل الأبيض ينسى ألوانهم ، ولا يذكر إلا تفوقهم عليه . وكذلك فى كرة القدم . وفى موسيقى الجاز العنيفة التى نقلها الزنوج عن حياتهم الأولى فى أواسط أفريقيا .. ولا تزال أصواتهم الخشنة الزنجية تهز القلوب فى أوروبا وفى أمريكا ... » (ص ٣٠٥) وقد بينا فى كتابنا « دفاع عن الزنوج » تأثير الزنوج فى الحضارة الأمريكية وكيف حمل الزنوج فنونهم إلى أمريكا فراجت الآلات الموسيقية الإفريقية الأصل والأغنيات الزنجية ، فموسيقى الجاز الأمريكية المشهورة ، موسيقى زنجية .

ثم اعترف لنا المؤلف بانتحاله لأسماء أنثوية ليكتب عن الأزياء وشئون المرأة ، انتحل ثلاثة أسماء : « أحلام شريف ، وسيلفانا ماريللى ، ومنى جعفر » ، وأنه ارتكب سرقة أدبية (! !) إذ ترجم حديثاً كتبه مورافيا مع صوفيا لورين ووقعه باسم أحلام شريف . (ص ٢٩٩) .

باقى مقالات الكتاب تناقش موضوعات كثيرة مختلفة ومتنافرة ، من استقالة خروشوف إلى صخب أديبات لبنان ، إلى أوهام محمد عبد الوهاب «من غير مناسبة» وهذا هو نص تعبير المؤلف (ص ١٧٩) إلى توفيق الحكيم وتجربته فى اللامعقول إلى رفض سارتر لجائزة نوبل ، إلى شارلى شابلن وطرده من أمريكا ، إلى حديثين جادين عن الشاعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، والروائى العربى الأستاذ نجيب محفوظ وقصته « اللص والكلاب » . . وقد افتقدت هذه الكتابات — كثيراً — روح العمق والتركيز . . .

فاذا انتقلنا إلى الدراسات التى احتواها كتاب « يسقط الحائط الرابع » وجدنا أولاها دراسة عن العقاد فى سبع مقالات ، عن حديث العقاد فى التليفزيون ، وآرائه فى المرأة وأن مكانها الطبيعى فى البيت تاريخياً وبيولوجيا ، ومن هذه الآراء ، رأى العقاد فى الأدب الجنسى ، ووصفه له بأنه أدب المناظر الجنسية ، مع إشادته بأدب الكاتب الإنجليزى د. هـ. لورنس الذى تناول الجنس بعمق وفن . وباقى المقالات تعرض للضوء زوايا شخصية طريفة من حياة العقاد فى نومه ويقظته ، واهتمامات العقاد بالموسيقى والغناء وجرد لمكتبة الأسطوانات الخاصة به ، وكيف كان العقاد يتحدث وهو على فراش الموت — عن عبقرية اللغة العربية — وأهم صورة تهز قلوبنا جميعاً ، هى قصة الأسطوانة الغريبة الحبيبة إلى قلب العقاد المسجلة فى نسختين التى يديرها العقاد فيسمع صوت الطفلة الحبيبة إلى قلبه وصوت سيدة تقول لها : « قولى إنك مبسوطة . قولى له سعيدة يا بابا ! .. قولى له أنا شفت المعرض ! » (ص ١٥٠) نواح كثيرة شخصية ولكنها تنير لنا زوايا هامة فى حياة المفكر العظيم .. خفة ظله ، قوة إقناعه ، نهمه للقراءة ، دقته فى مواعيده ، دقته فى كل كلمة يكتبها مهما كلفته الدقة ، ذاكرته القوية ، ثقته فى نفسه واعتزازه بمقدرته الأدبية على الكتابة فى أى موضوع ، حبه وأثره فى أدبه ، وقوة إرادته .



ثانية دراسات الكتاب عن مارلين مونرو وأثرها فى الأدب الأمريكى ، وهى دراسة حالفها التوفيق . فشرح كيف تحولت الممثلة الأمريكية من القالب الجنسى الذى أراده لها تجار الرقيق الأبيض ، أصحاب السينما ، إلى عالم الثقافة الرحب الطاهر العميق الذى فتحه لها زوجها الكاتب الأمريكى آرثر ميللر ، وإخفاقها وإخفاق آرثر ميللر فى حمايتها من الوحدة ومن السقوط فى هاوية الشهرة الجنسية الفارغة ، لقد عاشت حياتها سجينة وحدتها بالرغم من كل العالم الذى يحيط بها . وماتت فى الحياة ، وعاشت فى الأدب ، فى مسرحية « بعد السقوط » التى ترجمت أخيراً إلى العربية .

الدراسة الثالثة عن البرتو مورافيا بعنوان «هذا الأديب لا ينتمى » ، تحدث فيها المؤلف عن لقاء له بالقاص الإيطالى البرتو مورافيا ، ويتميز هذا المقال بدقة تامة فى وصف التفاصيل الصغيرة لسلوك مورافيا وتصرفاته ، ولكن أنيس منصور خلع على مورافيا صفة أديب البرج العاجى لابتعاده عن الخطوط السياسية ، وذلك بالرغم من الدور الخطير الذى لعبه مورافيا فى الحرب ضد الفاشية خلال الحرب العالمية الثانية . فالمعروف أن البرتو مورافيا بدأ حياته سياسياً ، مراسلا أجنبياً فى لندن وباريس وغيرها من عواصم أوروبا ، لصحيفتى « لاستمبا » و « لاجازتا دلبوبولو » الإيطاليتين ، وفى السنوات الأخيرة من حكم الفاشية تعرضت كتبه للمصادرة فاضطر لتحرير مقالاته باسم مستعار . وإبان الاحتلال الألمانى لإيطاليا ، أخذ يختبئ فى الجبال حتى جاءته الحرية فى مايو ١٩٤٤ . وبالرغم من شهرته كأديب للجنس إلا أن بعض كتبه لها مضمون سياسى صارخ . (راجع : Roman Tales (A. Moravia - Penguin Books, 1957 وتتناول الدراسة أيضاً زوايا شخصية منه ، تركيب جسمه . طريقة تدخينه ، علاقته بزوجته . . ملامح وجهه . « وهو عندما يتكلم لا تظهر على وجهه أية علامات ولا أية انفعالات . فعيناه لامعتان كأنهما خرزتان باردتان . وأنفه محدد حاد أيضاً . . وشفتاه رفيعتان . وشفته العليا مزمومة قليلا . . وشفته السفلى فى حالة تمرد كأنها لا تريد أن تلتصق بالعليا أو حتى ترتبط بها . أسنانه لامعة . اثنان منها من لون مختلف . . والشعر الأبيض قد غطى جانبى الوجه . وبدأ الشعر

يتساقط فى أعلى الجبهة .. » (ص ٤٠٣) كما تحتوى هذه الدراسة أيضاً على مناقشة جادة مفيدة تتناول أدب البرتو مورافيا وطريقته فى الكتابة وآراءه فى الرواية النفسية وفى لورانس وديستوفسكى وشكسبير وفى خلال كل ذلك كان أنيس منصور مهتماً بمتابعة أشياء أخرى بعيدة عن أدب البرتو مورافيا ؛ كعد أسنانه الذهبية ، ومعرفة نوع العطر الذى يستعمله مورافيا .. إلى غير ذلك من الزوايا الغريبة التى اتخذها المؤلف بؤرة لرؤياه .

رابع دراسات الكتاب عن الأديب الأسبانى الشاب فرناندو آربال .. الذى عاش حياة مرة كئيبة إلى جوار مدينة مليلة بمراكش . وتتلمذ على كتابات بيكيت ويونسكو وآداموف إذ نقل معظم مسرحياتهم العبثية إلى الأسبانية .. وفر إلى باريس ، حيث قدم أولى مسرحياته التجريدية « التوزيع الموسيقى التى فشلت كسائر مسرحياته بسبب انعزالها وتشاؤمها ، وإيمانها بعبث الحياة ، وعدم جدواها .. وقدم أنيس منصور فكرة عامة عن هذه المسرحيات وأجزاء من حوارها .. ولكن تحولا خطيراً أصاب الأديب الأسبانى فتحول فى آخر مسرحياته واسمها « زهرة برية » إلى التفاؤل والإيمان بالناس وبالحياة ، وبقدرة الإنسان على التغلب على اليأس ، لقد كف آرابال عن التشاؤم والعزلة .. وهذه إحدى الدراسات الجديدة التى قدمها أنيس منصور فى هذا الكتاب ، وهى دراسة جديرة بالقراءة حقاً ، لأنها دراسة جادة واضح فيها الجهد الذى بذله الكاتب فى كتابتها .

ويساير المؤلف موجة الاختصارات التى تجتاح الصحافة العربية ، فيجرى اختصاراً فى اسم يوجين يونسكو فيجعله ى . ى . ويصر على استعماله طوال دراسته الخامسة عنه . وقد ابتذلت مسألة الاختصارات حتى صارت خطراً على اللغة ذاتها . وإذا كان داعى السرعة يصلح لأن يكون مبرراً للاختصار فى اللغة البرقية للصحافة ، إلا أن هذه الاختصارات غير جائزة بالمرة فى كتاب ضخم ، يفترض فيه أن يكتب على مهل ليعيش . وقد وصل الأمر بالمؤلف إلى الاستخفاف بيوجين يونسكو وبعقلية القارئ ، وبعملية الكتابة ذاتها ، ها هو يصرح فى مستهل دراسته قائلا : « اختصاراً لاسم يونسكو سأكتفى بأن أشير إليه هكذا : « ى . ى » وكان فى استطاعتى أن أطلق على هذا المؤلف أى اسم آخر (كذا) فأقول إنه يوجيسكو .. أو يويسكو .. أو ازيكو .. أو كيف حالكو .. أو أى اسم آخر .. » (ص ٤٣٨) والمدخل فى أية دراسة أدبية عند أنيس منصور لا بد أن يكون بالحياة الشخصية للأديب موضع الدراسة ، هو هنا يحكى عن تأثر يونسكو بأشباح باريس فى طفولته ، وعن أثر فن العرائس (الأراجوز) فى خياله ، وعن رؤيته لحادث قتل وإيمانه بعزلة القاتل ، بوحدته .. وقد تحول يونسكو من الفلسفة إلى الكتابة المسرحية . وقادنا أنيس منصور فى بحثه إلى أثر حياة يونسكو الخاصة فى أدبه وأثر فشله المسرحى الأول فى مسرحياته . وعرض سريع لمسرحيات يونسكو ، « المطربة الصلعاء » ، « الكراسى » ، « العربة الشقراء » ، « الخرتيت » . وهذه الدراسة تعد المناقشة الوحيدة من المؤلف للعمل الأدبى ، ففى باقى صفحات الكتاب كان أنيس منصور مجرد شارح لأفكار الغير : « وهنا فقط يجب أن ننفصل عن ى . ى . بسرعة . فهو يرى أن الإنسان إما أن يعيش وحده . وإما أن يأكله الناس . فهو إما أن يكون خرتيتاً .. حيواناً ضمن قطيع .. وإما أن يموت من الوحدة كانسان .. ولا يرى ى . ى . أن هذا الإنسان من الممكن أن يعيش مع الناس وبالناس وللناس .. وأنه من الممكن أن يحتفظ بفرديته أيضاً ... » (ص ٤٥١) و « أن عيب مسرحية الخرتيت هى أن المؤلف لم يضف إليها بضع دقائق . ولو فعل

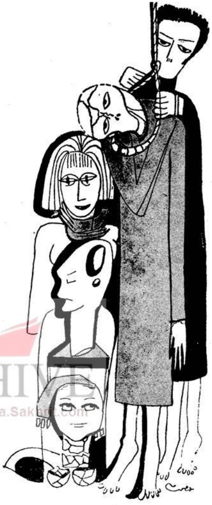
لرأينا البطل – وعند ى . ى . لا يوجد أبطال – وقد تحول إلى خرتيت قطعاً . . ومجرد حرص ى . ى . على أن يجعل المسرح خالياً من الناس ، مليئاً بالحيوانات ، هو حرصه على أن يؤكد لنا صعوبة أن يكون الإنسان وحده . . فلا بد له أن ينتمى . . لا بد له من أن يدرك ما فاته ، وإلا فاته كل شيء . . ومسرحيات ى . ى . الأخيرة ومقالاته تؤكد أنه هو أيضاً قد تحول إلى خرتيت . . أى أنه انضم . . أى أنه انتمى إلى المجموع . . » (ص ٤٥٢) .

الدراسة السادسة بعنوان « أشياء . . وأشخاص . . ومواقف . . » عن الفن والواقع . . وهو يرى أن تجميد الواقع فى قوالب جامدة ، أو الارتفاع به إلى مستوى الحلم ، قضاء على التجربة الحية ، وقضاء على الفن ذاته . . بينما نحن نرى أن الفن ليس إلا الواقع فى لحظة حلم . . وهو يرى – بحق – أن العبث ليس عبثاً ، وأن الكتاب العابثين جادون فى عبثهم ، جادون فى محاولة البحث عن الحقيقة بطريق العبث . . بالرفض . .

وعن الأديب الفرنسى « جوستاف فلوبير » (١٨٢١ – ١٨٨١) تدور آخر دراسات الكتاب ، وأفضل صفحاته ، وأكثرها عمقاً وتركيزاً . فيناقش أنيس منصور فى البدء أساس الدراسة الأدبية ، هل هو العمل الأدبى وحده ، أم هو الأديب ذاته ، أم هى ظروف عصره ومشاكله وواقعه الاجتماعى . . وهو يؤمن فى نهاية تساؤله – ونحن معه – بأن الأديب مهما انعزل عن مجتمعه إلا أنه ظاهرة من ظواهر المجتمع والعصر والبيئة والأحداث الخاصة وأن أى أديب هو نبتة مجتمعه وابن عصره ومرآة حياته . . وعزلة فلوبير ناشئة من مقدرته المالية كبورجوازى على العزلة ، وموقف طبقته من المجتمع . . ثم من ملامحه الخاصة ؛ نوبات الصرع التى تفقده وعيه وتعزله عن العالم من حوله ، أنثويته وخوفه من الناس ، حياته بين أسرة من الأطباء تمتهن تشريح الإنسان ببساطة . وبعد حديث عن روايات فلوبير وطريقته الشخصية فى الكتابة ؛ إذ كان لا يكتب إلا إذا ارتدى ملابسه كاملة ، وكان لا يكرر الكلمة الواحدة أكثر من مرة . . ناقش أنيس منصور بالتفصيل قصة فلوبير الشهيرة « مدام بوفارى » التى ترجمها كاملة الفقيد الدكتور محمد مندور وصدرت مؤخراً فى بيروت . وآراء النقاد فى القصة ومصادرة السلطات الفرنسية لها لأسباب أخلاقية ، ثم السماح بنشرها بعد تدخل أحد أفراد أسرة نابليون . وأهم رأى قيل فى الرواية هو أن « مدام بوفارى تصور حياة فلوبير ذلك الإنسان الغارق فى الكتب المنعزل عن الناس وعن الحياة تماماً . ومأساة مدام بوفارى هى أنها امرأة حالمة قررت شيئاً خطيراً هو أن تفرض أحلامها على الواقع . . » (٤٨٦) ويرى أنيس منصور مع « اليوت » أن الفن يخضع لمقاييس أخلاقية على خلاف ما رآه مع أوسكار وايلد من أن الفن إما عمل ردئ أو عمل جيد . وفى نهاية الدراسة يحدثنا عما أسماه بالمنهج التقدمى التراجعى الذى يؤمن به مع سارتر ، وهذا المنهج يستعين بكل ما فى حياة الأديب على دراسة أدبه . ويختتم أنيس منصور صفحات كتابه الكبير حجماً ، معترفاً بالسرعة وعدم الترابط قائلا عن دراسته لفلوبير : « وليس من الضرورى أن تكون هذه الصورة كافية فى الدلالة على هذا الأديب . فهى لا تزيد عن كونها وجهات نظر سريعة وغير مترابطة إلى حد ما » . (ص ٤٩١) لقد حكم الكاتب على عمله . . وكان حكماً عادلا !

بقى أن نتساءل : هل سقط الحائط الرابع بهذه الزوايا الشخصية التى عرضها الكتاب الأدباء والفنانين والفلاسفة . . . لا أعتقد !

أحمد محمد عطيه



رأس الآخرين

تأليف

مارسيل إيميه

لا شك أن مما يثرى حياتنا الثقافية بوجه عام ، وحياتنا المسرحية بوجه خاص ، هو ما يصدر بين الحين والحين من مسرحيات مترجمة تطلعنا على تطورات حركة الفنون فى العالم . .

ولا شك أيضاً أن هذه المسرحيات المترجمة تفيد الحركة المسرحية فى بلادنا فى تطعيمها بالجديد فى طرق التكنيك الفنى ، والقواعد التى ينبغى للمسرحية السليمة أن تتبعها .

وجميل فى هذا السبيل أيضاً أن تتعدد مصادر النشر المسرحى ، أو الجهات التى تتولى إصدار سلاسل مسرحية ، أو عدداً من المسرحيات المتفرقة ، فكل هذا النشاط خطوات لا بد منها لفتح كافة نوافذ المعرفة أمام نهضتنا المسرحية .

ترجمة

الدكتور غنيمى هلال

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٠ص ١٧×٢٤سم الثمن ١٠ قروش

واهتمام المسرح العالمى بالذات باصدار سلسلة « مسرحيات عالمية » اتجاه يحمد له ، ويؤخذ دليلا على الجهود المخلصة التى يقوم بها المسئولون عنه .

وكانت مسرحية رأس الآخرين للكاتب المسرحى الفرنسى مارسيل ايميه بداية طيبة — رغم ما بها — لهذه السلسلة . فمارسيل ايميه لم يكن معروفاً فى حقلنا المسرحى المعرفة الكافية ، فضلا عن أن أدبه لم يأخذ حقه بعد فى الترجمة العربية . . فهو نموذج رائع للجهد الشخصى ، والبناء الذاتى الذى يتكفل به صاحبه لنفسه دون أن ينتظر الدعوة من الآخرين ، فقد نشأ فى أسرة فقيرة واشتغل فى بدء حياته بمهن كثيرة قبل أن يتفرغ نهائياً للأدب، إذ كان دلالا لشركات التأمين وبناء ، وبائع صحف ومجلات ، وعمل كومبارس فى السينما ، وكما يقول الدكتور غنيمى هلال فى تقديمه للمسرحية ، بدأ ايميه حياته الأدبية قصاصاً فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، وقد تكشفت قصصه عن مباذل الحياة اليومية والآفات الاجتماعية ، ولم يقف بغايته عند تصوير الواقع ولكنه هدف منه إلى تحديد موقفه تجاهه بما يضمن إصلاح المعوج ، وكان الأدب فى نظره هو غذاء الفكر قبل أن يكون استثارة للحواس ، ودخل إيميه ميدان التأليف المسرحى عام ١٩٤٧ وله حتى الآن خمس مسرحيات أولاها : لوسين والجزار (١٩٤٧) ، وثانيها مسرحية كلير إمبار (١٩٥٠) وثالثها رأس الآخرين — التى نعرض لها بالتحليل والنقد فى هذا المقال — (١٩٥٢) ورابعها طيور القمر (١٩٥٧) . وهذه المسرحيات كلها تتفق فى شىء واحد وهى هجاء العادات الاجتماعية الذميمة مثل الكذب والادعاء والوصولية ، وإذا كان مارسيل إيميه يميل إلى المبالغات أحياناً فى تصوير الحدث فهو يرمز بذلك إلى واقع لا ينبغى إغفاله ، وخاصة فى المجتمع الفرنسى الذى عاش فيه فتشرب بعاداته وطرائق معيشته ، بل إنه فى هذه المسرحية التى نعرض لها يتمثل مكان المسرحية جمهورية خيالية دعاها باسم جمهورية بولداثى ، وتصور أن رئيسها قد وصل إلى منصبه بالارهاب والقتل ، فقد كان زعيما لعصابة أخذت تمد نشاطها وتفرض سطوتها حتى سيطرت على الجمهورية وأخذت فى حكمها .

* * *

والمسرحية بعد ذلك تتكون من أربعة فصول تتعدد مناظرها حتى تصل فى كل فصل إلى أحد عشر منظراً أو أكثر ، وقد أعطى هذا التعدد الحركة المسرحية حقها ، بحيث بدت غير مملة ، فضلا عما فى هذا من حرفية ملمة بالتكنيك المسرحى وفهم كامل لمتطلبات الحركة المسرحية .

أما موضوع المسرحية فهو يدور فى الجمهورية المتخيلة « بولداثى » فى فترة ما بعد الحرب ، ويتلخص محوره فى حكم قضائى خاطئ صدر من المحكمة ضد متهم بالقتل يدعى « ڤالورن » أما من أصدر الحكم عليه — وهو الاعدام — فهو وكيل النيابة « مايار » .

وتبدأ المسرحية بعد إصدار حكم الإعدام فى منزل « مايار » حيث يعلن أمام زوجته « جوليت » انتصاره القضائى باصدار هذا الحكم ، ويحضر صديقه وكيل النيابة « برتولييه » مهنئاً بهذا النصر ويدعوهما للعشاء ، تذهب معه زوجته ، ويبقى مايار لانجاز بعض أعماله ليلحق بها بعد قليل ، وفى هذه الأثناء تدخل « روبرت » زوجة برتولييه على مايار — وحده — مهنئة إياه بهذا النصر ، ونعلم من الحوار أنهما عشيقان ، وفجأة يدخل عليهما المحكوم عليه بالإعدام بتهمة سرقة عجوز وقتلها ، ونعرف أنه استطاع الهرب واقتفاء أثر مايار حتى عرف بيته ، ونفاجأ بأن علاقة أخرى كانت قد نشأت

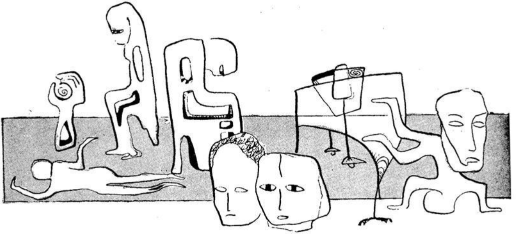
بين ڤالورن وروبرت فى ليلة الحادثة ، وهذا يثبت أنه لم يرتكب الجريمة لأنه كان منشغلا فى شيء آخر ! ، وأنه لم يشأ أن يذكر ذلك فى التحقيق انتظاراً لأن تدلى روبرت بشهادتها وتنجيه من حكم الإعدام ، ويعترف بأنه قد كشفها على حقيقتها بخيانتها اياه مع صديق زوجها المخلص . ويهدد مايار بالقتل إن لم يجد للحكم الذى أصدره حلا يبرئه ويضع القاتل الحقيقى فى القفص ، وحتى يفعل ذلك يقترح أن ينزل فى ضيافته — مع التهديد — لبضعة أيام ، وبالفعل يخضع مايار لهذا الطلب صاغراً ، وتحدث مشادة بين مايار وروبرت حول الفضيلة والأخلاق تنتهى باستدعاء زوجها واطلاعه على الأمر فتحدث مشادة أخرى بين وكيلى النيابة ، ويختم الفصل الأول باتفاق الجميع على تبرئة ڤالورن بعد البحث عن متهم آخر تفادياً للفضيحة .

وفى الفصل الثانى تحدث علاقة مشينة بين ڤالورن وزوجة مايار — مضيفه حتى يبرأ من التهمة — ويكتشف برتولييه وروبرت هذه العلاقة فى الوقت الذى يعلن مايار أنه وجد متهماً آخر استطاع أن يلفق له التهمة ، ويخرج وكيلا النيابة لبحث هذا الأمر ، وتبقى الزوجتان جوليت وروبرت تتراشقان الألفاظ والسباب ، بسبب حب كل منهما لڤالورن ، ويدخل ڤالورن على هذه المشادة وينحاز لجوليت ضد روبرت لأن الأخيرة لم تعمل على تبرئته بالشهادة معه . . مما يحنق روبرت على ڤالورن فتبيت له أمراً . ونعرف — فى الفصل الثالث — أنها اتفقت مع اثنين من أتباع رئيس الدولة « الساندرونيسى » ، على قتل ڤالورن نظير مبلغ كبير تسلمه لهما ، ويعدان كميناً له بالفعل ، ولكنهما يقبضان خطأ على مايار — فى منزل روبرت ونكتشف أن بينهما علاقة آثمة أخرى ! — ويأخذان فى تهديده وإيذائه ، ولكن روبرت تخلصه منهما باحضارها المتهم الحقيقى ڤالورن الذى واعدته بزيارتها فى هذا الوقت . . . ويستطيع ڤالورن بحيلة لطيفة أن يتغلب على الأجيرين ويجبرهما على حبسهما فى الدولاب ، ويدعى أنه قتل ، وحين تدخل روبرت معتقدة أنه ڤالورن قد قتل بالفعل ، ينهض ڤالورن وتحدث مشادة بينهما يوصمها بالخيانة وتتهمه بخيانتها مع جوليت . ويدخل برتولييه ومايار ويعرفان الحكاية ويخرج ڤالورن لهم الأجيرين من الدولاب ، ويرجعان المبلغ الذى قبضاه بعد أن يصرحا أنهما من أتباع « الساندرونيسى » ، ويتفق الجميع على التوجه لمقر الساندرونيسى للتفاهم معه لتبرئة ڤالورن ومحاكمة القاتل الحقيقى .

وفى الفصل الرابع والأخير نقف على الصورة الهازلة للحكم ، وكيف يعامل الساندرونيسى الرؤساء والوزراء وكافة الموظفين على أنهم تروس فى آلة كبيرة هو رئيسها وحاكمها والآمر الناهى فيها ، وكيف أنه لا يتورع عن القتل أو الايذاء لمن يعترض طريقه أو يخالف له أمراً ، وعندما يذهبون إليه نفاجأ بأن ڤالورن ما هو إلا تابع من أتباع رئيس الدولة الساندرونيسى ، وأن وكيلى النيابة ما هما إلا تابعين له أيضاً يأتمران بأمره ويحركهما كيف يشاء ، وتنتهى المسرحية بتبرئة ڤالورن وتحويل الحكم عليه إلى غيره ، وأن العلاقة الآثمة بينه وبين روبرت رغم ما فعلته ضده وسببته له يمكن أن تستمر رغم ما حدث .

* * *

المسرحية إذن تتناول أكثر من قضية يمكن إثارتها ، أهمها قضية الأخلاق والفضيلة ، فقد صورت لنا العلاقات الآثمة بين هذه المجموعة من البشر أوضح تصوير ، وأخطر من ذلك أوضحت أن الضعف البشرى موجود فى كل نفس ، وأن



المغريات يمكن أن تسلك به إلى أحط الدرك . . والذى نأخذه على المسرحية فى هذه النقطة أنها أوضحت تلك العلاقات بصورة بارزة وجعلتها هى الطابع الغالب والصريح المباشر طوال الأحداث ، وقد يكون هذا صورة لمجتمع منحل الروابط فاسد العلاقات ، إلا أنه ما كان ينبغى أن يصور هذا بتلك الانكشافية الواضحة .

القضية الثانية التى يمكن إثارتها خلال هذه المسرحية هى الأحكام التى تمس القانون والعدل ، فلا شك أن تصوير وكلاء النيابة — حتى ولو فى مجتمع وهمى فاسد — بهذه الصورة فيه إساءة كبيرة للصورة التى فى مخيلة الناس بالنسبة للقضاء والأحكام ، وقد يكون فى المسرحية دعوة غير مباشرة لضرورة تعديل القوانين والأحكام بشكل يتلاءم مع الحق ، إلا أنه كان ينبغى أن يكون ذلك من خلال قضاة عدول ليسوا ألعوبة فى يد الغير ، ولا تجرى أهواؤهم مجرى المصالح الشخصية أو التأثيرات الأخرى ، فلو أن المسرحية صورت هذه الأحكام من خلال أناس أكثر حرصاً على الفضيلة والقيم ، لكان أجدى على القارئ أو المشاهد لها عرضاً مسرحياً .

وهناك قضية ثالثة هى قضية سيطرة الشر والجريمة على الخير ، فقد صورت المسرحية مجتمع بولدانى الوهمى على أنه فاسد متعفن تحكمه عصابة تتاجر بكل شىء فى سبيل الوصولية ، ولم تبرز لنا إمكان قيام عدل أو خير ، فكل النفوس مريضة ، وجميع الذمم خربة ، ولا يأمن أى شخص على نفسه أو ماله أو عرضه ، مجتمع كهذا لا وجود له فى الواقع ولا يمكن أن يوجد ، وكان أحرى بالمسرحية أن تعرض للجانب الخير — من خلال بعض الشخصيات الرئيسية — من أن تسود نغمة الفساد طوال المسرحية بحيث لا يجد القارئ أو المشاهد منفذاً للخير أو بصيصاً لإمكان قيام الحق ، وهذه نظرة سوداء متشائمة ما كان ينبغى أن تسود فى

المسرحية بطولها . وقد نجد عذراً للمؤلف أنه صادف فى حياته الخاصة صوراً تتواءم مع ما صوره فى المسرحية ولكن مهمة الكاتب أن يكون داعية للحق والخير وإن غلف هذا أحياناً بغلافات سوداوية متشائمة ، هذه الدعوة للخير لا وجود لها فى هذه المسرحية . .

أما القضية الأخيرة التى يمكن أن تثيرها تلك المسرحية فهى قضية تخصنا ، تخص دور النشر عندنا ، ودور المترجمين ، فصحيح أن مكتبتنا المسرحية ما زالت فقيرة فى هذا الميدان — رغم ما ترجم حتى الآن من مسرحيات — وما زال جمهورنا القارئ فى حاجة ماسة للاطلاع على أكبر قدر ممكن من الترجمات الجيدة ، ولكن أى مسرحيات تترجم ؟ وأى مسرحيات تتلاءم مع مسرحنا وجمهورنا ؟ وأى لون درامى يصلح فى توجيه شعبنا فى مرحلة نبنى مجتمعنا فيها على أسس اشتراكية قويمة ؟ أهذا اللون العابث من المسرحيات ؟ أقول : لقد وقعت السلسلة فى الخطأ حين بدأت بهذه المسرحية ، واشترك فى العملية مترجم فاضل كنا نود أن يكون اختياره أكثر دقة وأقوم سبيلا ، وليس على سبيل إغراء الجمهور المشترى لهـــذه المسرحيات كان ينبغى أن تبدأ هذه السلسلة هذه البداية ، إن المجال أمامنا منفسح ، وآلاف المسرحيات الجيدة تغرق أسواق العالم ، ويمكن ترجمتها على الفور . . ولكن قد يمسح هذا الخطأ فى البداية ما وافتنا به هذه السلسلة بعد ذلك من مسرحيات جيدة .

وقد وفق المترجم — وفى علمنا أن هذه أول مسرحية يترجمها — فيما ذكره خلال تقدمته للمسرحية من أنه آثر أن يحرص على التفاوت فى أسلوب الترجمة ، فقرب كثيراً من الجمل من لغة الحديث العادية على حسب الشخصيات التى يجرى المؤلف الحوار على لسانها ، وبذلك أوفى بالأصل ، وجارى واقع الشخصيات مع المحافظة على اللغة العربية حرصاً منه على الابقاء على التفاوت فى الحوار بين صنوف الأسلوب . ولكن مع ذلك لا تخلو المسرحية من هنات هنا وهناك فى اختيار الألفاظ العربية ، أو الدقة فى ترجمتها ، ووجدنا أكثر من لفظ «متقعر» يجرى على لسان أكثر شخصيات المسرحية ضحالة ، ولا يمنع هذا من كلمة حق فى جانب الدكتور غنيمى هلال وهى أنه منع كثيراً من الألفاظ الجارحة من أن تأخذ ترجمتها « الحرفية » إلى العيون الفاحصة . كما وفق فى عرضه التقديمى للمؤلف وأعماله ، ونود أن يتابع مؤلفات مارسيل إيميه فيعطينا ترجمة لأكثر من لون أولى له ، فعلينا إلى جانب ترجمة المسرحيات ، أن نعرض لحيـــاة أصحابها عرضاً أميناً يكون علامة على طريق أدبائنا الشبان ليقفوا على أمثلة للكفاح الشخصى جديرة بالنظر والتأمل . .

وأود فى نهاية هذا المقال أن أقترح على القائمين على هذه السلسلة — إلى جانب هذا النشاط القائم وهو محمود — أن ينشروا ترجمات المسرحيات التى يقدمها المسرح العالمى وغيره وخاصة قبل أو أثناء عرضها على المسرح فهم بذلك يؤدون خدمة كبيرة لنشر الثقافة المسرحية ، كما أود أن أقترح أن يعنوا بنشر الآراء النقدية والتفسيرية التى تنشر عن المسرحيات سواء فى الخارج أو الداخل ، فلا شك أن كل مسرحية أخذت حقها من النقد والتقويم ، وليس ما يمنع من نشر رأيين أو ثلاثة لأعضاء لجنة المسرح العالمى أيضاً فى المسرحية المقدمة .. فاختلاف الآراء معناه تعدد وجهات النظر والجوانب فى العمل الواحد ، وهذا كله يساعد فى نشر الثقافة المسرحية . ويعطيها آفاقاً واسعة من الالمام والشمول .

محمد كمال الدين على يوسف



الغبى

تأليف : فتحى غانم

الناشر : مؤسسة روز اليوسف ١٣٣ ص ١٤ × ٢٠ سم - الثمن ١٠ قروش

تعتبر قصة الغبى عملا جديداً فى أدبنا العربى الحديث من الناحية الموضوعية والناحية التكنيكية ، إذ لم يتناول هذه الشخصية أحد من قبل مثل ما تناولها فتحى غانم . هناك مثل عربى قديم يقول : « أحمق من هبنقة » ، وهبنقة هذا جعل فى عنقه قلادة وسئل عن سبب ذلك فقال لأعرف بها نفسى . وحدث أن بات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته وتقلدها ، فلما أصبح هبنقة ووجد القلادة فى عنق أخيه فقال له يأخى أنت أنا فمن أنا ؟ ؟

والتحليل النفسى لهذا التصرف يقول إن إنية هبنقة وقدرته تتوقف على أمر عارض خارجى وهذا الاحساس معرض للفقدان إذا زال هذا العارض الخارجى . . والتعريف النفسى واللغوى للأحمق يحدده بأنه الإنسان الضعيف العقل الذى يجهل الأمور الجارية فى بيئته ، والصلة بين الحمق والغباء صلة قريبة فكلاهما ضعيف فى العقل يشوب تصرفاتهما الغباء .

وفتحى غانم فى « الغبى » يقدم نموذجاً لشخصية

الغبي الحقيقي ، ولقد جرده من تأثيرات البيئة التي نشأ فيها وعوامل الوراثة فيقول : « يجب أن نسلم منذ البداية أن تأثير البيئة لن يشغلنا كثيراً في دراسة شخصية محمود فكلما تقدمنا في البحث سنجد أنفسنا نبتعد شيئاً فشيئاً عن البيئة والمجتمع وننفصل عن العالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان ، حتى لا يبقى أمامنا إلا ذلك العالم المغلق الذي يعيش فيه محمود أعني عالم الغباء » .

أي أنه يدرس الغبي كنموذج مستقل بذاته من خلال تصرفاته وعلاقاته بالآخرين :

ولم يلجأ المؤلف إلى أسلوب السرد والتحليل في هذه القصة،ولكنه آثر أن يقدم الشخصية من خلال وجهة نظر الذين عايشوه واتصلوا به ومن خلال عدة مواقف تعرض لها في فترات مختلفة الزمان والمكان . وطريقة عرض الشخصية من خلال وجهات نظر الآخرين أسلوب لجأ إليه المؤلف من قبل في قصة « الجبل » و « الرجل الذي فقد ظله » ، وإن كانت في قصة الغبي ليست بالشكل الموجود في هاتين القصتين فهو يعرضها في إيجاز على هيئة تقارير وآراء من اتصلوا بالغبي فمدير مكتبه يصفه بأنه غبي وطيب ، والوزير يقول عنه إنه غبي ولكنه حمار شغل ومخلص ، ويعود بنا فتحي غانم إلى



اللحظة التي ولد فيها محمود الغبي من خلال تقرير الطبيب الذي أشرف على علاجه فيقول : « عاينت قطعة اللحم ، فوجدت أن اللحم ممتاز والعظم من نوع جيد والتكوين سليم مائة في المائة ،ولكن الذي أدهشني حقاً تلك البلادة غير العادية في جسد الوليد . فرغم أني فحصته وقلبته وقرصته بخفة ثم بشدة لم يلحظها أحد . . إلا أنه ظل صامتاً لا يصدر عنه صوت ، ولولا أني فحصت حلقه ولولا أن أمه أكدت أنه بكى مرة أو مرتين لقلت أن هناك خللا في حباله الصوتية » .

فمن هذا التقرير نتبين أن « محمود » ليس به عجز في أعضائه الخارجية مما تسبب عنه الغباء ، ونترك تقرير الطبيب إلى تقرير الباحث النفساني الذي أجرى عليها اختبار الذكاء في المدرسة ، فيقرر « أن الولد ليس معتوهاً ولكنه متأخر الفهم،فقد أثبت امتحانه أنه ضعيف الملاحظة ولا يستفيد من الخبرات السابقة ، وهذا التأخر العقلي من الممكن علاجه بتحريك انتباه الولد من ناحية ، وقد يتحقق ذلك بإحاطته باللعب الملفته للنظر والتي تجذب الانتباه . أما الناحية الثانية للعلاج فهي بتقوية وتنمية روابط الولد بأفراد أسرته » .

ونستنتج من هذا التقرير أن الباحث النفساني يتفق مع الطبيب في ضرورة استعمال وسائل مختلفة لتنمية الإحساس الادراكي لمحمود ، وهـــذه المحاولات التي بذلت من جانب الأم حسب إرشادات الطبيب لتنبه جهازه العصبي ليؤدي وظيفته الطبيعية أدت نتيجتها وإن لم تكن النتيجة المطلوبة،لأنه لم يؤد الحركات أداء طبيعياً تلقائياً،ولكنه أداء تقليدي مثلما تفعل أمه . ويفصح الدكتور عن قلقه وعدم ثقته في هذه الحركات فيقول : « ولكني لست واثقاً أن حركات الطفل أو انفعالاته تعبر عن شيء ، بل هي مجرد تقليد سطحي كما يفعل « القرد المدرب » .

وهذا الفعل الحركى التقليدى أصبح طابعه فى جميع تصرفاته ويتضح ذلك فى حفظه للدروس ، وسؤاله الدائم عن الشيء حتى يحفظه عن ظهر قلب ، وكذلك فى قبلة أمه التى تحولت عنده إلى حرف « ب » ، وقبلة الخادمة التى تحولت إلى حرف « س » ، كل شيء تحول عنده إلى رموز ليلتصق فى عقله التصاقاً يسترجعها كلما تعرض لنفس الظروف . وهذه الحالة يطلق عليها علماء النفس بالحركات الآلية النمطية stereotype إذ أن التفكير الاجترارى autistic thingking أى الإنسان يتلقى الأشياء ويقوم بأدائها كما هى دون ادخال أى شيء من تفكيره الذاتى ويرجع ذلك إلى أن هناك وظيفة تسيطر على مراحل ترقى العقل الإنسانى ، تسمى بالوظيفة الدائرية اللولبية . ويشرح ذلك الدكتور يوسف حلمى فى كتابه « مبادئ علم النفس العام » بأن الترقى لا يمثل بخط مستقيم مطرد ، بل بشكل دائرى لولبى ، ويرمز ذلك إلى أن كل عملية سيكلوجية تعود على أعقابها . لتنضج وتقوى قبل أن تواصل تقدمها فيقول : « أما إذا اقتصرت الحركة على مجرد الدور بدون التقدم إلى الأمام وقع الشخص فيما يعرف بالحركات الآلية النمطية ، أو بأحلام اليقظة أو ما يعرف بالتفكير الاجترارى » .

فمحمود من النوع النمطى الآلى وذلك قد يكون ناتجاً عن عجز فى المخ ، وهذا ما لم يوضحه الطبيب ، إذ كان من الواجب أن يقوم بالتشريح الفسيولوجى لفحص أجزاء المخ ليبين أسباب تقليده . ومحمود فاقد للاحساس الإدراكى الأولى فهو لا يتأثر بانفعال الحزن أو السرور أو اللذة أو عدمها . ويقول علماء النفس إن للتنبيه الحسى وجهاً إدراكياً يتمثل فى حركة إقدام أو إحجام ، ووجهاً تأثرياً متمايزاً عن الأرضية الوجدانية يتمثل فى الإحساس بالسرور أو الإحساس بالكدر . ويتضح ذلك من المواقف



التى تعرض لها. وإذا استعرضنا هذه المواقف نجد أنه فاقد لهذين الوجهين : الإدراكى والتأثرى ، ويتضح ذلك عند هجوم الكلب عليه إذ وقف مكانه ولم يحرك ساكناً ، والموقف الثانى عندما جمح به الفيل وبوالده فلم يبك ولم يبد عليه أى انفعال . والموقف الثالث حينما أمسك بالثعبان ولم يبد عليه الفزع أو الخوف .

هذه المواقف جميعها أكسبته صفات بطولية ولكنها صفات عارضة لا تلبث أن تزول من الأذهان بزوال الظروف ، ولأن الرائى ما أسرع أن يدرك بأن محموداً ليس طبيعياً . وفى هذه المواقف يعرى فتحى غانم الغبى ويكشف لنا عالمه الخاص الذى يعيش فيه ولا يعجبنا نحن الأذكياء ، وفى الوقت نفسه لا يبدو أن الغبى يهتم بأحكامنا .

وبعد أن يقدم هذه المواقف من البيئة التى يعيش الغبى فيها فى القاهرة ، ينتقل به إلى بيئة أخرى مختلفة فى عاداتها وثقافتها ، فينتقل إلى الريف ثم إلى أمريكا ففى الريف عقد صلة مباشرة مع أشياء لم يألفها الإنسان الذكى ، مع الحيوان والجماد والأشجار والزرع ، امتزجت روحه بجمال الطبيعة فتفاهما بلغة الرموز الوجدانية هذه اللغة التى لا يفهمها إنسان المدينة .

والكاتب يعتبر أن هذه الصلة بين الغبى وبين هذه الأشياء أول مراحل النمو الحقيقى ، الذى يمس الأعماق ولا يقف عند السطح لأنه « إذا كان الغبى عانى طوال حياته السابقة من محاولات الحفظ المتكرر للمعلومات التى لا يفهمها أو الكلمات التى يتشدق بها أو يرددها مذعناً للتكرار الذى يفرضه عليه الآخرون مثل أمه أو المدرسين فى المدرسة ، إلا أنه فى هذه المرة وجد صلة مباشرة مع كل ما حوله من الأشياء . سواء كانوا بشراً أو حيوانات أو جمادات عن طريق قراءة السلام وهو الطريق الذى لا يقره الأذكياء ولا يفهمونه لأنهم يرون بذكائهم ، الخارق أن الإنسان لا يقرئ السلام لأى مخلوق بشرى إلا إذا كان بينه وبين ذلك المخلوق صلة ما » .

لقد أصبح الغبى فى نظر أهل القرية مثالا للجرأة لأنه لا يخاف من « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وفى أمريكا ، يأتى بتصرفات ويجيب إجابات يحكم عليه فيها بالذكاء والدقة ويكون مثار دهشة وإعجاب الذين اتصلوا به من الأمريكيين . سأله أحد من التقى بهم :

— إننا من كاليفورنيا هل أنت من نيويورك ؟

— قال غ (وهو الحرف الذى أطلقه عليه المؤلف) أنا من حجرة فى الطابق السابع فى فندق من نيويورك .



— قالت المرأة هذه إجابة ذكية فلا أتصور أحداً من نيويورك .

ومعنى ذلك أن الحكم على الشىء يختلف باختلاف البيئة ، ويختلف من فرد إلى فرد طبقاً لمستواه الفكرى ، وبذلك يريد المؤلف أن يقول لنا إن المحيطين بمحمود من أهل بيئته لم يفهموه أو لأنهم لا يريدون أن يفهموه لأنهم يريدونه بهذه الصورة. فالوزير لا يستغنى عنه لأنه يقوم بعمله دون مناقشة أو تفلسف ، ومدير مكتبه يريده كذلك لأنه يستفيد من ورائه ، ونستثنى من ذلك زوجته التى بذلت مجهوداً لتعليمه الأمور العاطفية ونجحت فى مهمتها إلى حد ما . وإن كان بعد ما تقدمت به السن أصبح يتخلى عن انفعالاته ، الحزن والفرح ، وراح يستريح فى غبائه « يسمع النكته ولا يبتسم ، ويقع أمامه ما يثير غضب الذكى ولا يثور لأنه لم يفطن أو لأنه تكاسل عن هذه الآلية التى يظهر بها انفعالاته » .

والحقيقة أن محموداً غبى ولكن كان من الممكن تعليمه لو أراد المحيطون به ذلك مثلما فعلت زوجته معه من قبل وهو وليد ، ومعنى ذلك أن المستفيدين منه يهمهم أن يكون محمود غبياً . وإذا نظرنا إلى محمود كنموذج اجتماعى ليس بغريب علينا لأنه يوجد مثله الكثير وفى كل المجتمعات ، ولكن الغريب أن يصل الغبى إلى منصب كبير ، هل معنى ذلك أننا فى حاجة إلى مثل محمود فى هذا العصر ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يجب الحديث عن شخصية « يوسف السويفى » بطل رواية « الرجل الذى فقد ظله » فهو صحفى أراد الوصول إلى الشهرة والمجد وفى سبيل ذلك أهدر كل القيم والعلاقات الإنسانية ، فداس على زوجة أبيه مبروكة وأخيه رمزى وهما يمثلان القيم الأسرية ،

وعلى خطيبته سامية رمز القيم العاطفية ، وعلى محمد ناجى رمز علاقات الزمالة ، وعلى صديقه شوقى وسعد ، ويمثلان علاقة الصداقة . وحقق يوسف أمانيهووصل إلى المجد والشهرة على حطام الآخرين ، ولكنه فى الوقت نفسه فقد كل شىء لأنه نسى نفسه ، وتعالى على المجتمع الذى يعيش فيه ، وسخر بكل القيم وأخيراً يكتشف يوسف نفسه ويعان قائلا : يا يوسف يا رخيص . . انمد فقدت نفسى .

ومحمود فى قصة الغبى وصل إلى وكيل وزارة . ويوسف وصل إلى الشهرة.والفرق بينهما أن الأول احتفظ بكل شىء لأنه لم يضايق أحداً ولم يحاول أن يغتصب حقوق الغير ، أما يوسف فقد فقد كل شىء لأنه ذكى واكتشف إمكانياته وقدراته فعمل على استغلالها . — دون مراعاة لأية قيم — إذ أن الغبى أفضل من الذكى لأنه لا يتدخل فى شئون الغير غير مثير للمتاعب . ونستنتج كذلك أنه لا يصل إلا اثنان إما ذكى يعرف طريقه أو غبى يكون معبراً لوصول الآخرين .

وأعتقد أن هذين النموذجين موجودان فعلا فى المجتمعات مع اختلاف قيم كل مجتمع وفقاً لظروفه ، ويختلف بالتالى التناول الفنى لمثل هذين النموذجين . وفتحى غانم يتناول نموذج الغبى ليقول إن للغبى إمكانيات وقدرات يمكن أن تستغل ، وفى القصة شخصية أخرى ألقى عليها المؤلف الضوء ليبين دورها ، وهى الأم التى ضحت من أجل محمود ورفضت الزواج عن اقتناع وإرادة وذلك لأنها أحست بحاجة ابنها إليها بعد موت أبيه .

ولقد حلل فتحى غانم موقف الأم تحليلا دقيقاً فيقول : « لو فكرنا فى أن نعيمه كان من حقها أن تيأس بعد موت إبراهيم أفندى وتتزوج رجلا آخر لتعيد التفاؤل إلى حياتها لما كان لأحد أن يعترض ، حتى الشرع لا يعترض فهو يبيح للأرملة الزواج ، ولكن نعيمه اتخذت موقف الأم وقررت أن تكرس حياتها للغبى ، وقدرت أن هذا هو الموقف والاختيار الطبيعيان لها ، وأنها لا ترضى بغيرهما وهذا هو المهم » . والأهمية ترجع إلى أنها لم ترض أن تعيش معه كزوجه ضحت بالزواج مما سيجعلها تطالب ابنها بالثمن وبذلك تتحول من أم طبيعية إلى أم بالإيجار ، كما أن رفضها الزواج خوفاً من كلام الناس فهذا يعتبر سخفاً ، وضرره أكثر من نفعه لأنها ستضطهد ابنها وهذا ما لا تحتمله ، أى أنها اختارت أن تعيش مع ابنها كأم وفقاً لما أملته عليها طبيعتها وإحساسها . لقد استطاعت الأم أن تنتزع انتباه القارئ وأن تعيش معه رغم أن الغبى استحوذ على كل الاهتمام وسيطرته التامة على تفكيرها ، ولكن القارئ رغم ذلك لا ينسى موقف الأم . وكذلك لا ينسى موقف الزوجة التى بذلت جهودها لخلقه كزوج يؤدى واجباته الزوجية .

إن فتحى غانم بهذه القصة خلق شخصية الغبى ، وجعلها موضع اهتمام وأخذت مكانها فى أدبنا العربى ، فهى جديدة موضوعاً وأسلوباً ، والأسلوب لقد اختار له المؤلف اللغة المناسبة لهذا العمل ، لغة جديدة بعيدة عن المونولوجات الداخلية والتحليل ، بل اعتمد على المواقف التى تعرض لها الغبى فقط وترك لنا مهمة التفسير والتحليل إلا أنه أغرق فى الغموض الذى لف فيه أحداث القصة ، فليس فيها لحظة تنوير تساعد القارئ على تفهم القصة . إن فتحى غانم فى كل عمل يقدمه يثبت قدرته الفنية ويسجل صعوداً مستمراً فى عالم القصة .

إبراهيم سعفان

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

يعتبر كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين من أهم المراجع التى وصلت إلينا عن سيرة البطل صلاح الدين الأيوبى . ولعل هذه الأهمية ترجع إلى مؤلف الكتاب بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الشهير بابن شداد الذى التحق بخدمة البطل صلاح الدين الأيوبى فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ كقاض لعسكره وملازمته لصلاح الدين طوال الفترة الأخيرة من حياته التى قضاها فى الشام أى منذ سنة ٥٨٤ هـ إلى سنة ٥٨٩ هـ ومخالطته له مخالطة تامة . لذلك فهو يروى السير والأحداث عن مشاهدة ، وهو ينص فى معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التى يؤرخ لها أو سمع الأقوال التى يرويها .أما إذا لم يكن قدشاهد حادثة بنفسه فان الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن ينص على أنه كان متغيباً، فهو يصف مثلا وقعة الرمل فى سنة ٥٨٥ هـ ويعقب على الوصف بقوله « وهذه الوقعة لم أحضرها فانى كنت مسافراً وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلى وعرفت الباقى مثل ما يعرفه الماضى فى هذه الأمور » .

لذلك — كما يقول الدكتور الشيال — اعتبرت هذه السيرة أوثق المراجع للتأريخ لحياة البطل صلاح الدين. وعليها اعتمد جل المؤرخين اللاحقين من عرب وأوربيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدين وخاصة الفترة الأخيرة من هذه الحياة (٥٨٤ — ٥٨٩) وهى فترة حافلة بالنضال ضد الصليبيين . إن انتصار صلاح الدين فى موقعة حطين واستعادته لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ أحدثت ضجة كبرى فى أوروبا وكان رد الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة

تأليف : بهاء الدين بن شداد
تحقيق : د. جمال الدين الشيال

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة
عدد الصفحات ٢٧٣ ص - قطع كبير

ثلاثة من كبار ملوك أوروبا وهم ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا. وفيليب أوجست ملك فرنسا. وفردريك بارباروسا ملك ألمانيا. واحتدم القتال فى أعنف صورة بين الجيوش الثلاثة وجيوش صلاح الدين طوال هذه السنوات الأربع إلى أن انتهى بصلح الرملة فى شعبان سنة ٥٨٨ هـ .

لقد بدأ المحقق الدكتور جمال الدين الشيال الكتاب بمقدمة ذكر فيها طرفاً من حياة مؤلف الكتاب بهاء الدين بن شداد الذى كان له دور كبير فى الأسرة الأيوبية حتى بعد وفاة البطل صلاح الدين. فلقد استطاع التوفيق بين أفراد البيت الأيوبى فى مصر والشام كلما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر. لهذا كان المؤلف دائم التنقل بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف ، ولكن المهم أن هذا المؤلف المؤرخ يعتبر بحق أستاذاً لمدرسة من المؤرخين تتلمذوا على يديه مثل ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان وأبو شامه صاحب كتاب «الروضيتين» و «الذيل على الروضتين» وتوفى ابن شداد عام ٦٣٢ هـ — وهو العام الذى توفى فيه شاعر الحب الإلهى عمر بن الفارض — عن قرابة قرن من الزمان منذ مولده فى الموصل حتى وفاته بحلب بالشام .

ثم يتحدث الدكتور الشيال فى المقدمة عن أهمية الكتاب كمرجع للألفاظ الاصطلاحية الخاصة بأدوات القتال فى ذلك العصر فى البر والبحر مثل البزك والكوسات والمنجنيق والشينى إلى نهاية ما يورده من ألفاظ . وإلى جانب هذه المصطلحات توجد فقرات ذات أهمية خاصة وصف فيها المؤلف بعض آلات الحرب وصفاً دقيقاً نادراً مثل وصفه للدبابة والسنور

وللبرج ذى الخرطوم . كما ينفرد الكتاب بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية فى المجتمعين الصليبى والإسلامى فهو يشير إلى بعض تقاليد الصليبيين فى التشاور والتحكيم كما ينص على أن المسلمين المقيمين فى الأراضى الخاضعة للصليبيين كانوا يرجعون فى خصوماتهم إلى قاض منهم . كما أنه يورد بعض الشرائع والأحكام التى يأخذ بها جنود ملك الألمان وهى أنه من جنى جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه .

كما أن بالكتاب عدداً من الوثائق الهامة التى تلقى أضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة ومن بينها نصوص الخطابات المرسلة من كل من الكاغيكوس مقدم الأرمن وإمبراطور بيزنطه إلى صلاح الدين .

أما منهج نشر الكتاب فقد اتبع الدكتور الشيال — كما يأخذ على نفسه فى المقدمة — الدقة التامة فى ضبط النص وفى التعريف بالمصطلحات التاريخية والأعلام والمدن، وفى تقسيم النص إلى فقرات واستعمال علامات الترقيم الحديثة للتسهيل على القارئ، ولكنه يعتذر عن الأخطاء التى وقعت فى أثناء طبع الكتاب لأنها تمت فى غيابه أثناء انتدابه للعمل فى المغرب .

بدأ ابن شداد كتابه بمقدمة ذكر فيها أنه فى سبيل إنشاء كتاب عن حياة البطل صلاح الدين الأيوبى معتمداً فى ذلك على « ما أملاه العيان أو الخبر الذى يقارب مظنونه درجة اليقين . . وجعلته قسمين أحدهما فى مولده رحمه الله ومنشئه وخصائصه وأوصافه . والقسم الثانى فى تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه وتواريخ ذلك إلى آخر حياته » .

لقد كان مولد البطل صلاح الدين سنة ٥٣٢ ﻫ بقلعة تكريت وهى بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وكان والده والياً بها ثم انتقل إلى الموصل وأقام بها إلى أن كبر ، والمؤلف لم يعين لنا تاريخ هذه النقلة ثم النقلة التى تلتها لوالده إلى الشام ولكنه يخلص إلى باب جديد عن مواظبة صلاح الدين على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية يبدؤه بذكر الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » ثم يبين أن كل ركن من هذه الأركان كان يقوم به صلاح الدين خير قيام فلقد كان صواماً قواماً ، بل كان يؤدى فريضة الصوم وهو مريض والطبيب يلومه على ذلك وهو يقول له « لا أعلم ما يكون » . ولقد أراد أن يؤدى فريضة الحج وجهز لذلك الزاد والقافلة ولكن شرف المهمة التى اضطلع بها فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين جعلته يؤجل مسيرته إلى مكة للعام التالى وهو العام الذى توفى فيه . كما كان محباً لسماع القرآن ومجالسة أهل العلم والاستفادة منهم .

ثم يأخذ ابن شداد فى بيان عدله وحبه للجهاد وكرمه وشجاعته وصبره وحلمه وعفوه ومروءته وهو يفتتح كل فضيلة من هذه الفضائل بذكر حديث عن الرسول الكريم فى الحض عليها . فمثلا فى الكرم يورد الحديث الشريف « إذا عثر الكريم فان الله آخذ بيده » وعن الشجاعة يورد الحديث الشريف « إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية » .

المهم أن كل فضيلة من هذه الفضائل إنما تكشف لنا عن شخصية البطل صلاح الدين فهو القائد الشجاع عظيم البأس الذى يطوف كل يوم حول العدو يتعرف بنفسه قوته ، الخائض غمار المواقع لا يهولنه شدتها ولكنه إلى جانب ذلك الخاشع النفس الذى لا يستطيع إمساك دموعه عند سماع القرآن الكريم ، الكريم حتى أن نواب خزائنه يخفون عنه الأموال خشية أن ينفقها ثقة بما سيأتيه .

كل هذه الجوانب النفسية إنما تم على تكامل

عظيم استطاع أن يكون بالفضائل شخصية استطاعت أن تقوم بدور من أخطر أدوار التاريخ فى الوقوف أمام أعداء العروبة والإسلام ، وحماية المشرق العربى من خطر أراد أن يغير ما فيه من إسلام وعروبة ولغة ، وأن يصبغه بصبغة عنصرية يدفعها التعصب الدينى الأحمق . ولكن صلاح الدين القائد الإنسان الذى أدرك خطورة المسئولية واستطاع أن يتحملها وأن يبذل فى سبيلها كل شيء حتى استطاع أن ينتصر بجيوشه وبفضائله على كل أعداء الحق والإنسان .

وبعد أن ينتهى ابن شداد من القسم الأول من الكتاب الذى لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من مؤلفه ينتقل إلى الجزء الثانى أو كما يسميه تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته فى تواريخها . إن عنوان هذا القسم يوحى – ولا شك – بأننا مقدمون على تفاصيل حياة البطل صلاح الدين الحربية،ومما يزيد فى قيمتها أن معظم هذه الوقائع قد عاصرها المؤلف بنفسه مع البطل صلاح الدين . وهو يبدأ هذا القسم بدخول صلاح الدين مصر مع أسد الدين شيركوه لإعادة شاور إلى الحكم بعد أن خلعه ضرغام عنه،فأرسل نور الدين أسد الدين شيركوه إلى مصر لنصرة شاور ، ولكن شاور كاتب الصليبيين وطلب إليهم نصرته كذلك واستئصال أعدائه فبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فخافوا من هذه المحاولة على مصر وقرر أسد الدين الذهاب إلى مصر وأمده

الملك العادل بالجنود وكان هذا الحدث بعد عشر سنوات من عودته الأولى من مصر . ثم كانت العودة الثالثة التى قبض فيها على شاور لخيانته واستتب فيها الأمر لأسد الدين سنة ٥٦٤ هـ وهى السنة التى مات فيها .

على أن ابن شداد لا يكتفى بسرد هذه الوقائع التاريخية فحسب ، بل يذكر سبب وفاة أسد الدين من كثرة إقباله على اللحوم الغليظة حتى اعتراه خانوق عظيم – على حد تعبيره – أودى به .

ثم يتابع ابن شداد ذكر تآمر الصليبيين على مصر ومحاولتهم لغزو دمياط ثم الإسكندرية اللتين باءتا بالفشل حينما أحسوا بحركة السلطان نحوهم فى الإسكندرية فتركوا مناجيقهم وآلاتهم التى أحرقها أهل الإسكندرية .

ويواصل ابن شداد سرد ما حدث من خلافات بعد وفاة نور الدين محمود بن زنكى ، وخروج السلطان إلى الشام للاستيلاء على دمشق ، ومنحه حلب لأخيه الملك العادل بعد اصطحابه معه . وذلك توطئة لإعادة الكرة على حصن الكرك للاستيلاء عليه بعد أن نزل به الصليبيون ، فكانت تلك الفترة التى مكنها بدمشق استعداداً لتجديد الكفاح ضد الصليبيين ، وتجميع القوات التى يمكنه أن يبدأ بها الغزو .

ولقد كان حصن الكرك من المواقع الاستراتيجية الهامة على الطريق المؤدى بين الشام ومصر فهاجمت قوات صلاح الدين نابلس واستولت عليها ، ولكنها لم تتمكن من مهاجمة الكرك نظراً لتشبث الصليبيين به ووصول ابن زيد الدين مستصرخاً صلاح الدين إلى حران على طريق البيرة لملاقاة مظفر الدين أحد الخارجين عليه .

لقد كانت تلك الفترة من الفترات العصيبة التى واجهها البطل صلاح الدين . لقد كان كفاحه

مزدوجاً ذا شقين : . كفاح ضد الجبهة الداخلية لتوحيدها ، وكفاح ضد الخطر الداهم الذى يتمثل فى الصليبيين . إن الحقيقة الكبيرة التى أدركها صلاح الدين إدراكاً عميقاً هى أن الجبهة الداخلية هى أولى ضمانات السلامة بالنسبة للعدو الخارجى . لا بد من العمل أولا على توحيدها وصولا إلى مجابهة الخطر الآخر وهو الصليبيون . ولقد أدرك المؤرخ ابن شداد هذه الحقيقة الكبرى ونراه يذكرها حين يقول « إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه فى الملك وتمكين الله إياه فى البلاد وانقياد الناس لطاعته . . ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد فى إقامة قانون الجهاد . . فسير إلى بلاد العساكر واستحضرها واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول .

ويذكر ابن شداد وقعة حطين حين بلغ صلاح الدين أن العدو قد تجمع فى مرج صفورية قرب عكا فتأهب لهم ونزل عند قرية تسمى العنبره ، ولما بلغ العدو ذلك رحلوا إلى طبرية للدفاع عنها ، فلحق بهم وهنا نترك ابن شداد يصف الموقعة : « ولم يزل الحرب يلتحم والفارس مع قرنه يصطدم حتى لم يبق إلا الظفر ووقوع الوبال على من كفر . . حتى كان صباح السبت الذى بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه وعلمت كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس . . وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره وأجراه على وفق ما قدره فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل والواحد ، فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . . .

ثم يصف ابن شداد مواقف صلاح الدين الإنسانية من خلال معاركه فنراه يصف ما فعله بعد انتهاء المعركة بقوله : « ولما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس السلطان فى دهليز الخيمة . . ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك جفرى شربة من جلاب مثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش . . ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم فمضوا وأكلوا » .

هكذا كانت تصرفات هذا البطل الكبير تنبع عن فهم عميق للرسالة التى ألقاها القدر على كاهله ، تلك الرسالة الضخمة التى حملها بشجاعة المحارب ونبل الإنسان .

وتتابعت الانتصارات فتم فتح تبنين وبيروت وعسقلان وكللت تلك الانتصارات بتسلم بيت المقدس فى ليلة الأسراء والمعراج سنة ٥٨٣ هـ .

ثم يتتبع ابن شداد معارك صلاح الدين مع الصليبيين صغيرها وكبيرها فيذكر فتح صهيون وبكاس وبرزية ودربساك وبغراس إلى غيرها من الفتوح التى أعقبت دخول صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ .

ولما علم أهل أنطاكية بتوالى الفتوحات طلبوا منه الصلح وراسلوه على ذلك فصالحهم على أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين عندهم . ثم رحل إلى دمشق واستضافه فى طريقه إليها ولده الملك الظاهر صاحب حلب ثم واصل مسيرته إلى دمشق .

إن الطريق لم يكن ممهداً لصلاح الدين فى أثناء كفاحه ضد الصليبيين ، لقد كانت تمر به أحياناً هزائم جسيمة لم تكن تزيده إلا ثباتاً وإصراراً على الكفاح ومواصلته ، لأنه أدرك إدراكاً عميقاً أن الرسالة التى ألقيت على كاهله هى رسالة ضخمة كبيرة ممتدة حتى يصل إلى الهدف الكبير وهو تحرير المشرق العربى من الصليبيين الذين حمل على كاهله مقاومتهم حتى يجليهم . . ولا يفوت ابن شداد أن يذكر كل الظروف السعيدة والحزينة التى مرت بمعارك المسلمين مع الصليبيين فيروى فى (ص١٦١)

من الكتاب قصة غرق إحدى السفن الحربية الإسلامية الكبيرة المسماه بالبطسه ويقول: «ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصلت بطسه من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال الأبطال المقاتلة وكان السلطان قد أمر بتعبئتها من بيروت وتسييرها ووضع فيها من المقاتله خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدو، وكانت عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا فاعترضها الانكتار الملعون فى عدة شوان — أى سفن حربية كبيرة — فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا فى قتالها وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوا قتالا عظيما وقتل من العدو عليها خلق عظيم وتكاثروا على أهل البطسة الإسلامية وكان مقدمهم رجلا جيداً شجاعاً مجرباً فى الحروب فلما رأى امارة الغلبة عليهم ورأى أنهم ولا بد أن يقتلوا قال: والله: «لا نقتل إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً» فوقعوا فى البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً وامتلأت ماء وغرق جميع من فيها من الآلات والمير وغير ذلك. ولم يظفر العدو منها بشيء أصلا».

إنها صورة من صور كثيرة مرت بالأبطال الشجعان الذين كانوا يحاربون تحت إمرة صلاح الدين فى حروبه المتصلة الطويلة التى حمل مهمتها من بعده من خلفوه حتى استطاعوا إجلاء آخر جندى من جنود الحملات الصليبية من فوق أرض المشرق العربى.

إننا فى هذا العرض لا يعنينا أن نواصل المسيرة التاريخية مع ابن شداد ولكن الذى يهمنا هو أن نتعرف على جوانب من عرضه لسيرة البطل صلاح الدين. وابن شداد فى خلال ذلك العرض لا يفوته أن يذكر بعض النوادر فى أسلوب ليس بالسجع المتكلف الذى كان شائعاً فى عصره كسجع معاصره القاضى الفاضل فهو يعتبر الأسلوب وسيلة للتوصيل التاريخى فى غير ما تكلف تتبدد المعلومات فى أثقاله قبل أن تصل إلى القارئ.

ومن النوادر الهامة التى يرويها قصة العوام عيسى الذى كان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وهو يمثل فى عصرنا هذا الضفادع البشرية فى تشكيلات الحرب البحرية الحـــديثة.

وفى نهاية الكتاب يفرد ابن شداد باباً يذكر فيه وفاة صلاح الدين هذه الوفاة التى حضرها ابن شداد مع القاضى الفاضل وابن الزكى بعد أن مكث صلاح الدين فى المرض اثنتى عشرة ليلة.

ثم يعقد فى نهاية الكتاب فصلا عن المدن والحصون التى يسر الله فتحها على يديه من ديار الفرنج من عام ٥٨٣ إلى ٥٨٦ هـ وهذا الباب هو آخر أبواب الكتاب.

إن ابن شداد المؤرخ يعتبر من أهم المؤرخين الإسلاميين والصليبيين الذين أرخوا للحروب الصليبية ولا شك أن تلك الأهمية القصوى تأتى من مخالطة ابن شداد المخالطة الوثيقة لصلاح الدين فى حروبه وسفره.. هذه المخالطة التى استطاعت أن تمده بالمعلومات الصحيحة التى كانت أبواباً فى كتابه الذى يعتبر من أهم الكتب التى ألفت فى الحروب الصليبية عامة.

إن حركة نشر التراث العربي والإسلامي لتعتبر من أهم العوامل لبعث مقومات الحضارة العربية .. تلك الحضارة التي كان الكتاب العربي عاملا هاماً من عوامل حفظها حتى كانت حركة بعث التراث التي ساعدت الباحثين مساعدة كبيرة على تصحيح كثير من النظرات التاريخية التي تتصل اتصالا قوياً بفترة من أهم فترات تاريخنا العربي .

إن ابن شداد لم يكن الوحيد بين المؤرخين العرب الذي حمل هذا الاسم فهناك ابن شداد آخر يشترك مع مؤرخنا في أشياء كثيرة فكل منهما كان يسمى بابن شداد وبهذا الاسم عرفا وأشير إليهما في المراجع التاريخية . غير أن مؤرخنا صاحب سيرة صلاح الدين كان يكنى ببهاء الدين والآخر كان يكنى بعز الدين وقد وقع في نسب مؤلفات أحدهما للآخر حاجي خليفه صاحب كتاب « كشف الظنون » .

لقد كان الدكتور جمال الدين الشيال أميناً كل الأمانة في تحقيق ونشر الكتاب إذ اعتمد على مخطوطة القدس في نشر الكتاب وهي التي كتبت في الثاني من شهر رجب سنة ٦٢٦ ﻫ أي في حياة المؤلف وقبل وفاته بست سنوات كما أن هذه النسخة قرئت على ابن شداد .

وقد أضاف الدكتور الشيال الهوامش المفيدة للكتاب التي تساعد الباحث على تعرف جوانب هامة من المعلومات التي يوردها ابن شداد .

إن كتاب النوادر السلطانية لابن شداد يعتبر إضافة هامة للمكتبة العربية عن سيرة البطـــل صلاح الدين الأيوبي .

جابر الشال

جولة بين الكتب

أحمد فارس الشدياق

تأليف : محمد عبد الغني حسن

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة « أعلام العرب » ١٩٨ ص ١٤ × ٢٠ ث ١٠ قروش

دراسة تحليلية لظاهرة أدبية من الظواهر الهامة التي درجت على حياتنا الثقافية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ... أحمد فارس الشدياق ، الأديب ، اللغوي ، الناقد ، الشاعر ، القصصي ، المصلح الاجتماعي ، المترجم ، الصحفي ... نديد اليازجي ، والمعاصر لرواد الثقافة العربية الحديثة .

وقد رسم الأستاذ المؤلف هذه الشخصية بوضوح واتقان ، مع بيان الجوانب الخفية فيها ، ومصادر ثقافتها ، والدور الكبير الذي لعبته ، والتقويم الصحيح لها .

على هامش الغفران

تأليف : د . لويس عوض .

الناشر : دار الهلال .

١٧٥ ص ١٤ × ١٧ ث ١٠ قروش

في خريف عام ١٩٦٤ نشر الدكتور لويس عوض على صفحات جريدة الأهرام تسع مقالات ، موضوعها « رســالة الغفران » لأبي العلاء المعري . فشرح الكاتب فكرة الرحلة إلى العالم الآخر أو عالم الموتى ، منذ الآداب القديمة ، وخاصة الإغريقية منها ، ومدى تأثر المعري بهذا التراث ، ثم تطور هــذه الفكرة في آداب العصور التي أتت بعد عصر المعري .

الجدير بالذكر-هنا أن هذه المقالات قد أثارت ضجة في الأوساط الأدبية حين ظهورها ، وهو ما أشار إليه المؤلف في مقدمته لهذا الكتاب الذي جمع فيه مقالاته تلك ، وضمنه دفاعه عن الرأي الذي ذهب إليه ، وهو تأثر المعري بالآداب القديمة .



حوار مع نهرو

تأليف: كارانجيا
ترجمة: خيري حماد

باستنارة وذكاء، وصراحة وإيمان عميقين. أجاب زعيم الهند الراحل «شرى نهرو» عن أسئلة كثيرة وهامة للصحفى الهندى اللامع «كارانجيا» الذى أخرج ثمرة لقاءاته بزعيم الهند فى كتاب ترجمه الأستاذ «خيرى حماد». والكتاب هام من حيث جدة أسئلته ودورانها حول قضايا ومسائل شغلت وما زالت تشغل أذهان عالمنا الحديث كله. وبالتالى فقد كانت إجابات الزعيم الراحل عليها إجابة المفكر الفيلسوف صاحب العقيدة. الذى يعيش عصره بكل متناقضاته وصراعاته. إذا كان المرء لا يلتقى مع «نهرو» فى بعض آرائه. إلا أن الدهشة قد تعتريه أمام التوازن العجيب. الذى أوجده الزعيم داخل نفسه، بين اليسار واليمين، بين عقله الماركسى وقلبه الهندى الذى يرتبط بكل ما يرمز لتراث الهند الروحى. والقارئ لهذا الكتاب يستطيع أن يلمس بوضوح الحب الكبير الذى يكنه الزعيم لوطنه [. كبلد تسوده الاشتراكية الديمقراطية التعاونية.. فى سلام ومحبة، بعيداً عن كل مظاهر العنف والقسر والدم. إن حب الزعيم للسلم والبناء يعكس طيبة جمة على مظهره وفكره. تلك الطيبة التى وصفها «كارانجيا» بمقاربتها للجمال فى مقدمة كتابه. ورغم إيمان الهند كلها بالزعيم، إيماناً جعل الجماهير تتخيل فيه زعامة أبدية تغنيها عن التفكير فى خلف له. رغم هذا ينكر الزعيم ذاته.

ويرجع كل شيء إلى أصله الهندي دونه ،

يتناول ما أسماه « كارانجيا » بخط « نهرو » فيأنف من هذه التسمية . ويعلن تفضيله تسميتها بالطريقة الهندية . والقارئ يلمس ما لغاندي من مكانة في قلب وفكر الزعيم . الذي يقول عنه « لقد كان شخصية جبارة وثورية عظيمة العقل والتأثير » . ثم يذكر للمهاتما نجاحه في كسب والده (أي والد نهرو) إلى صفه رغم شدة مراسه وصلابته . كيف ؟ بالإقناع والتدرج ، وإعطائه المبادئ الغاندية على جرعات حساباً لطبيعته كبشر دون إلزام أو قسر ، مع المحافظة على جوهريات استراتيجية الكفاح دون تساهل . ومن هذا الطريق قاد « غاندي » جماهير البلاد كلها . التي كان « نهرو » كواحد منها عقلية ثورية معبأة تنتظر الإشارة . وعن طريق تقديم النتائج للجماهير ، آمن الشعب كله ، واستطاع « غاندي » البروز كزعامة ثورية فريدة . إن « نهرو » يقدم نموذجاً لهذه القوة في الزعامة والفكر . كيف ؟ هذا غاندي بوعيه السليم يهز النظام الطبقي الهندي حين يضرب في التقاليد بالنسبة لطبقة المنبوذين أساس النظام . وإن قيادة الشعب إلى الأفضل بالنسبة « لنهرو » بتأثير « غاندي » طبعاً ، تعني تأني القيادة في السير ، وإعطاء الفرصة لكل إنسان أن يلحق بها دون أن يلهث ، ودون أن يحدث انفصال يجزئ حركة النضال ، ومحاولة التعايش مع التكوين القديم بدلا من التحطيم ، والحرص على الجذور التي تشد الجماهير . وحين يرى « كارانجيا » في هذه الفلسفة الغاندية بعداً عن الروح العلمية ، ينتفض « نهرو » ثائراً منتصراً لمعلمه القديم قائلا : « أنا أود أن أسمي عصرنا هذا بعصر غاندي بكل تأكيد » . هكذا يرى الزعيم رغم التطور الصناعي العلمي إلى درجة قوله « إن الرد الممكن الوحيد على القنبلة الذرية ، هو اللجوء إلى عدم العنف » . إن غاندي كان يكره العنف في كل صوره ، والزعيم يتساءل : أليس هذا هو التعايش السلمي الذي ننشده اليوم ؟ ألم تكن روح غاندي ترفرف على المجتمعين في « باندونج » وما اتخذوه من قرارات ؟

أليس من الأفضل أن نقطف الوردة الحلوة بيدنا الناعمة بدلا من السكين .

حين ينتقل « كارانجيا » إلى سؤال الزعيم عن تعريف واضح محدد للتركيب الاشتراكي الديمقراطي في الهند ، هذا التركيب الجامع لديمقراطية الغرب وديكتاتورية الماركسية ، تأتي إجابة « نهرو » وقد استندت لأساس قوي ، مواده الخصائص القومية لكل بلد وظروفه التاريخية والمناخية والاقتصادية والاجتماعية . فكل رداء في رأي الزعيم ينسب إلى مرتديه . والمثل واضح على ذلك . البوذية هندية في الهند . يابانية في اليابان وهكذا . والزعيم رغم هضمه لفلسفة « ماركس » واقتناعه بتحليله العلمي للتاريخ ، لا يتفق معه كلية . لماذا ؟ لأن الوسائل التي نادى بها « ماركس » للتغلب على كل ما كان يعانيه الشعب العامل ، قد تتفق مع ظروف تلك الأيام بشذوذها وتخلفها . هذه الوسائل ذاتها لا تصلح لعصرنا ، الذي تسود فيه تقاليد ديمقراطية دستورية ، تحمي الحقوق وتعطي الفرصة لمن ترتضيه الجماهير ممثلا لها مطالباً بحقها . إن الزعيم يلتمس لماركس العذر في اتسام ثوريته بالعنف ، لأنه يعتبرها رد فعل طبيعي للظلم الصارخ والطغيان العنيف ، الذي رآه « ماركس » وعانى منه ، لكنه كذلك لا يوافق على اتباع ذات الوسائل الآن . لأن ذلك يعد في نظره إغفالا لحركة التاريخ ، والأخذ بشيء قديم لا يصلح لظروف جديدة ذات فرصة أفضل وأرحب . وإذا كان بعض الماركسيين اليوم يقولون : إما هكذا وإلا فلا ، فإن ذلك يعني جموداً وتزمتاً ليس إلا .

والزعيم يرى في حق الاقتراع الذي يملكه الفرد ، والمؤسسات الديمقراطية كالنقابات والتنظيمات العمالية . . وسيلة قوية فعالة في تغيير كل شيء . والسير بخطى واسعة نحو مجتمع اشتراكي ينتج ما يكفي الجميع في عدالة . ويأخذ بالوسائل التكنولوجية المتقدمة في كل شيء . بعد ذلك تبقى مشكلة يراها الزعيم . ما هي ؟ إن التقدم الآلي والديمقراطي لن يترك للإنسان شيئاً يفعله في فراغه . وأسوأ مثال على ذلك أمريكا ، المتقدمة في أغلب النواحي . وبالطبع في الاتحاد السوفيتي وإن كان ذلك على صورة أخف ، يتمثل في جرائم الشباب والانحراف . والانغماس في الكحوليات والجنس .

و « نهرو » يحذر من انهيار الحضارة البشرية ذاتها ، إذا لم نجد العلاج . وهو يرى في الدين والروحيات أساساً في أي علاج لهذا الانحراف ، وإن كان يأسف لجمود العقائد والديانات في عصرنا ، واستحالتها إلى طقوس متوارثة تؤدى آلياً دون فهم لجوهرها الدفين . والعلاج الذي يقوم على العلم فقط ، ناقص في رأي الزعيم . لأن الإنسان رغم تقدمه المادي ، ظمآن إلى قيم روحية تدعم هذا التطور وتواكبه . وقد قدم الزعيم بلاده كمثل على ذلك نسبياً دون صدام بين تقدم الهند العلمي والتأثير القوي الذي تمارسه القيم الدينية والروحية هناك .

والمشكلة تكمن في مدى إمكانية

الناشر : دار الطليعة ببيروت
١٤٦ ص ١٤×٢٠ سم - ث ٢٠٠ ق لبناني

عصرنا – بتقدمه المادى الهائل – خلق إنسان كامل. إن الزعيم قلق على مصير الجنس البشرى، إذا ما أهمل الجانب الروحى، وانصرف إلى ابتكارات جبارة قد يساء استعمالها ضد البشر فى سوقهم إلى الفناء. وقد يكون أفضل لسعادة البشرية وتقدمها، الإكثار من العنصر التعاونى، وإلغاء التنافس الذى يؤدى إلى شبع البعض حتى التخمة، وجوع البعض الآخر حتى الموت. وإن كان التنافس الشريف محمود؛ خصوصاً إذا وعينا صعوبة المساواة بين الناس كلهم نتيجة لاختلافهم فى القدرات الطبيعية. ولكل مجتمع ظروفه التى تختلف عن ظروف المجتمعات الأخرى. والتطور فى رأى الزعيم لا يجئ قفزاً، بل بالتدرج والتأنى. فالهند تعرف الطاقة الكهربية والذرة. فى الوقت الذى تستخدم فيه روث البهائم. وإن كان هذا لا يزعزع من إيمان الزعيم بمستقبل الهند وقدرتها على التطور مهما كانت قوة التيارات المعاكسة. فالمسألة مسألة وقت ليس إلا. والمهم تحريك الفرد إلى الأمام دائماً، لا إبقاؤه حيث يكون. لأن الفروق هائلة، والهوة مخيفة. الجماهير العادية تئن، والواجب الآخذ بيدها بروح مسئولة، ما دامت هذه الجماهير عاجزة عن التعبير الإيجابى عن مطالبها. فالذين يضربون مثلا، يعيشون فى ظروف حسنة نسبياً، ولكن الفلاح الذى لا يجد الماء النقى للشرب لا يضرب، لأن مبرر الإضراب مفقود أساساً فى نظر «نهرو». ولم يناد الزعيم رغم ماركسيته بالقضاء على الذين خلقوا هذه الظروف، واستغلوها أسوأ استغلال لصالحهم، بل إن حديثه نشم فيه نوعاً من المهادنة، والإنصراف إلى توفير الحاجات البدائية للجماهير الكادحة المطحونة وكفى. حين يرى «كارانجيا» فى ذلك تناقضاً فى اشتراكيـة الهند – خصوصاً مع تزايد الفروق بين الطبقات – لا يوافق الزعيم رافضاً كون هـذا تناقضاً. وهو يدافع عن ازدياد ثروة الأغنياء الهنود مع التقدم الصناعى، متعللا بتحسن ظروف الجماهير الهندية العاملة نسبياً أيضاً. و «نهرو» يردد فى هذا الصدد قول المسيح: «إن من عنده يعطى ويزاد»، ويجعله مقياساً حتى على المستوى الدولى. وحين يجئ ذكر المعونة الخارجية للدول النامية من الدول القادرة الغنية، يؤكد «نهرو» وجود هذه المعونة لكنها بالطبع نتيجة دوافع أنانية، استغلالية وليست إنسانية. وعلى كل مجتمع نام أن يعتمد على نفسه، وإلا عجز عن الوقوف – مهما بلغ حجم المعونة التى يتلقاها – فالعالم فى حاجة إلى تكريس الجهود والأموال فى مساعدة التطور الإنسانى عامة بدلا من انفاقها على التسلح وأدوات التدمير.

وحين يسأل «كارانجيا» «نهرو» عن قيمة ما تحقق فى الهند – منذ تولى السلطة – يشيد الزعيم فى تقييمه بالتقدم الصناعى الهندى، ويأسف لأن الزراعة لم تأخذ حقها. بسبب الكوارث الطبيعية وإنفاق الجهود فى غير موضعها. هذا علاوة على التقاليد والأوضاع التى تحكم فلاحى الهند. وإن كان هذا لا ينفى استعدادهم للتطور، ما دام فى استطاعة المسئولين تقديم نتائج حسنة لهم، والبرهنة على حسن الوسائل الجديدة وفاعليتها فى الإنتاج. أما الحرية والديمقراطية، فالزعيم يرى منحها للشعب داخل المجالس القروية وما شابه ذلك. بشرط عدم الإضرار بالآخرين. وقدرة العمل هائلة فى شعب الهند، لو أحسن توجيهها، بدلا من بعثرتها وتبديدها فى خلافات الولايات والتناحر الدينى الطائفى. وكيف يحسن استخدام هذه الطاقة البشرية القوية؟ ما زال الزعيم يكرر الحرص على مراعاة حاجة الإنسان. وما يشده من جذور، والتخطيط السليم تبعاً للظروف الخاصة لمجتمع الهند. ولنأخذ الزراعة مثلا، إن الهند تعانى نقصاً فى الغذاء. لا بد من تآلية الزراعة لمضاعفة الإنتاج، ولكن ذلك يخلق مشكلة هائلة. ماذا سيفعل ثلاثمائة مليون فلاح هندى إذا ما أحللنا الآلة محلهم؟ إن «نهرو» يفهم هذه المشكلة بعمق. ويقترح التعاونيات الصغيرة على طريقة اليابان. حلا لهذه المشكلة، مع إيجاد مزارع آلية ضخمة للدولة. ولقد أعجبنى موقف الزعيم بالنسبة للاشتراكية. كان مرناً فى تأكيده بأنه سيظل اشتراكياً إلى أن يقنعه أحد بأن يكون غير ذلك. وهو يعتبرها – أى الاشتراكية – غاية لكل شعب عاقل ينشد الكمال. وهى فى نفس الوقت تعتبر تطوراً طبيعياً حتمياً لكل شعب. وسيظل رأى الزعيم هكذا، ما دام هدفه والهند معه خلق إنسان سعيد. له فرصته فى كل شئ.

حين يسأل «كارانجيا» عن شكل التنظيم. الذى سيتحمل تطبيق فلسفة وأسلوب الزعيم فى العمل مستقبلا، يجيب «نهرو» إجابة ذات شقين. أولها: رفضه تأليف جماعة مشايعة له، مطبقة لوسائله وأسلوبه، خشية قيام اتجاهات مضادة، فى بلد راسخ فى السياسة والدين تاريخياً كالهند. وثانيهما: اعتبار الزعيم أن حزب المؤتمر أولى بهذه المسئولية. فضلا عن الجماهير التى آمنت بالأساليب النهروية تاريخياً أيضاً. وتيار التقدم سيجرف كل تيار معاكس لا محالة. والزعيم على ثقة مما يقول. فهو يؤكد أن الرجعيين وأحزابهم، لن يملكوا أمام حساسية الجماهير وذكائها، غير الصراخ والعزلة شيئاً فشيئاً. فقد يضرب حزب كحزب «سوتانترا» (1) على وتر أن

(1) حزب يمينى رجعى. وعدو لدود لحزب المؤتمر.

الفساد موجود .لكن« نهرو » يتساءل : وهل تختلف طريقة هذا الحزب ، عن طريقة اللص فى الجرى مع مطارديه . والصياح مثلهم : اقبضوا على اللص ؟ هنا يتضح للقارئ إيمان الزعيم بالعمل وحده ، كوسيلة فعالة فى كل تغيير . والديمقراطية لا تتحقق إلا بالمزيد منها « إن عدم النضوج الجماهيرى لا يعنى ضعفاً فى الديمقراطية أو مبرراً للتخلى عنها » .

عندما يلتمس « كارانجيا » من الزعيم تخصيص جزء من وقته للحديث إلى شباب حزب المؤتمر والجماهير . يصرح « نهرو » بأن هذا يحدث . ولكن ليس على طريقة المدرس والتلاميذ ، بل على أساس تفكيره معهم ، فى حلول عصرية معقولة لكل مشاكلهم . يستوى فى ذلك الفلاحون والمثقفون . إن الجماهير الهندية حساسة وذكية بالفطرة . كل ما يعوز المرء فى حديثه إليها ، قدرة على دفع تفكيرها إلى صعيد قومى واسع ، بعيداً عن مظاهر الفردية والأنانية . ومحاولة تقريب جوهر خطط الدولة العامة إلى الأذهان . إن السيد « نهرو » يؤمن إيماناً عظيماً بشعب الهند . وقدرته على تطوير نفسه ذاتياً . كما أنه يقدر فى شعبه كراهيته الأصيلة للعنف فى ثورته وإرادته فى التغيير . والزعيم يرفع شعار « لا بد من معايشة القديم وكسب مثليه » . هذا بدلا من الزجر والإجبار اللذان يولدان ردود فعل سيئة . إن العامل البشرى مهم جداً فى كل تغيير . فاهتمامنا بالآلة يجب أن يساويه — إن لم يزد عنه — اهتمامنا بالواقف خلفها . والتقدم الزراعى لن يتحقق بدون تدريب الفلاحين وإرشادهم إلى الوسائل الأفضل، وإظهار مزايا التعاونيات ، ومحاولة خلق صناعات زراعية فى كل قرية . قد يكون إتساع رقعة البلاد الهندية عائقاً ، ولكن المهم السير فى طرق الإصلاح التى ستؤدى بالشعب حتماً إلى التقدم .

حين يتساءل « كارانجيا » عن كنه فلسفة التركيب الاشتراكى الهندى . عن طريق الوسائل الودية الغاندية فى الصراع الطبقى . يعبر نهرو عن نبذه للحلول الماركسية العنيفة ، رغم اعترافه بأن الصراع الطبقى موجود دائماً . ولكن الأفضل فى نظر الزعيم ، اللجوء إلى سياسات التقريب بين هذه الطبقات . والعمل على تآلفها ، بدلا من الأساليب التسلطية العنيفة فى إنهاء هذا الصراع التاريخى . وإن سنده الوحيد فى هذا ، صلاحية هذه السياسات وإمكانية تطبيقها على الأقل بالنسبة للهند فى ظل تاريخها وتراثها . هذا فضلا عن أن الصراع الطبقى بشكله الحاد العنيف ، نذير يهدد بنسف الحضارة البشرية، فى عصر القنبلة الذرية وسهولة ملكية السلاح حتى على مستوى الأفراد العاديين . إن فكرية الزعيم متطورة مرنة . تأخذ المبادئ السلمية فى التعايش . وتخضعها لخدمة جماهير الهند فى عصر الذرة والفضاء ، تحت شعار « عش ودع الآخرين يعيشون » .

بل إن «نهرو» يضع اللاعنف كأساس فى محاولات تخفيف حدة الصراعات العالمية على المستوى الدولى . وإذا كانت الهند نفسها . قد تعرضت للمشاكل والعدوان من بعض جيرانها . رغم سياستها الطيبة هذه . فإن هذا يزيدها إصراراً ، على التمسك بأهداب هذه السياسة حرصاً على السلام . إن العدوان لا يدوم، والعداء لا يستمر .

وبصدد الأزمة الهندية — الصينية ، يتحدث الزعيم عن المشكلة بعمق ، مقدماً تحليلا سليماً لها . فالصينيون مصممون على تحويل أهل « التيبت » إلى شيوعيين ، على أساس أن المنطقة ولاية صينية . وفى هذا يلجأ الأصدقاء الصينيون إلى وسائل القمع والعنف . ونتيجة لهذا الضغط ، لجأ « الدالاى لاما » وغيره إلى الهند ، باعتبارها مقراً للعقيدة البوذية ، هنا ثار شعب الهند على عنف الصينيين ، وكان لا بد من تجاوب حكومته معه ، إلى جانب محاولات اقناع الصين بالبعد عن العنف، فى معاملتها لأهل « التيبت » .

إن سياسة الهند فى السلم ، بوحى من تاريخها ودياناتها .لا تعنى مهادنة الاستعمار ، فى العالم ، بل إن هذه السياسة أكسبتها مكانة دولية عظيمة ،فى عدم الانحياز إلى الكتل، ومحاربة الاستعمار والعنصرية فى كل مكان ، إلى حد التأييد الإيجابى لحركات التحرر . وإذا كان « نهرو » يؤمن تماماً بعدم شرعية العنف والحرب، كحل لقضايا عالمنا المعاصر ، فإنه بالتالى يقدم البديل ، تعاون دولى بلا شروط ، والبعد عن الانغماس فى الحرب العقائدية . إن الشعوب ذاتها فى عرفه لا تتقاتل ولا تتعادى . فالمواقف مواقف حكومات ليس إلا . وليس من الخير أن نترك اتهام الشر والسوء ، سجالا بين الكتلتين فى العالم . وإنه مما يدعو للسخرية مثلا ، الابقاء على المسألة الألمانية حتى الآن ، كما هى ، على أساس المخاوف ، التى تتملك المعسكرين من وحدة ألمانيا . وليس من المعقول كذلك ، أن نترك الرعب يستولى على أذهان البعض من غزو وهمى مرتقب من الاتحاد السوفيتى . إن أزمة الثقة يجب أن تنفض . وليجرب العالم كله سياسة الصدر الرحب المفتوح ، لكل العقائد والأفكار ، بشرط ألا تعوقه عن مضيه نحو السلام . وحينما يسأل « كارانجيا » عن دور الزعيم والهند فى هذا السبيل . يلخص « نهرو » موقف بلاده . فى تبشيرها دائماً بالتعايش . ومحاولاتها خلق فرص التفاهم بين المتصارعين .

وإذا كان البعض يرى فى بقاء الهند عضواً فى الكومنولث بعد الاستقلال ، انحيازاً ووضعاً يعوقها عن قيادة حركات التحرر الأفريقيةالأسيوية ، فإن « نهرو » يكشف ما غمض فى هذا الموقف . إن الكومنولث فى رأيه . لا يقيد بلاده بأية قيود عسكرية عدوانية . إنه مكان للقاء بين الأعضاء فى تعاون بناء ، على أساس السيادة الكاملة لكل عضو . والزعيم يقدم الدليل الذى يقوم فى مهاجمته التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا . من قلب لندن ذاتها . كمقر رسمى لدول الكومنولث. إن إرتباط الهند بالقارتين قوى تاريخى . لا يزعزعه مجرد إرتباط الهند إرتباطاً سلمياً بجاراتها تحت زعامة لندن . و « نهرو » يؤكد أن عدم الانحياز بالنسبة للهند . حتمية تاريخية وضرورية .

حين ينتقل « كارانجيا » بالحديث إلى سؤال الزعيم أن يختار ، خليفة بعده . يعتبر « نهرو » السؤال خطأ أساسياً . فن أين له اختيار الخلف إذا كانت هذه مسألة تعنى شعب الهند وحده ؟ إذا كان « غاندى » قد أوصى به خليفة له ، فإن التوصية لم تكن كافية ، بل إن جهاده ونضاله دعما مكانته بين جماهير الهند . وما قيمة القادة الأفراد . إذا لم نطمئن على وجو قاعدة سليمة من بعدنا . هذه القاعدة تستند إلى ديمقراطية برلمانية على أساس علمانى ، وإنماء اقتصادى يرتكز على التصنيع الثقيل . هذا إلى جانب اقتصاد هندى متطور ذاتياً ، فى إطار اشتراكى خلاق . حقاً إن هناك عناصر معوقة تنهج منهجاً فاشياً ، وتنتظر الفرصة للوثوب إلى السلطة، ولكن إقامة القاعدة السليمة ، هو ضمان الزعيم الوحيد ضد هذه التيارات المعاكسة . وكذلك فإن واجب القيادة الهندية ، أن تقوى صلتها بالجماهير حباً فى النظام ذاته . وليس حباً فى القيادة كأفراد . إن الهند بمختلف دياناتها وعقائدها ، كما تبدو اليوم متآلفة ، نتاج وحصيلة للطرق الحكيمة . التى سلكها حكماء الهند القدامى من « أشوكا » إلى « غاندى » ، بل إنها تقدم المثل للعالم كله ، فى التعاون البناء الذى يقوم على أرضها . بين الروس والأمريكان من أجل تقدم الهند .

إن الزعيم يبدو واثقاً متفائلا فى كل آرائه بالنسبة لبلاده ، التى يرى فى جماهيرها خصالا تنفرد بها فى الجد والكفاح ، واستعدادها العظيم للتعلم والاستجابة . هذه الخصال الهندية هى زاد كل فرد فى الهند . سواء كان عاملا وراء آلة ، أو فلاحاً فى حقل ، أو باحثاً فى معمل . إنها الحافز وهى الاحساس .

عندما يسأل « كارانجيا » الزعيم عن انطباعاته بالنسبة لأبحاث الفضاء وعصر الأقمار . يرد الزعيم رداً ممتعاً ذكياً . فهو يأسف لكبر سنه ، الذى قد يعوقه عن التمتع بهذه التغيرات وملاحقتها . ثم أن هذه التغيرات ، ستقدم مستقبلا طرقاً جديدة للتعاون البشرى ، وستحدد السلوك والتوازن بين أفراد المجتمع الإنسانى حتماً ، بل إن التقدم العلمى الهائل فى عصرنا ، قد فرض بالفعل قيماً جديدة فى علاقات الدول . ويا حبذا لو صاحب هذا التقدم العلمى فى التقنية تقدماً روحياً ومعايير أخلاقية جديدة . تحكم من يملك الطاقة الذرية والقوة بكل أنواعها ، ضماناً لحسن التصرف .

بهذه الحلول الرائعة ، وبهذه الفكرية المستنيرة ، اختتم الزعيم حديثه إلى « كارانجيا » ، تاركاً فى نفس كل قارئ لهذا الكتاب ، تفاؤلا وأملا عظيماً فى غد مشرق ينتظر البشرية ، وسلاماً يقضى على المخاوف التى تعترينا جميعاً ، كأفراد فى المجموعة الإنسانية من غول رهيب اسمه الحرب .

حازم محمد

جولة بين الكتب

طه حسين . . الشاعر الكاتب

تأليف : محمد سيد كيلانى .

الناشر : الدار القومية العربية للطباعة

١٧٦ ص ١٤ × ٢٠ ث ١٥ قرشاً

دراسة جديدة من نوعها لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، ركز المؤلف فيها على الفترة الأولى من حياته ، وهى التى تسبق رحلته إلى فرنسا لطلب العلم ، هذه الفترة التى كان يحتل الشعر فيها أبرز جوانب طه حسين الأدبية . وللمؤلف ملاحظات عديدة على أدب طه حسين وتفكيره ، قد لا تعجب بعض محبيه ومريديه ، ولكن هذا لا يمنع المؤلف من أن يقول ما يريد .

الإصبع والزناد

تأليف : محمد كمال محمد .

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٧٦ ص ١٤ × ٢٠

ث ٧ قروش

مجموعة من القصص القصير ، هى الإصبع والزناد ، وشىء صغير ، والطريق الآخر ، وحراشة ، وعائشة ، والدار ، والحصان الخشبى ، وبلا هزيمة ولم يعد صغيراً ، وجنحة ، والمارد ، ورؤيا ، وبسيمة والمطر ، وضوء الحياة ، والجدار الأخير ، والكم الفارغ .

فن الترجمة فى الأدب العربى

تأليف : محمد عبد الغنى حسن .

الناشر : الدار المصرية للتأليف والترجمة ٢٣٣ ص ١٧ × ٢٠

ث ٢٥ قرشاً

كتاب جديد من حيث الموضوع الذى يتناوله والقضية التى يثيرها ، فهو يتناول مشكلات الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وبخاصة ترجمة الشعر والكتب المقدسة والقرآن ، وشرائط هذه الترجمة ومدارسها المختلفة ، والمناهج التى اتبعها المترجمون المعروفون ، مع إلمامة سريعة بتاريخ الترجمة والترجمات الشهيرة ، والإتيان بنماذج توضح فكرة الكاتب ، ووجهة نظره فى فن الترجمة .

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

— وهذا جهد آخر فى خدمة التراث العربى تنهض به مديرية الثقافة العامة بوزارة الثقافة والإرشاد فى القطر العربى الشقيق « العراق » ، يكمل الحلقة القوية المتضافرة القائمة على إحياء هذا التراث . فقد نشرت أخيراً « ديوان عدى بن زيد العبادى » وهو شاعر جاهلى عاش فى القرن السادس الميلادى ، سكن الحيرة فلان لسانه وسهل منطقه ، ثم تولى الكتابة لكسرى : وقد ذكر المرزبانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن بيت عدى نقلا عن رواية الحسن البصرى :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه
فان القرين بالمقارن يقتدى

إنه « كلمة نبى ألقيت على لسان شاعر » :

وقد قام بتحقيق هذا الديوان وجمعه الأستاذ محمد جبار المعيبد ، فاجتمع له من المخطوطة الوحيدة التى رجع إليها — وهى محفوظة بالمكتبة العباسية فى البصرة — ومما جمعه من كتب الأدب أكثر من ٩٠٠ بيت يقول إنه رقم يستطيع أن يطمئن إليه على الرغم من عدم اقتناعه بأنه كل شعر عدى .

— وعن « وزارة الثقافة والارشاد » بالعراق تصدر مجلة رفيعة شقت طريقها منذ عام ونصف فاحتلت فى البلاد العربية مكانة عالية ، هى « الأقلام » وهى مجلة فكرية عامة لها هيئة تحرير مؤلفة من السيد وزير الثقافة والارشاد والدكاترة جميل سعيد وأحمد شاكر شلال وأحمد مطلوب وفيصل الوائلى والأستاذين نعمان ماهر وخالد الشواف ؛ ويتولى سكرتارية التحرير الأستاذ عامر رشيد السامرائى .

وقد صدر الجزء الخامس من السنة الثانية . ومن بين موضوعاته مقال للدكتور مراد كامل عن « حاجة العالم إلى لغة عربية فصحى مبسطة » قال فيه : إنه « كان لظهور الكيان العربى المتحد ، والسيادة العربية المنتصرة فى الفترة الأخيرة ، أثره الظاهر فى تحديد المعالم بين العامية والفصحى . خاضت الفصحى معركة امتد بها الزمن فى حرب خفية شنتها عليها فئة من أبناء اللغة أنفسهم . وكان هدفها تفتيت وحدة اللغة العربية وبلبلتها وهلهلتها وتمزيق أوصالها وتوزيع كتلتها إلى لهجات محلية غير متفاهمة ، وبذلك تدفع بتراثها الذى كسبته عبر الأجيال إلى زوايا النسيان » .

وقال إن المعركة انتهت اليوم بين لغة الحديث التى تركت وتطورها الطبيعى وبين اللغة الفصحى التى كانت ولا تزال نقطة التجمع والظهر الذى شد أزر العرب فى كفاحهم عبر المعارك التى خاضوها ؛ ثم ينتهى إلى موضوعه ، فيقول : « إن وضع لغة عربية بسيطة هو استغلال لكل مقومات اللغة

الفصحى وتجنيد قواها لخدمة الأهداف العربية ، ولصالح أمة العرب فى مختلف أوطانها وأديانها وسياساتها واقتصادياتها ، وهى فى النهاية أساس لفهم التراث العربى القديم والتفقه فى تاريخ اللغة العربية » .

ويقول : إن اللغة البسيطة « ستمدنا بلغة عالمية تفوق حتما جميع المحاولات فى ابتكار لغات عالمية ، بل ربما فاقت الانكليزية الأساسية ، لأن انتشار العربية وأثرها على لغات كثيرة أسيوية وأفريقية سيمهد لها سبيل الانتشار وييسر اقبال الناس على دراستها والتعامل بها ، ونقل آثارنا الأدبية إلى لغات أخرى » .

وينتهى إلى القول : بأننا « فى سبيل الوصول إلى لغة فصحى بسيطة علينا أن نقوم بإحصاء الألفاظ المستعملة فى الكتابة حتى يمكن اختياو أقل عدد من الالفاظ بحسب النتائج التى نصل إليها . ولا نمس قواعد اللغه أو صرفها ، وفى الإملاء نأخذ بالإملاء المبسط الذى وضعه مجمع اللغة العربية » .

ثم يوضح الطريق إلى هذه الغاية فيقول : إن علينا « أن نختار أكبر عدد ممكن من الكتب يراعى فيها تنوع الموضوعات وكذلك المجلات والصحف اليومية . فاذا كانت اللغة العربية تضم ثلاثة أرباع مليون وحدة لفظية فان الاحصاء يجب أن يشمل — فى رأيه — ٧٥ مليون كلمة ، وذلك حتى نصل إلى نتيجة أقرب إلى الواقع فى تردد الكلمة ، ثم نعمد إلى بعض اللغات الأفريقية التى بها دخيل من العربية مثل السواحيلى والصومالى والهررى والهوسا والتجرينيا فنجمع الألفاظ العربية المشتركة فيها ، ثم نتجه إلى بعض لغات آسيا مثل الباكستانية والأندونيسية والفارسية لنحصى ما اشتركت فيه من الألفاظ العربية » . ويقول : « إننا سنخرج عن ذلك كله بحوالى ١٥٠٠ كلمة هى قوام ما ندعو إليه من لغة عربية فصحى بسيطة » .

— أتم الأستاذ إبراهيم الإبيارى تحقيق كتاب « مختلف القبائل ومؤتلفها » لأبى جعفر محمد بن حبيب بن أمية مولى بنى العباس المتوفى سنة ٢٤٥ هـ وقد بين فى هذا الكتاب أسماء القبائل المتشابهة لفظاً ، المختلفة نسباً . وكان قد طبع هذا الكتاب ويستنفيلد فى جوتنجن سنة ١٨٥٠ .

وستنشر مكتبة «النهضة المصرية» الطبعة الجديدة.

ولمحمد بن حبيب عدد من المؤلفات نشر منها كتاب « المحبّر » طبع بالهند بتحقيق الدكتورة إيلزه ليحتن شتيتر الأمريكية . ونشر له الأستاذ عبدالسلام هارون أربعة كتب فى مجموعة « نوادر المخطوطات » هى : « من نسب إلى أمه من الشعراء » و « أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء » و « كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه » و « ألقاب الشعراء » :

— وقد انتهى الأستاذ عبد السلام هارون من كتابه « الألف المختارة من صحيح البخارى » الذى تنشره « دار المعارف » حيث ظهر الجزء العاشر ؛ وهو الأخير ، مشتملا على اثنى عشر فهرساً للآيات وللألفاظ الحديث المفسرة ومصطلح الحديث والأمثال والأشعار والأرجاز والأعلام والقبائل والبلدان والكتب ثم المباحث الدينية والاجتماعية والحضارية :

وقد عرض الألف المختارة على أمهات الشروح والتفاسير الجليلة لتبيان أغراضها ومراميها ؛ ولم يشأ أن يستقل بالتفسير دون اعتماد على تلك الأمهات ، ثم قام باستكمال ما يحتاج إليه القارئ العصرى من توضيح وتعليق وتفسير وتيسير ، ومن ضبط دقيق لألفاظ الحديث وتحقيق لرواياته . واعتمد فى ذلك أربعة شروح هى : الكرمانى وابن حجر والعينى والقسطلانى ، مشيراً إلى أماكن وجودها منها . وقام بتخريج هذه الأحاديث من الكتب الستة ، وهى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

— وأعد الأستاذ هارون للنشر كتاباً آخر عكف على تأليفه زمناً هو « معجم الفرق الإسلامية » وهو بحث وتعريف بهذه الفرق وأصحابها وتاريخها، مبيناً نسب كل فرقة إلى أصلها ثم أصل أصلها حتى يصل بها إلى إحدى الأمهات السبعة المعروفة من الفرق الإسلامية .

— يواصل الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم جهوده فى نشر التراث العربى فى تراجم اللغويين والنحاة وأهل الأدب ، فهو بعد أن نشر ثلاثة أجزاء من كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطى محققة تحقيقاً علمياً ممتازاً فى مطبوعات «دار الكتب» ونشر كتاب « طبقات النحاة واللغويين » لأبى بكر الزبيدى ، وكتاب « مراتب النحويين » لأبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى ، ، ثم كتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى ؛ كما ذكرت فى هذا الباب من العدد التاسع عشر الصادر من هذه المجلة فى شهر ديسمبر الماضى .

قدم للطبع كتاباً آخر سيصدر عن دار « نهضة مصر » هو كتاب « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » لأبى البركات عبدالرحمن بن محمد بن الأنبارى المتوفى سنة ٥٧٧ هـ — وهو غير ابن الأنبارى أبى بكر محمد ابن القاسم شارح المفضليات والمعلقات السبع المتوفى سنة ٣٢٨ هـ — وقد حقق الأستاذ أبو الفضل هذا الكتاب تحقيقاً اتبع فيه المنهج الذى سلكه فى كتاب « إنباه الرواة » . وقد امتازت الطبعة الجديدة عن الطبعتين الحجرية التى نشرت فى القاهرة سنة ١٢٩٤ هـ والعراقية التى نشرها الدكتور إبراهيم السامرائى فى بغداد سنة ١٩٥٩ م بالضبط وتحقيق الأسماء المتشابهة .

— وينشر « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » فى سلسلة المطبوعات التى أشرت إليها فى العدد الثانى والعشرين من هذه المجلة ، كتاب « الدرر فى المغازى والسير » لابن عبد البر القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ بمدينة شاطبة من شرق الأندلس ، وكان إمام المحدثين فى المغرب .

وهذا الكتاب الذى ينشر الآن بتحقيق الدكتور شوقى ضيف هو اختصار للسيرة النبوية لابن هشام .

وابن عبد البر القرطبى هو صاحب كتاب « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » الذى ترجم فيه لأصحاب الرسول — رجالا ونساء — ممن روى أو جاءت عنه رواية .

وله كتاب آخر يوشك أن يظهر قريباً حيث يطبع الآن فيما تنشره « الدار المصرية للتأليف والترجمة » وهو كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » الذى قام بتحقيقه الأستاذ محمد الخولى بجامعة الدول العربية ، كما أشرنا إلى ذلك فى العدد السابع عشر الصادر من هذه المجلة فى شهر أكتوبر سنة ١٩٦٥ .

— يعد الدكتور زكى نجيب محمود والدكتورة نعمات أحمد فؤاد كتاباً يتناول المعارك القلمية التى خاضها المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، وستعرض صفحات هذا الكتاب كل ألوان النضال الفكرى لهذا الكاتب الكبير سواء مع الآخرين أو مع مذاهب وأفكار معينة .

وسيصدر هذا الكتاب عن « دار القلم » .

— كما تقوم الدكتورة نعمات أحمد فؤاد بتأليف كتاب عنوانه « الدعوة إلى الحرية فى أدب العقاد » حيث كان يؤمن العقاد بأن الجمال هو الحرية. وستتناول المؤلفة فى هذا الكتاب عبقريات العقاد .

وقد تناولت من قبل فى دراسة واعية زميل العقاد فى جهاده الفكرى المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى فى كتابها « أدب المازنى » . وقد قال العقاد عن كتابها هذا : « وهذه الصفحات التى كتبتها السيدة الفاضلة نعمات أحمد فؤاد فيها من هذه الأخبار (أى الأخبار الخاصة التى يستعان بها على دراسة أدب كل أديب وتفسير نظرته إلى الحياة وتعليل مزاجه) كفاية وفوق الكفاية لهذا الغرض ،

وأكاد أقول إنني على معرفتي بالأخ المازني نحو أربعين سنة لا أعرف من هذه الأخبار فوق ما جمعته هذه الصفحات إلا القليل الذي يدخل في باب التكرار لنوع واحد ، فلا شك أنه جهد حثيث توفرت عليه السيدة الفاضلة وقامت بحق الأمانة التاريخية فيه أجمل قيام » .

— وعلى ذكر عبقريات العقاد نذكر أنه قد ظهرت فى بيروت طبعة جديدة تضم هذه العبقريات فى مجلد واحد بعنوان « العبقريات الإسلامية » وذلك عن « دار الآداب » هناك .

كما أن « دار الهلال » بالقاهرة قد أعادت طبع معظم ما نشرته له فى سلسلة « كتاب الهلال » فى طبعات جديدة وفى مقاس أكبر من الطبعات السابقة.

— للأستاذ طاهر الطناحي دراسات ممتعة فى الأدب والفلسفة والاجتماع ، كان ينشرها على الناس فى الحقبة الطويلة التى أدى فيها — وما يزال يؤدى — رسالة التثقيف فى الصحافة الجادة . وقد جمع هذه الدراسات أخيراً فى كتاب ستنشره له « الدار المصرية للتأليف والترجمة » بعنوان «ساعات عشتها» .

— ويعد الأستاذ طاهر الطناحي كتاباً آخر للطبع عنوانه « قلوب فى حياة مي » ، وهو لون ممتع من ألوان الترجمة لحياة الأدباء من زاوية خاصة هي زاوية العاطفة ، وهي أكبر الزوايا أثراً فى حياة الأديب وحياة من اتصلوا به فى هذه الناحية .

وسيعرض فى هذا الكتاب علاقات عباس العقاد وأحمد لطفي السيد وأمين الريحاني وأنطون الجميل وجبران خليل جبران ومصطفى صادق الرافعي وولى الدين يكن مع هذه الكاتبة الكبيرة التى كان ناديها الأدبي معرضاً فكرياً رائع المثال .

وسينشر الأستاذ طاهر الطناحي فى كتابه هذا الرسائل التى تبودلت بين بعض هؤلاء الكتاب وبين هذه الأديبة التى كان لها أثر لا ينكر فى الأسلوب النثري .

— منذ سنوات والدكتور عبد الرحمن زكي معنى بتاريخ الإسلام وبمدى انتشاره خارج شبه الجزيرة العربية حيث انبثق نوره ومشت دعوته إلى ربوع العالم بدون أن تكره أحداً على الدخول فيه عملا بقوله تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي » . وبهذه العناية أخرج الدكتور عبدالرحمن زكي ، من قبل ، كتاباً ضخماً فى عدة أجزاء عنوانه « المسلمون فى العالم اليوم » أطلعنا فيه على انتشار الإسلام فى القارات الخمس مدعماً بالإحصاءات والمعلومات الطريفة .

ثم أخرج أخيراً الجزء الأول من محاضراته التى ألقاها فى معهد الدراسات الإسلامية بعنوان «الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقية » .

ولقد مر الإسلام فى انتشاره بين شعوب أفريقية — أى بعد انتشاره فى مصر والشريط الساحلى لهذه القارة — بعدة مراحل ، بينها المؤلف ، ثم ذكر أن الدعوة الإسلامية استمدت حيويتها من الأزهر وزوايا المغرب ومدارس فاس ومراكش ومدارس طائفة القادرية فى تمبكتو ومن بعض زوايا طائفة التيجانية وزوايا السنوسية فى جغبوب وغدامس منتحية جهات بحيرة تشاد فأصبحت وادای وبرنو مراكز إسلامية تتأجج فيها حماسة الدعوة . ثم أخيراً مراكز الدعوة الإسماعيلية فى الساحل الشرقى حيث يقوم بها الهنود والباكستانيون من الساحل إلى أوغندة وإلى المناطق التى يقطنها البانتو . ولقد كانت مصر فى ذلك كله هى نقطة الانطلاق .

ثم عرض علينا فى فصول الكتاب المتعددة كيف دخلت الدعوة فى النوبة والسودان والحبشة والصومال وشرق أفريقية ، وفى كينيا وأوغندة ، وفى تنجانيقا ومالاى وموزمبيق وتوزيع القبائل المسلمة فيها ، ثم فى الجزر الأفريقية : دهلك ، برم ، قمران ، زنجبار ، مالاجاسى ، سوقطرى ، موريشيوس . لينتهي إلى عرض مظاهر الحضارة الإسلامية فى مدن الساحل الشرقى ، وليقدم بعد ذلك تقويماً بأهم الأحداث فى تاريخ هذه القارة ، وبياناً بالمراجع المتخصصة فى أفريقية الإسلامية .

حسن كامل الصيرفي



تيارات في المجلات والصحف

يقدمها
جمال بدران

- إن النقد والنقد الذاتي من أهم الضمانات للحرية ...
- إن الثورة ليست عملية هدم أنقاض الماضي، ولكن الثورة هي عملية بناء المستقبل « الميثاق »

الكتاب العربي في شهر

أصدر الدكتور محمد عبد القادر حاتم قراراً يقضي بانشاء « صندوق لتنمية صادرات السلع الثقافية والسياحية » .. ويستهدف هذا القرار تنظيم تصديرها للخارج وتشجيع إنتاجها وفتح أسواق جديدة أمامها مع إقامة مراكز لتوزيعها وتبسيط الإجراءات الجمركية بشأنها حتى تحقق زيادة

حصيلة النقد الأجنبى ما يسمح بتمويلها ذاتياً والوصول بها إلى الجودة التى تسمو بها إلى المنافسة العالمية .

وقد أفردت مجلة الإذاعة . .

. . . فصلا كاملا لمعرفة الآثار أو الفوائد المنتظرة من هذا الصندوق ، فسألت الدكتور حسين عيد رئيس مجلس إدارة الشركة القومية للتوزيع عن الخطوات التمهيدية التى يتطلبها تنفيذ هذا المشروع فيما يختص بأقدم صادرات مصر . . ألا وهو الكتاب العربى . . فقال « تسويق الكتاب بالطريقة التى كانت وما تزال لن ينجح إلا إذا أعدنا النظر فى تنظيم تصدير الكتاب — وهو ما سيحققه المشروع — إلى الخارج تحت الإشراف الجدى للقطاع العام . . إذ أن تصدير الكتاب حتى الآن . . وفى غالبية الأحيان يواجه عقبات كثيرة أولها هؤلاء الذين يتخذون من كتبنا مادة لتهريب العملة تحت ستار التوسع فى نشر ثقافتنا على المستوى العريض لدرجة أنه يمكن شراء الكتاب المصرى فى بيروت بأقل من ثمنه فى القاهرة .. ولا بد أن نلاحظ — فى الدرجة الأولى — أن تتم عملية بيع الكتاب بالعملة الصعبة فقط دون غيرها » . أما الأستاذ إبراهيم خورشيد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية للتأليف والترجمة فيرى أن هذا المشروع له « خلفية واسعة وعميقة حول نهضة الكتاب العربى ومشكلات توزيعه فى البلاد العربية الإسلامية . . وهذه الخلفية تمتد إلى اشتراك البلاد العربية فى الموضوع لأنها لعبت دوراً فى مشاكل التوزيع والتسويق للكتاب العربى » .

أما مدير مطابع الدار القومية للطباعة والنشر فيتحدث عن الكفاءة الفنية لمطابعه واستعدادها لطبع كل الكتب المدرسية فى العالم العربى . . حتى لا تلجأ هذه الدول إلى طبع كتبها فى بيروت أو بعض البلدان الأوروبية .

والكتاب العربى إذ يشكر للأستاذ مدير المطابع حماسته وهمته لطبع الكتب المدرسية وتخليصها من مطابع بعض الدول الأوروبية . . لا يفوته أن يتمنى لمطابع الشقيقات العربيات فى بيروت وفى بغداد وفى دمشق وفى عمان . . وكل عواصم العالم العربى كافة . . يتمنى لها الكتاب العربى كل تقدم وازدهار . . فما صندوق تنمية السلع الثقافية غير تجميع لكل الطاقات والكفاءات ورءوس الأموال العربية العاملة فى هذا المجال ، للخروج بالكتاب العربى وبالصحافة والمجلات العربية وبالأشرطة السينمائية العربية وبالتحف والآثار العربية إلى النطاق العالمى ، واتخاذ وضعها المرموق فيه .

وهناك نقطة أخرى من الأهمية بمكان فى مجال المنافسة المشروعة ألا وهى الطبعات المباعة بأقل من مثيلاتها فى موطنها الأصلى . . فأظن أن الدكتور

حسين عيد يؤيد مثل هذا النوع إذا ما وضعت له الحسابات الدقيقة والإجراءات الكفيلة بضبط الإشراف على توزيعه وضمان الربح المتبادل المعقول له . . مثل هذا الذى يحدث فى الطبعات الشعبية للكتب الإنجليزية المباعة فى جنوب شرق آسيا .

إن كل كتاب يتم نشره ليعتبر فى حد ذاته انتصاراً لجهد الإنسان وفكره ، وكل كتاب يعاد نشره يؤكد معنى إصرار الإنسان على إشباع جوعه العقلى . . فاذا ما عملت المجلات والصحف على تقديم هذا الزاد إلى قرائها دعمت فى الوقت ذاته مكانتها لديهم وأعانت على تحقيق اشتراكية الفكر . وفى هذا المضمار تسابقت الزميلات العربيات . . فها هى الأهرام . . .

. . . تواصل نشر الترجمة الكاملة لكتاب كوامى نكروما « الاستعمار الجديد » فتقدم لنا نظراته الفلسفية العميقة فى فهم الركائز الخفية لهذا النوع الجديد من الاستعمار ، وكيف يتسلل إلى مناطق أطماعه بالنصائح الاقتصادية الخبيثة ، وكيف أن الصراع بين الفقراء والأغنياء قد تطور إلى المستوى الدولى فصار بين دول غنية وأخرى تريد أن تتخلص من الفقر ، وكيف أن المعونات المقدمة من هذه الدول الغنية لا تزيد على ½٪ من دخلها ، ثم يشرح نكروما كيف نجحت هذه المحاولات فى ضم بعض حكام الدول حديثة الاستقلال فساروا فى ركاب الاستعمار الجديد وصاروا لا يستمدون العون والنصح إلا من سادتهم لا من شعوبهم ، كذلك عرفنا من الكتاب كيف اتخذ الاستعمار الجديد من إفريقيا ميادين للحرب الباردة وللتنافس بين الاحتكارات الدولية ، وأبرز لنا العداء الشديد الذى يضمره هذا الاستعمار للوحدة الأفريقية واستقلالها . . ثم يقدم لنا الحلول . . التى يعتبر من أهمها وأشقها تحقيقاً قيام حكومة متحدة أفريقية .

● ● ●

الدليل الاقتصادي

وفى مجلة الدليل الاقتصادية . . اللبنانية . .

. . . تعرض لكتاب « مستقبل إفريقيا » تأليف جاك ووديس، قائلة: « كتاب يتحدث عن شخصية القارة السوداء وعن الوحدة الأفريقية ودورها فى المجال الدولى » . . ويرى ووديس أن طريق الاشتراكية هو الطريق الطبيعى المأمون أمام دول القارة فعلا وواقعاً . . فعلا . . لأن هذه الدول الجديدة إن حاولت السير فى طريق الرأسمالية فستقع حتماً تحت سيطرة الاستعمار لأنها لن تستطيع أن تصبح دولا رأسمالية بالفعل . وواقعاً . . لأن العلاقة بين القوى المنتجة والطبقات تستبعد عملية تحويل الدول الأفريقية إلى دول رأسمالية ، ولما كان

تحويل دولة متخلفة إلى دولة غنية ليس بالأمر الهين ، وكان التصنيع هو الطريق الوحيد للتغلب على التخلف الاقتصادى . . صارت ضرورة التطور المستقل تحتم تأميم الشركات الأجنبية وتطبيق الإصلاح الزراعى كحل وحيد ولا شيء غيره .

ومن ثم فان الاقتصاد هنا لم يعد مجرد تخطيط واستخدام للمواد الخام والآلات وجمع الإحصائيات . . بل هو الارتباط الشديد أيضاً بعنصر الشعب نفسه الذى لا بد أن يبذل مجهوداً استثنائياً ويتحمل الصعاب والنقص المؤقت الذى يلاقيه فى حياته من أجل أفريقيا .

روز اليوسف

ومن أبرز الكتب التى عرضتها مجلة روز اليوسف . .

. . . كتاب ج . ب . نيتل عن حياة وأفكار روزا لكسمبورج الذى أصدرته أكسفورد . . ويتتبع المؤلف حياة روزا منذ طفولتها فى بولندا ، وإسهامها فى تكوين الحزب الاشتراكى هناك فى شبابها ، واعتقالها فى سجون القيصرية ، ثم هربها إلى ألمانيا وانضمامها إلى الحزب الاشتراكى هناك الذى تزعمته فيما بعد ، ثم دعوتها إلى الثورة فى يناير ١٩١٩ قبل مصرعها فى نفس اليوم بيد خصومها .

ويعرض المؤلف لآرائها وخلافها مع لينين حول المسألة القومية لأنها كانت تؤمن بأن الثورة لا وطن لها ، وحول اعتماد الثورة الكامل على الجماهير العريضة لا على الحزب وحده . . وما دور القادة فى ذلك إلا التأهب وترتيب التفاصيل وتنظيم مسار الثورة فقط . . ذلك لأن التاريخ سيدفع العمال إلى الثورات بالضرورة .

الحرية

وفى مجلة . . الحرية اللبنانية . . .

. . . خبر يؤكد خطورة الكتاب العربى كسلاح يخشاه العدو ويتقى بطشه بشتى السبل . . فقد حكمت محكمة الناصرة العسكرية – بفلسطين المحتلة – على المحامى العربى الشاب صبرى جريس ، بالحبس عشرة أيام أو دفع غرامة قدرها خمسون ليرة إسرائيلية . . لاتهامه بدخول قريته التى تعتبر منطقة محرمة على عرب فلسطين .

والاتهام باطل من أساسه ، والتعسف فى عدم الإفراج عنه بكفالة واضح وثابت فى المحاكمة . . وما سبب ذلك إلا لأنه قد ألف كتاباً يفضح مخازى الإسرائيليين ومظالمهم بعنوان « العرب فى إسرائيل » سوف تعمل مجلة الكتاب العربى على الحصول عليه لتقدمه إلى القراء على صفحاتها .

موضوعات للدراسة

العدل والثورة

إن قيام ثورة من الثورات فى التاريخ كان يعنى فى حد ذاته الاحتجاج الصارخ على أوضاع ليست من العدل فى شىء ، والرغبة الملتهبة فى الإطاحة بها لإحلال النظام العادل مكانها . . وما ذلك إلا باعطاء كل ذى حق حقه بما يتفق وحق المجموع .

ولقد زاد وزير العدل هذا الأمر وضوحاً فى مذكرته الإيضاحية لمشروع قانون المرافعات المدنية والتجارية . . فقال « ليس عدلا بحال ، ذلك الذى يأتى بعد الأوان . فان هو فعل ، فهو إلى الظلم أدنى وبه أشبه . كذلك ليس عدلا ، ذلك الذى يرهق كاهل المستجير به ، المتطلع إليه ، بثمن غال – يبذله صاغراً – من جهد أو مال . . . وفى مجتمعنا الاشتراكى ، حيث العدل كالخبز ، حق محتوم لكل مواطن ، يستحيل الرجاء إلى إرادة ، يمليها الشعب ويفرضها ، بسلطان لا ترد له مشيئة » .

وتطبيقاً لهذه المعانى قام وزير العدل برحلات إلى المحاكم فى قنا وأسيوط والمنيا وبنى سويف ، والتقى خلال هذه الرحلات بالقضاة والمتقاضين ، ثم سأله موسى صبرى بعد انتهاء هذه الرحلات عما جاء به من نتائج . . فأجاب فى جريدة الأخبار . .

. . . يقول : « كان النداء العام للجماهير هو المطالبة بتشريعات تحقق عدلا سهلا بلا تعقيد ، ووقف كثرة تعديل القوانين حتى يتحقق الاستقرار النفسى وخاصة بالنسبة للمبادئ التى شرعها الميثاق الوطنى » .

ويقول الكاتب أيضاً إنه قد استحدثت فى قانون العقوبات جريمة تجرمها المجتمعات الاشتراكية . . ألا وهى الجريمة الاقتصادية التى ستفرض لها عقوبة رادعة لحماية أموال الشعب .

لكن الكشف عن مثل هذا النوع من الجرائم يتطلب شكلا فريداً من الرقابة الدقيقة . . حتى لا تضيع أموال الدولة الاشتراكية هباء ، وحتى لا يكون هذا الشكل من الرقابة من الرهبة بالدرجة التى تخيف كل عامل فتقعده عن إنتاج شىء . . وفى هذا المعنى قدمت . . روز اليوسف . . . . . . فى صفحتها النظرية . . بحثاً يقول . . إن العاملين فى القطاع العام يضمون أربعة أنواع . . نوع امتدت خبرته بأعماله إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية

ـ وهم قلة ـ ونوع بدأت خبرته خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها ـ وهم أكثر قليلا من الأولى ، ونوع نزل إلى ميدان الأعمال الحرة بعد العدوان عام ١٩٥٦ ـ وهم أكثر من السابقين ، ثم نوع التحق بأعمال فى القطاع العام بعد صدور القوانين الاشتراكية عام ١٩٦١ ـ وهم الغالبية التى انتقل كثير منهم من مركز حكومى بدون سابق خبرة عملية بادارة مصانع أو تجارة خارجية أو بنوك أو تأمين . . الخ . ويرى كاتب البحث النظرى أن الرقابة على هؤلاء يجب أن تكون عبارة عن عملية مراجعة على الأهداف دون التفاصيل . . أهداف اقتصادية تتمثل فى النتائج المالية التى تحققها الشركات ، وأهداف سياسية تتمثل فى مدى مطابقة النتائج المالية للمفهوم الاشتراكى . . ومن ثم يتركز دور الرقابة فى الجهاز المركزى للمحاسبات وفى الاتحـاد الاشتراكى . . على أن يسبق الرقابة والتحقيق دور أساسى وهام ـ ألا وهو محاولة الإصلاح أولا ، فان لم ينجح هذا العلاج يأتى دور الحساب .

وقد عرض سعيد سنبل هذا الموضوع عن طريق تقديم أحدث كتاب مؤلف فى هذا المجال . . بعنوان « الرقابة على المؤسسات العامة » للدكتور عبد السلام بدوى . . فكتب فى جريدة أخبار اليوم . .

. . . يقول « إن الرقابة هى مجموعة من العمليات تتضمن جمع البيانات وتحليلها للوصول إلى نتائج ، تقوم بها أجهزة معينة ، للتأكد من تحقيق المشروع لأهدافه بكفاية مع إعطاء هذه الأجهزة سلطة التوصية باتخاذ القرارات المناسبة » . ويؤكد مؤلف الكتاب أن مهمة الرقابة هى التأكد من تحقيق الأهداف واكتشاف نقاط الضعف والقصور فى الأداء حتى يمكن اقتراح الإجراءات والوسائل التى تيسر سبل العلاج . . ومهما اختلفت أهداف الرقابة وتنوعت فانها تنحصر فى هدفين رئيسيين . . التحقق من أن الإنفاق تم وفقاً لما هو مقرر له ، وأن الموارد قد استخدمت أفضل استخدام .

ولما كانت الدولة فى النظام الاشتراكى تتبع أسلوب التخطيط الشامل ، والتكامل بين أجهزة الرقابة . . صارت هذه الرقابة أكثر فاعلية وأسرع حركة من تلك التى توجد فى النظام الرأسمالى . . ومن ثم صار لزاماً علينا العمل على إيجاد الترابط بين الأجهزة التى تراقب نشاط المؤسسات العامة حتى تتحقق هذه الفاعلية ، وحتى تقوم بدور فعال فى بناء المجتمع الاشتراكى الذى تعتبر المؤسسة العامة فيه إحدى خلاياه ، وحتى نقضى على الجريمة الاقتصادية ـ التى أشار إليها وزير العدل ـ قبل استفحالها . . وعلى غيرها من الجرائم التى تقلق ميزان العدل الثورى .

● ● ●

. . . إن ما يجتاح العالم الثالث الآن من زوابع وأعاصير تمثلت فى حرب ساخنة تارة وباردة فى أغلب الأوقات ، وما يتهدد هذا العالم غير المنحاز من تدخلات ومحاولات انقلاب ، وما أسفرت عنه الحقبة الأخيرة من مخططات جديدة فى أسلوبها وسرعة حركتها ، وما ينتظر حدوثه من مؤامرات استعمارية لا تنتهى . . ثم ما كشف عنه كل هذا من ثغرات فى بناء هذا العالم النامى وما لحق بشعوبه وأحاط بها من علامات تعجب وهمسات اتهام . . .
وقد كتب سامى منصور فى الأهرام . . .

. . . عن الحقيقة الضائعة وراء ظاهرة عدم تحرك الجماهير لمقاومة الانقلابات العسكرية فقال : « إن سبب هذه الظاهرة مرجعه إلى أن زعماء هذه الدول لم يخلفوا خلفهم جيلا يحمى مكاسب ثوراتهم التحررية ضد الاستعمار ، وأن عدم تنظيم الجماهير قد جعلها تفقد ذاتها وقدرتها على الحركة فى الوقت الذى كانت فى أشد الحاجة للحركة . . » . ومعنى هذا أن الجيل التالى لجيل من صنعوا الاستقلال هو أقل صلابة فى الجهاد . . جيل تائه فى المظاهر الكاذبة وغير مدرك لضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه . . لذلك فان سكونه أمام هذه الانقلابات لا ينم عن رضا بقدر ما يحتويه من ذهول أمام مفاجآت الأحداث ، خصوصاً وأن القوى الانقلابية قد اعتمدت على العنصر الداخلى والعامل المحلى . . وهذا هو التكتيك الاستعمارى الجديد لاستعادة مناطق نفوذه . . فاذا استطعنا أن نحصر هذه العناصر الداخلية والعوامل المحلية لكان فى إمكاننا الاعتماد على القوى الشعبية فى كتم مثل هذه الانقلابات . .
ولميشيل كامل محاولة بناءة بهذا الخصوص فكتب فى مجلة الطليعة . . .

. . . يقول . . أولها الاعتماد الرئيسى فى الحركة الوطنية والتنظيمات الحزبية والأجهزة التنفيذية على نظام النخبة Elite التى تتمثل فى المثقفين ، وهؤلاء يلتقون مع المصالح الاستعمارية وعناصر من الرأسمالية المحلية ومن المشتغلين بالسياسة عند الحل الوسط . ثانيها تخلف الأوضاع الاجتماعية وسيادة الروح القبلية التى تضعف من الرباط الوطنى . ثالثها اضطرار القيادات الجديدة إلى الاستعانة بالموظفين الذين عملوا تحت إمرة السلطات الأجنبية — موظفين مدنيين أو عسكريين — فاكتسبوا أساليبها وعقليتها . رابعها الصراعات الخفية فى الحياة الحزبية . خامسها استغلال قدر من التذمر بين بعض الفئات الشعبية التى لم تحس بتغيير حاسم وعاجل فى ظروفها المعيشية . سادسها التضخيم فى انتصارات الاشتراكية على الرأسمالية المنهارة . . مما أدى إلى التهوين من قوتها والإغماض عن استعداداتها الجديدة .

الدول الكبيرة يحوز من جيوش المخابرات ما لا يمكن تحديده أو حصره . . فان ذلك معناه أن العالم . . والعالم الثالث على وجه الخصوص – فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية – سيكون ميداناً لحرب مريرة بهذه الجيوش الخفية . . فما هو دورنا نحن شعوب هذه المنطقة ؟ هل نسكن أمام هذه الانقلابات التى حدثت وربما تحدث فى كل لحظة بفعل هذه القوات المستترة المتصارعة ؟ ! هل نقف موقف الدفاع فقط ولا أقول الدهشة والذهول ! . . إن خير أساليب الدفاع هو الهجوم . . لا بد من استعادة عنصر المبادرة بالعمل مثلما كان منذ مؤتمر باندونج . . لا بد من نقل ميدان الحروب الخفية إلى أراضى مشعليها . . لا بد من تخليص مناطق العالم الثالث وتمهيد أراضيه للبناء لا لساحات الانقلابات . . لا بد من اليقظة الدائمة والضرب بشدة على يد كل ساذج مفتون أو حقود موتور . . ولا بد أخيراً من أن تعلو لغة الشعوب على رموز محترفى المغامرات . . فكيف السبيل ؟ . . إن المفكر البوليفى لويز باديلا يقدم لنا بحثاً من واقع تجربة ثورية فى بوليفيا . . فى الإمكان أن نهتدى به إلى طريق الرد على هذا الزحف الجديد . . . . وها هى مجلة الوقت . .

. . تترجم هذا البحث الذى يقول فيه . . « إن تطور الاتجاهات المعادية للديمقراطية ، الاتجاهات الاستبدادية وخنق المبادرة الشعبية ، والانزلاق إلى اليمين فى السياسة الخارجية ، ومحاولات حل المسائل الاقتصادية بواسطة عقلية تكنوقراطية ومعادية للشعب ، كل ذلك يدل على التغييرات الخطيرة لدى الفريق الاجتماعى الحاكم ، وهو خطر بالغ الشدة يهدد أكثرية البلدان الضعيفة التطور التى تسلك طريق الثورة الشعبية . . وكما يثبت مثال بوليفيا مرة أخرى أمام كل شعب خسر مؤقتاً إحدى المعارك . . لا بد أن يدرك أن الطريق الصعب الذى يجب أن يسلكه . . هو الطريق الثورى الذى يعبئ وينظم كل فئاته لانتزاع الحكم الشعبى الذى يستطيع وحده أن يحبط الأخطار التى تخلقها النزعات الوافدة » .

ولهذا فان الواجب أصبح يحتم إعادة تنظيم صفوف شعوب العالم الثالث ، ولنبدأ بشعوب أمريكا اللاتينية الملتهبة التى تستطيع أن تمتص قدراً كبيراً من جهود مثيرى ومدبرى الانقلابات الجديدة ، ومن ثم تنكمش بعض امتداداتهم لتتيح فرصة أمام شعوب أفريقيا تستعيد فيها الأنفاس ، وتعيد خلالها ترتيب أمورها . . على دعامات راسخة من العلم وواقع الحال .

الدول الكبيرة بحوز من جيوش المخابرات ما لا يمكن تحديده أو حصره . . فان ذلك معناه أن العالم . . والعالم الثالث على وجه الخصوص – فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية – سيكون ميداناً لحرب مريرة بهذه الجيوش الخفية . . فما هو دورنا نحن شعوب هذه المنطقة ؟ هل نسكن أمام هذه الانقلابات التى حدثت وربما تحدث فى كل لحظة بفعل هذه القوات المستترة المتصارعة ؟ ! هل نقف موقف الدفاع فقط ولا أقول الدهشة والذهول ! . . إن خير أساليب الدفاع هو الهجوم . . لا بد من استعادة عنصر المبادرة بالعمل مثلما كان منذ مؤتمر باندونج . . لا بد من نقل ميدان الحروب الخفية إلى أراضى مشعليها . . لا بد من تخليص مناطق العالم الثالث وتمهيد أراضيه للبناء لا لساحات الانقلابات . . لا بد من اليقظة الدائمة والضرب بشدة على يد كل ساذج مفتون أو حقود موتور . . ولا بد أخيراً من أن تعلو لغة الشعوب على رموز محترفى المغامرات . . فكيف السبيل ؟ . . إن المفكر البوليفى لويز باديلا يقدم لنا بحثاً من واقع تجربة ثورية فى بوليفيا . . فى الإمكان أن نهتدى به إلى طريق الرد على هذا الزحف الجديد . . . . وها هى مجلة الوقت . .

. . تترجم هذا البحث الذى يقول فيه . . « إن تطور الاتجاهات المعادية للديمقراطية ، الاتجاهات الاستبدادية وخنق المبادرة الشعبية ، والانزلاق إلى اليمين فى السياسة الخارجية ، ومحاولات حل المسائل الاقتصادية بواسطة عقلية تكنوقراطية ومعادية للشعب ، كل ذلك يدل على التغييرات الخطيرة لدى الفريق الاجتماعى الحاكم ، وهو خطر بالغ الشدة يهدد أكثرية البلدان الضعيفة التطور التى تسلك طريق الثورة الشعبية . . وكما يثبت مثال بوليفيا مرة أخرى أمام كل شعب خسر مؤقتاً إحدى المعارك . . لا بد أن يدرك أن الطريق الصعب الذى يجب أن يسلكه . . هو الطريق الثورى الذى يعبئ وينظم كل فئاته لانتزاع الحكم الشعبى الذى يستطيع وحده أن يحبط الأخطار التى تخلقها النزعات الوافدة » .

ولهذا فان الواجب أصبح يحتم إعادة تنظيم صفوف شعوب العالم الثالث ، ولنبدأ بشعوب أمريكا اللاتينية الملتهبة التى تستطيع أن تمتص قدراً كبيراً من جهود مثيرى ومدبرى الانقلابات الجديدة ، ومن ثم تنكمش بعض امتداداتهم لتتيح فرصة أمام شعوب أفريقيا تستعيد فيها الأنفاس ، وتعيد خلالها ترتيب أمورها . . على دعامات راسخة من العلم وواقع الحال .

لقد نشطت البحوث العلمية فى الجمهورية العربية المتحدة بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ، وحققت انتصارات فى شتى مجالاتها بدرجة لفتت إليها أنظار العالم ، ولم ترد جمهوريتنا أن تنفرد وحدها بثمار هذه الانتصارات ، ففضلت أن يشاركها العالم العربى نفعها ، فساعدت بخبراتها وقدمت خبراءها إلى شقيقاتها العربيات لتسير فى ركب التقدم العلمى العالمى . . وها هى عمليات التنقيب الجيولوجى تكشف عن ثروات دفينة تصلح لإقامة صرح صناعى متين فى العالم العربى مواز لبناء الإنسان العربى الجديد . . وفى جريدة صوت العروبة . . .

. . . يعلن رشيد كرامى على أهل طرابلس سراً فيقول . . « السر الذى أريد أن أعلنه هو أنه لما كنت فى القاهرة لأيام خلت وقابلت سيادة الرئيس جمال عبد الناصر . . فنقلت إلى سيادته رغبة أبناء طرابلس وتصميمهم على إنشاء كلية للطب . . فاذا بسيادته يستجيب ويعلن العزم من ناحيته على أن يتبنى هذه الكلية ويعمل كل ما باستطاعته لتحقيق المشروع » .

ولا ننسى أن السيد رشيد كرامى يعلن هذا التصريح بمناسبة الاحتفال بعيد الطفولة فى لبنان . . عيد بناء الإنسان العربى الوليد .

ثم نشرت جريدة الأهرام . . .

. . خبراً يقول « يصل القاهرة خلال هذا الشهر وفد هندسى سودانى يضم عشرة مهندسين للتباحث مع المسئولين فى نقابة المهندسين المصرية حول المسائل التى تهم البلدين وزيادة التعاون الهندسى بينهما ، كما يصل يوم ١٠ أبريل وفد من طلبة البكالوريوس فى كلية الهندسة بجامعة الخرطوم لقضاء فترة تمرين لمدة شهرين فى الشركات والمصانع العربية » .

إننا نفهم من هذين الخبرين مدى الإصرار على تأدية الرسالة العلمية الذى تضطلع به جمهوريتنا نحو عدة المستقبل العربى المشرق ، نحو الغد العلمى ذى النتائج المضمونة . . نحو الطريق الطبيعى للتطور العالمى . . فهل يرضى أحد بالتخلف عن هذا الطريق ! ! أو يقبل الانحراف عنه إلى متاهات الجهالة والمحادلات الفارغة ! ! لا بد من توجيه الطفل العربى الحديث إلى العلم ، لا بد من تنمية ذكائه وقدراته لقبول المفاهيم والبحوث العلمية ، حتى يشب الجميع به فيعلو البناء ويكتمل .

وفى هذا المعنى تدعو مجلة الطليعة . . .

. . . إلى إنشاء مجلس أعلى لثقافة الأطفال تكون مهمته تحديد الاحتياجات التى تتطلبها المرحلة الحالية والمستقبل البعيد ، ومتابعة النشاط الذى يتصل بثقافة الطفل وتوجيهه . وكذلك إنشاء بيوت الرواد للأطفال الممتازين فى دراساتهم الفنية والاجتماعية .

فهل يمكن أن يكون مثل هذا المجلس شاملا فى اختصاصه أطفال العالم العربى كلهم ؟ وهل فى الإمكان أن ننتشر بيوت الرواد هذه فى شتى أنحاء الخريطة العربية ؟ وهل نرجح التركيز على الدراسات العلمية فى مثل هذه البيوت ؟ أرجو أن نضع نصب أعيننا هذه الاعتبارات مع إصرارنا على تنفيذ هذا المشروع البناء .

فقيد الحياة ومجدد الأدب

كانت وفاة الأستاذ أمين الخولى فى الشهر الماضى مجالا لإحياء الكلام عن الأدب والحياة . . وفى الحق أن الأستاذ الفقيد كان فى حياته مثلا نابضاً لإخلاص كل صاحب رسالة وإصراره على إعلائها والتسامى بها عن شوائب التضليل وعن خدع وأفانين الشكليات المستحدثة التى لا تستند إلى أصل ولا تنبع عن أصالة .

الجمهورية

وقد قدمت جريدة الجمهورية . . .

... مقالين عن الراحل الكريم . . فكتب الدكتور عبد الحميد يونس قائلا : « كانت طريقة المحاضرة التقليدية فى الجامعة أقل ما يأنس إليه فى دروسه ، وكان يعتقد ويصرح أن الجامعة أستاذ ينهض به تلاميذه . . ولذلك آثر منهج الجدل وتوليد الأفكار على طريقة المحاضرة ، وآثر تدريب طلابه على فن التفكير أولا وعلى مواجهة المادة الأدبية المدروسة ثانياً . . وكنا كلما قلنا له إننا - والحياة من حولنا - أحوج ما نكون إلى تسجيل آرائه وأحكامه وتأصيل مناهجه فى كتاب نفيد منه ، وتفيد منه الأجيال التى تكر بعدنا أجاب : إنى مثل سقراط أعيش مع تلاميذى أكثر مما أعيش فى كتاب » .

وأظن أننا نلمس من هذا مدى إيمانه بالتفاعل والاحتكاك بين الأديب وبين الحيـــاة .

أما الدكتور شكرى محمد عياد فقد قال : « ارتبط اسم الفقيد - فى مجال الدراسة الأدبية - بأكثر من دعوة . . كان أولها التفسير الأدبى للقرآن الكريم التى كانت تستوجب بذل شيء من الجهد فى فهمه فهماً لا يقف عند حدود التفاسير القديمة التى شيب معظمها بأساطير الأمم الغابرة وعقائد الفرق المتناحرة ، بل يتجاوز ذلك إلى استخدام الأساليب الحديثة فى البحث اللغوى والأدبى ، مستعيناً بمعارف العصر فى علم النفس وفى علم الاجتماع . والدعوة الثانية التى ارتبط اسمه بها هى المنهج الإقليمى فى دراسة الأدب بمعنى المنهج العلمى الذى يحل المركب إلى بسائطه ليبحثها شيئاً فشيئاً . . توصيلا بذلك إلى معرفة المركب معرفة تامة » .

وأظن أن هذا المعنى العلمى يدحض الرأى القائل بأن المنهج الإقليمى

يتعارض مع القومية العربية . . فهو يدعو إلى إقامة الأدب العربى على قواعد علمية رصينة .

أما صلاح عبد الصبور فقد كتب فى الأهرام . . .

. . . يقول . . « الفن والحياة هما الكلمتان اللتان ارتبطتا عند الأمناء بأوثق رباط . . ففى كلمة الفن وإيثار استعمالها على كلمة الأدب التفات واضح إلى أن الأدب لون من ألوان الفن ، وأنه شقيق للموسيقى والنحت والتصوير ، وأن من المحبب تدعيما لهذا الرأى أن نطلق على الأدب « فن القول » أو الفن الذى أداته الكلمة . . وأن الكلمة الأخيرة فى كل أمر من الأمور لم ينطقها إنسان حتى الآن » . . لذا فقد كان إيمانه بالمستقبل من العمق بدرجة تقرنه باليقين الرياضى .

المصور

كذلك كتب محمود أمين العالم فى المصور . . .

. . . يقول « بهذا النهج الحيوى نظر أمين الخولى إلى الماضى والمستقبل . . فاختار المستقبل فى حسم . . دون أن ينكر ما للماضى من أمجاد . وبهذه النظرة الحيوية كذلك تعرض أمين الخولى لبعض المشاكل المثارة فى حياتنا الأدبية مثل قضية الفصحى والعامية . . فوجد الحل أيضاً فى هذه النظرة الحيوية . . إنه يقول : « إن اللغة هى لغة الحياة . . فكيف يثار تساؤل حول جواز استعمالها ؟ ! ! . . بل حتى اللغة الرسمية « الفصحى » لا حياة لها إلا بقدر ما تستطيع أن تكون لغة الحياة » .

لكننى فى هذه النقطة بالذات لا يسعنى إلا أن اعتبر اللهجة العامية كتطبيق للدراسة على الأدب الإقليمى الذى دعا إليه الفقيد ، والذى يمهد ويؤدى فى النهاية إلى الكليات . . ألا وهى الفصحى التى ينضوى تحت لوائها كل هذه الحالات المنعزلة من اللهجات .

أما الدكتور أحمد كمال زكى . . فقد كتب عن فكرة ومنهج أمين الخولى على صفحات الهلال . . .

الهلال

. . . مقرراً أن الفقيد قد خاض أربعة مجالات . . أولها دينى ، وثانيها لغوى ، وثالثها أدبى ، ورابعها بلاغى . وهو فى الأولى أكثر إيجابية وأكثر تفاعلا بالحياة عن هذا الذى كان يدعو إليه كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . . لأنه يرى أن المثقف المتحرر يستطيع أن يواجه مشكلات الواقع المتجددة بالنصوص الصريحة الدلالة التى تتخطى الجزء إلى الكل . . فالدين يصلح دائماً للحياة ، وفى القرآن فعلا ما هو واقع بدائى ، لكنه يحتوى الكل المرتبط دائماً بالمثالية . . ومن ثم فان أخطر ما نتعرض له لهو الجمود أو الانسحاب إلى الوراء فى استعذاب للحرمان والفقر تحت اسم التصوف أو

الزهد . وهو فى الثانية يرى أننا حلقة من حلقات تطور اللغة العربية من ناحية ، وأن ابتعادنا عن أصول لغة القرآن التى هى لغة الأدب والعلم منذ العصر الجاهلى قد أوجد صدعاً بين ما يمكن أن تقبله حياتنا العامة وما تقوم عليه اللغة الأم . . ناسين أنها بالضرورة ظاهرة مادية اجتماعية تتطور تطور الكائن الحى ، وليس كثيراً ولا غريباً أن تنشأ العامية والفصيحة وتدور بينهما صراعات مستمرة . . وما نستطيع أن نعمله ليس أن نرد الفصحى إلى صورة ما فى عصر ما ، وإنما نقربها فى ذوقها الصوتى وجرسها الموسيقى من آذان أبنائنا . وفى الثالثة يرى الفقيد أن الأدب ليس صنعة ولكنه تجربة نفسية أو تجربة حياتية أخطر ما فيها أن تصل إلى المتلقى بأيسر سبيل ، وخير ما فى الأدب أنه بطبيعته ثورة أى حركة متوثبة فى أعماق النفس البشرية تتخذ من القول الفنى وسيلة للتعبير والإفضاء . وفى الرابعة وجد شيخ الأمناء أن البلاغة أو فن القول – باعتبارهما شيء واحد – تقرر غايتين : غاية عملية ترمى إلى تحقيق مصالح حيوية للأفراد والجماعات ، وغاية فنية تستهدف الامتاع بالتعبير عن الإحساس بالجمال أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفنى المترجم عن الشعور بالحسن » .

القصة والمسرح والنقد

القصة :

. . . تناثرت القصص القصيرة على صفحات المجلات والصحف ، ولم يكن من نصيب القصة الطويلة غير كتاب واحد له الح مرسى فى قصته بعنوان « الكذاب » التى كانت تنشر تباعاً فى مجلة صباح الخير . وكان مستوى القصص القصيرة متراوحاً بين المتوسط وما دونه . . فيما عدا قصة لمحمود تيمور فى مجلة العربى بعنوان « اللهم اخزك يا شيطان » وأخرى فى جريدة الجمهورية بعنوان « حفيد الخليل » لعبد الحميد جوده السحار . لكن من أطرف القصص التى نشرت فى هذا الشهر اثنتان لمؤلفين مختلفين . . لو كانتا امتزجتا فى إطار واحد لأنبتت منهما قصة من أجود القصص العربى القصير . . قد يدهش القارئ لهذا الخاطر الذى راودنى . . فلكل كاتب قصة مزاجه وأسلوبه الخاصين به فكيف يكمل عمل فنى متفرد عملا آخر ! ! هذا هو وجه العجب . . فالقصة الأولى بعنوان « عجوز منذ البداية » للأديب جهاد الكاتب . . نشرتها مجلة الأديب اللبنانية . . .

. . . وتحكي عن زوج عجوز مكابر . . لا يريد أن يعترف بالحقيقة التي صار إليها ، وينساق في مكابرته إلى حد البوح لصديق عمره على المقهى بأنه قرر التخلص من زوجته العجوز . . التي لا يدري كيف اختارها شريكة لحياته وهي تكره في العمر سنوات وسنوات ، وعندما يرأف صديقه بحاله ويشفق بأعصابه المنهارة يوافقه على رغبته في الخلاص . . خصوصاً وأنه لم ينجب منها طفلا يخلد به اسمه . . لكن صدمة تفيق الصديق المشفق من مجاراته للزوج ، الذي نهض متهللا عائداً إلى بيته ليقتل هذه الزوجة العجوز التي ضيعت عمره ، فيصيح الصديق مضطرباً ليوضح له موافقته على التخلص منها بالطلاق لا بالجريمة . . ولا يجد من الزوج العجوز قبولا وأذناً مصغية إلا همهمات منه تردد مؤكدة عزمه . . ويصل إلى البيت ليجد زوجته تغط في النوم ، فيخلع هو ملابسه ثم يخلع طاقم أسنانه ليتمطى فوق مخدعــه لاهثاً كالدمية .

أما القصة الأخرى فهي للدكتور بديع حقي بعنوان « حديث دمية » نشرتها مجلة العربي . . .

. . . أجرى الأديب السوري القصة كحديث على لسان الدمية التي اشتراها الأب لطفلته سعاد ، وظلت الطفلة تسعد بها وتحنو عليها كلما أمالتها على صدرها فتسمع منها كلمتها الآلية « ماما » . . حتى كبرت وصارت عروساً بينما بقيت الدمية على حجمها الذي لا ينمو . . وحفظتها صديقة العمر في صندوقها المظلم إما للمغالاة في العناية بها وإما لانشغالها عنها كعروس تهتم بزوجها ، ولم تفتح سعاد الصندوق إلا عندما كانت تقف بجانبها طفلتها التي أنجبتها ، بينما وقف الجد الذي كان قد اشتراها لها وعلى وجهه ابتسامة باهتة وفي عينيه دمعة حائرة لزوجته التي ماتت . . لكن صياح الطفلة الجديدة طالبة هذه الدمية قد قطع عليه طريق الذكريات .

ألا تكمل كل قصة منهما الأخرى ؟ . . أظن هذا . . فما رأى كاتب كل منهما ؟

أما نقد القصص فكان منصباً كعادته على القصة الطويلة عامة وعلى قصص نجيب محفوظ خاصة . . ويبدو أن الكلام عن أديبنا لن ينتهي بسبب اختلاف الآراء حول أعماله المتجددة . . وهذه من أهم السمات الحيوية لإنتاجه أما اختلاف الآراء فمرجعه وفرة الزوايا وخصوبتها التي تناسب شتى المشارب والاتجاهات . . ولذلك فانني أرى جوألا يشغل أديبنا الكبير وقته في الرد على نقدات موجهة أو آراء تعوزها منهجية التقييم ، ففي أعماله الخلاقة ما يكفل الرد على كل راغب في الاستزادة . . وأظن أن هذا هو ما يفضله .

تعقيب على مقال

رد على نقد كتاب عبقرية العقاد

ظهر العدد الثانى والعشرون وفيه مقال للأستاذ عبد المجيد دياب عن كتاب « عبقرية العقاد » للأستاذ عبد الفتاح الديدى . والمقال يعطى صورة سريعة عن الكتاب ، وتلخيصاً محكماً دقيقاً يشكر عليه الأستاذ دياب ، إذ أشار إلى دور العقاد فى ميادين الفلسفة والعلم والفن واللغة والشعر والسياسة ، بطريقة تغرى بقراءة العقاد أو ما يكتب عن العقاد ، لكننا نختلف معه فى مواضع . منها قوله : « يقضى على الواجب أن أقول كلمة صادقة . وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على وجهة نظرى التى قد أتعارض فيها مع المؤلف » .

ومن الطريف أن يكون عنوان الكتاب موضع تعارض فى وجهات النظر إذ يقول المؤلف : « ألقيت أغلب الأضواء على النواحى التى تروقنى فيه » أى العقاد . فيعقب الناقد : « .. إذاً فالكتاب لا يمثل عبقرية العقاد برمتها وإن كان يمثل جانباً منها » . ومصداق ذلك ما سجله المؤلف نفسه « وليس المقصود بهذا الكتاب أن يكون تعريفاً كاملا شاملا لشخصية العقاد . وحسبه أن يؤدى معنى التحية إلى الأستاذ » فإذا كان المؤلف قد أبان بهذا الوضوح أن الكتاب لا يعرف بالعقاد تعريفاً كاملا شاملا ، فماذا يدعو إلى التنويه ؟ أكان ينبغى أن يكون عنوان الكتاب « بعض عبقرية العقاد » أو « عن عبقرية العقاد ؟ » وأين هو الكتاب الذى يحيط إحاطة تامة بشخصية عبقرية أو بعبقرية عظيم أو مصلح من أقطاب الإنسانية وأعلامها ؟ ليس من شك فى أن « عبقريات العقاد » قد بلغت أقصى ما يصل إليه الإتقان فى فن الترجمة ، لكن شخصيات العظماء أبعد مدى من أن تحيط بها كتابة عبقرى أو عظيم ، حتى العقاد نفسه ما كان يستطيع أن يكتب عن نفسه كتابة تنتهى عندها أكمل الكتابات على الإطلاق .

يقول الناقد : « الحمأ » بفتحتين و « الحمأة » بسكون الميم هى الطين الأسود . فيا ترى هل يقصد المؤلف تشبيه السياسة بالطين الأسود ؟ أم أن هذا ومثله أثر من آثار السرعة فى الكتابة؟ ونتساءل : متى كانت الحياة السياسية صفاء خالصاً متصلا فى جميع البيئـات والأزمنة ؟ وإذا كانت السياسة قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد شابتها عناصر الرجعية والفساد والغفلة ، فقد كانت فيها بعض العناصر الوطنية المتطلعة إلى التغيير الثورى رغم الاستعمار والقصر . وكانت السياسة أيام العقاد مزاجاً من الظلم ومحاولة الإصلاح للتخلص من استبداد الملك وسيطرة الاحتلال والرأسمالية المستغلة . فإذا كان العقاد قد اشترك فى حمأة السياسة أو فى طينها الأسود فليس معنى ذلك أنه كان أحد عناصر السوء فيها . لأن المرء قد يشترك بالإصلاح فيما هو فاسد . كالطبيب الذى يغشى « حمأة » المرض التى تلوث مرضاه ليشترك فى العلاج . المريض والطبيب يريدان الإصلاح فما ضير أن نصف الفسـاد السياسى بالطين الأسود ؟ « الحمأة » هنا تعبر عن الجانب السيىء فى السياسة قبل الثورة ، مختلطة بالطبع بعناصر الإصلاح كما يختلط الطين بالماء وتشترك الأرض والزارعون فى خوضه والاستفادة منه .

ونتساءل : ما ضير أن يثبت المؤلف كلاماً وجهه العقاد إليه كقوله : « أنا عارفه وعارف مغامراته . . . . » والكتاب فى تقديرنا لا يستغنى عنه إذا أردنا أن نؤرخ للعقاد ، أو نستدل بكلمة من كلماته على جانب من شخصيته أو نفسيته ، وهو كذلك أثر فنى بالإضافة إلى مادته العلمية . ومن شأن كتاب متنوع كهذا الكتاب فى منهجه

وموضوعاته أن يلم بما يعبر عن أثر العقاد فى نفس المؤلف ، وعن مدى تأثر المؤلف بالعقاد ، وعما يريد المؤلف أن يقوله فى الحياة الأدبية المعاصرة على ضوء ثقافته وعلى ضوء العقاد من جهة أخرى . ولا تخلو الحال إذن من إثبات بعض العبارات العابرة التى قد يستهان بها لأول وهلة . بينما هى فى مجال البحث عن الشخصية التى تصدى لها الكتاب مصابيح هادية ومفسرات لازمة للباحث . ومعلوم أن كلمة واحدة قد تغنى فى تفسير الشخصية عن ألوف السطور .

ويعترض الناقد على نشر المؤلف لخطاب أرسله العقاد إليه عندما كان المؤلف فى فرنسا . والخطاب وثيقة هامة وليس نشره استعراضاً أو مباهاة بقدر ما له من أهمية فى مثل هذه الجولات التى جاها المؤلف فيما كتب عن العقاد .

وأهم ما تضمنه الخطاب نظرة العقاد الجمالية والدينية حين يمتزج الجانبان فى دراسة واحدة ، والنظرة الوجدانية فى فهم العقائد ، حيث يخطىء فى فهمها الحساب والمنطق والحس الحيوانى .

ولكن متى تنتهى مثل هذه الملاحظات من النقد ؟ إن النقد الجاد شىء غير هذا .. يقول الناقد : « ثم ما معنى قول المؤلف « ونلاحظ على شعر العقاد أنه خلا من الفلسفة » أى باحث صادق يقول بهذا وكلنا يلمس — بكلتا يديه — فلسفة العقاد فى شعره ، وما معنى قوله بعد ذلك « واستخلاص فلسفة العقاد من شعره ممكنة » أيمثل هذه الصورة المهزوزة عن العقاد يستطيع القارئ أن يرى فى هذا الكتاب عبقرية العقاد ؟ » .

ومن المؤسف ألا يحاول الناقد قراءة الكتاب قراءة هضم واستيعاب ، ليدرك أن المؤلف يقول فى دراسة واعية فى شعر العقاد : « ونحن نلاحظ على شعر العقاد أنه خلا من الفلسفة ، ولذلك يمكن أن نحكم عليه بأنه لم يبن أفكاره الشعرية على مبادئ فلسفاته . ولكن يمكننا أن نقول أيضاً إنه أقام نظرات فلسفته على أحاسيسه الشعرية . واستخلاص فلسفة العقاد من شعره ممكنة على أساس أنه يبدأ من الشعر كفن شعرى بحت خال من الصنعة الفلسفية . ومع ذلك فوجدانه الشعرى مشرب بالتأمل الفلسفى ملىء بالنظرات والمعانى الفلسفية . أو بعبارة أخرى العقاد لم يفكر كفيلسوف ثم وضع فلسفته فى قوالب شعرية . وإنما أحس أولا ثم صعد بأحاسيسه إلى صميم الوجدان الفلسفى . فهو فى فلسفته يستند إلى معانيه وصوره الشعرية » (ص ٨١)

أيفهم من هذا النص أن المؤلف ينفى فلسفة العقاد من شعره ؟

ولسنا ندرى أية صعوبة فى فهم قول الأستاذ الديدى : « كل عمل نقوم به فى نواحى النشاط الأدبى أو الفنى . . . ينبغى — أولا وقبل كل شىء — أن يكون متابعاً للحركات الحديثة التى ظهرت فى أوربا ، والتى كان من أبرعها هذا العدد الضخم من المذاهب والمدارس . . حتى يمكننا أن نقول إن كل عمل أو اتجاه فى الأدب لا يبدأ من حيث انتهى هؤلاء مصيره إلى الفشل . ومآله لا محالة إلى الإخفاق » .

من العجيب أن يتهم الناقد المؤلف بالدعوة إلى الارتباط بالأدب الأوربى فيقول : « ولا يظنن ظان أنى أحرم عليه الاستفادة بالآداب الغربية وغيرها ، بل الواجب عليه أن يطلع على الثقافات الأخرى ما أمكنه ذلك . لا أن يرتبط بها تمام الارتباط كما يفهم من كلام المؤلف » .

مع أن المؤلف يقول : « إن يكون متابعاً للحركات الحديثة » والمتابعة لا تعنى التهافت أو التطفل أو إلغاء الشخصية والفناء فى شخصية أخرى ، بل المتابعة للآداب الأجنبية من أوليات المنهج الصحيح فى البحث والدراسة . أما قول المؤلف : « إن كل عمل أو اتجاه فى الأدب لا يبدأ من حيث انتهى هؤلاء مصيره الفشل » . ففهمه سهل يسير ، إذ المفروض فى أية نهضة أن تستفيد من خلاصة ما حولها من نهضات . والخلاصة أن ننظر فيما انتهت إليه الآداب الأجنبية والفكر العالمى . ومعنى هذا أن ندرس تطور هذه الآداب منذ النشأة حتى دورها الراهن . هنا تكون البداية الصحيحة ، وكذلك تكون البداية فى الكتابة الأدبية القائمة على ثقافة شاملة أقوى مما لو كانت محدودة غائبة عما يجاورها من تيارات ومذاهب أجنبية . هل معنى هذا أن ترتبط بعجلة الغرب ؟ والارتباط نفسه لا يحدث — فيما نرى — طواعية واختياراً فى الأمم السليمة ، ناضجة العقلية والشخصية . إن الارتباط إلى درجة الفناء ظاهرة من ظواهر غلبة حضارة على حضارة فى جانب من جوانبها كالآداب والفنون أو الفلسفة أو التشريع .

ولا تزال بين أيدينا آثار من نهضات أجنبية كالمسرح والرواية ، لكن الشخصية العربية قد استطاعت أن تتفوق على بعض هذه الألوان من الفن الإنسانى ، مع الاحتفاظ بالطابع العربى فيما تنشئ من فن المسرح أو من فن الرواية . لأن فى الطبيعة العربية عوامل الاستقلال وأصالة الإبداع ، وحق لقانون التأثر والتأثير أن يقول كلمته الفاصلة .

ومن الإنصاف أن نثبت ما قاله الأستاذ الديدى فى كتابه بالحرف الواحد : « ولا سبيل لأن تكون حضارة صالحة البنيان متينة الأساس ما لم [نلاحق] أدباء الغرب فيما استحدثوه من التيارات والنزعات الفكرية . هذا أمر مفروغ منه ولا يحتاج إلى كثير إثبات حتى يمكننا أن نقول إن كل عمل أو اتجاه . . . إلخ . ولسنا بهذا ننكر الاستفادة من الأدب العربى أو الإطلاع عليه ، وإنما نرجو أن نتخذ لأنفسنا نقطة البدء فى عملنا من حيث انتهى أدباء الغرب فى القرن العشرين . لا من حيث انتهى شعراء العرب وأدباؤهم فى القرن الثالث عشر على أكثر تقدير » . (ص ٧٠)

ونظن أن المسألة لا تحتاج بعد ذلك إلى تعليق .

عبد العزيز مصطفى

دفاع عن مقال الأدب والحياة

لدى مطالعتى لتعقيب الأستاذ فؤاد دواره على مقالى عن ترجمته لكتاب جوركى « الأدب والحياة » قفز إلى ذهنى على الفور هذا السؤال : كيف اعتبر الأستاذ دواره نقدى لترجمته من قبيل الاتهامات التى « لا أساس لها » ، والتى تلقى « دون تثبت » . . فالمسألة واضحة ومحددة . الأستاذ فؤاد دواره ترجم بعض كتابات جوركى ، وقد طابقتها على الترجمة الرسمية التى تنشرها هيئة حكومية هى دار النشر باللغات الأجنبية بموسكو — فوجدت الترجمة العربية بعيدة كل البعد عن الترجمة الرسمية ، لا لخطأ فى كلمات ، بل لأنها ترجمة غير أمينة ، إذ اختصرت عشرات الصفحات إلى بضع صفحات وأحياناً إلى صفحة واحدة أو صفحتين . . وبرر الأستاذ دواره هذا الخطأ بقوله إن الترجمة تمت عن أصل إنجليزى ، فدفع خطأ بخطأ . . أليس من الأوجب أن تتم الترجمة عن الأصل الكامل لا المختصر . . والأستاذ دواره يلومنى لأننى لم ألحظ الفرق بين الترجمة الروسية والترجمة العربية . . وأبادر إلى إجابته بأننى لم أتصور أن تتم ترجمة لكتابات كاتب روسى بدون استعانة بالترجمات الروسية التى وإن بدت ركيكة إلا أنها دقيقة وأمينة ، والدليل على ذلك ، تلك الاختصارات التى جعلت الترجمة العربية تبدو وكأنها مؤلفة . . والمفروض فى الترجمة أساساً أن تتم نقلا عن اللغة الأصلية التى كتب بها المؤلف كتابه ، فإذا تعذر ذلك ، فلتكن عن الترجمة الأكثر أمانة والتى تتولاها هيئة رسمية يهمها التعريف بأدب جوركى بإخلاص ودقة دون مراعاة لظروف النشر ، كحجم الكتاب وتكاليف طبعه . . إلى غير ذلك من مشاكل دور النشر الخاصة . . ولبيان الدقة أطالبه بالرجوع مرة ثانية إلى كتاب :

On Literature — M. Gorky Foreign Languages Publishing House – Moscow.

ومطابقته على كتاب :

Literature and Life

المشار إليه فى تعقيبه ، وكذلك مطابقة الفصول المترجمة من الكتاب الأول بواسطة « ألفريد فرج » فى « صور أدبية » وسيرى إلى أى حد تضمنت الترجمة الإنجليزية مسخاً لكتابات جوركى . . وعلى أى حال أن خطأ فى كلمة أفضل من إسقاط عشرات الصفحات ، ومن أين له بصحة الترجمة الإنجليزية ، هل راجعها على اللغة الروسية ؟ ! وإنى واثق من أن حكمه على مقالى سيختلف تماماً عما جاء بتعقيبه .

والأستاذ فؤاد دواره غاضب على لأنى لم أتصل به شخصياً لأستفسر عن أصل الكتاب المترجم ، وأنا لا أناقش ما لدى الأستاذ دواره من أصول ، أو مخطوطات ، إنما أناقش الكتاب الذى بين أيدى القراء . . وهو غاضب أيضاً على أسرة تحرير المجلة الكريمة ، وهو فى غضبه يستعديها ضدى ، ويطالبها بعدم نشر مقالى ، وقد تولت المجلة — مشكورة — الرد فيما يخصها . . ومحور كلامه يتركز فى أنه كان يجب استئذانه من جانبى ومن جانب أسرة المجلة قبل نشر المقال . . ويبدو لى أن الأستاذ فؤاد دواره يؤمن بالعلاقات الشخصية دون العلاقات الثقافية.

ومأساة النقد فى بلادنا راجعة إلى هـــذه العلاقات الشخصية ، فالكتاب المنقود فى صحافتنا هو غالباً إما كتاب مرضى عنه لشخص صاحبه فيكتب النقد لمجاملته ، وإما مغضوب عليه لشخص صاحبه أيضاً فيكتب النقد لمهاجمته . . وفيما عدا ذلك فكل كتاب محكوم عليه بالإعدام فى نظر النقاد من ساعة ميلاده ، نتيجة للداء الأدبى المعروف باسم « الشلل » . . وقد أكدت مجلة « الكتاب العربى » وجودها ببعدها عن الاعتبارات الشخصية وتوجيه جهدها إلى الاعتبارات الموضوعية وحدها ، أقول هذا لا نفاقاً وإنما من واقع تجربتى الذاتية.

والأستاذ دواره يقرر أنه لا صلة بين كتابه وكتاب ألفريد فرج « صور أدبية » سوى فى فصلين : « تشيكوف وتولستوى » ، وأنا لم أقل غير ذلك . أما عن ملاحظته الخاصة برأيى فى استبعاد القسم الأخير من الكتاب لكونه عملا دعائياً لا شأن لنا به . . واستناده فى نقده إلى أن النص يجب أن يترجم كاملا ولنعلق ما نشاء عليه من تعليقات فأنا معه على شرط أن يكون النص عملا متكاملا متصلا نسيىء إليه بالبتر . . ولكن المعروف أن جوركى لم يكتب هذه المقالات كفصول فى كتاب واحد ، بل هى مجموعة من دراساته ومقالاته وخطبه ومقدماته النقدية لكتب الآخرين . . كتبت فى مناسبات متفرقة ، ونشرت بالطبع فى أماكن مختلفة وتواريخ مختلفة ، وهى لا يربطها أى رابط سوى أنها كتبت بقلم جوركى . . ومن هنا فاستبعاد الدعاية مباح .

ومرة أخرى إلى تكرار كلمة « الاتهامات » فى تعقيبه . . فأنا لا أتهم ، ولم أنكر — بالرغم من أخطاء الترجمة — القيمة الأدبية والفائدة التى تكتسبها المكتبة العربية بوجود مثل هذا الكتاب من كتابات جوركى النقدية ، الأمر الذى خلت منه المكتبة العربية فيما عدا كتاب « صور أدبية » ، ولكن حرصى على وجود ترجمات كاملة لدراسات أدبية لجوركى وعنه ، تولد عنه هذا المقال الذى كتب بهذا الدافع الموضوعى وحده .

بقيت ملاحظة أخيرة . الأستاذ دواره يعد قولى عنه — إنه كاتب جاد زود المكتبة العربية والصحافة العربية بكتابات مفيدة ورصينة — من قبيل الثناء ولكنى كتبته بدافع من تقرير الحقيقة — لا المجاملة — وبدافع من متابعتى لنشاطه وقراءتى لمعظم كتاباته .

هذا رأيى . . وللأستاذ فؤاد دواره خالص شكرى وتقديرى . . ولمجـلة « الكتاب العربى » الرصينة ، محبتى واحترامى .

أحمد محمد عطيه